

صفحات من
تاريخ
مصر
الفرعونية

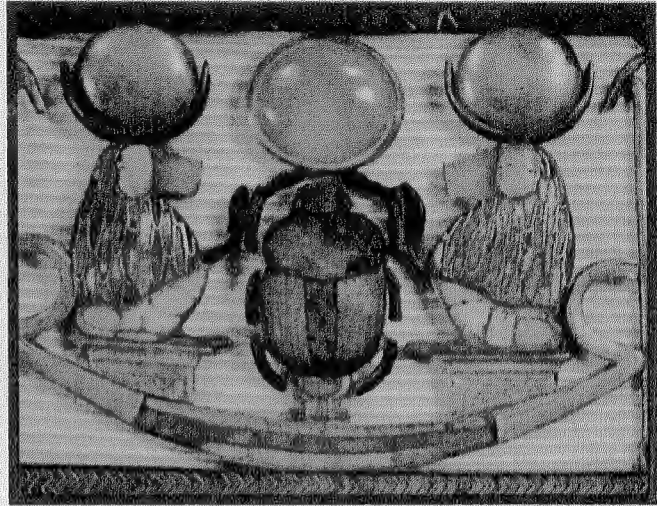
مصر في العصور القديمة

تأليف

إبراهيم حمير سيف الدين زكي علي أحمد نجيب هاشم
المفتش بالتعليم الثانوي المدرس بكلية الآداب المفتش بالتعليم الثانوي

راجع

الأستاذ محمد صفيق غريبال
عميد كلية الآداب



الناشر
مكتبة مذبولي
القاهرة

مضري العصور القديمة

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة مندوبولي

الطبعة الثانية

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الناشر

مكتبة مندوبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٥٧٥٦٤٢١

مُصْرَفِي الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ

تَأَلَّفَ

أحمد نجيب هاشم
المفتش بالتعليم الثانوي

زكي علي
المدرس بكلية الآداب

إبراهيم حمير سيف الدين
المفتش بالتعليم الثانوي

راجعهُ

الأستاذ محمد صفيق غريبال
عميد كلية الآداب

مكتبة مدبولي
الطبعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فهرس

كتاب مصر في العصور القديمة

صفحة

الباب الأول ، مصر في العصور الأول :

١ جغرافية مصر القديمة وأثرها في تاريخها
٩ حضارة مصر في عصور ما قبل التاريخ...
١٨ عصر ملوك طيبة ، اتحاد مصر
٢٤ الحضارة في عصر ملوك طيبة

الباب الثاني ، الدولة القديمة :

٢٨ عصر بناء الأهرام
٤٤ عصر نفوذ الكهنة
٥٠ الأسرة السادسة وسقوط الدولة القديمة
٥٥ عصر الانحلال

الباب الثالث ، الدولة الوسطى ، عصر الإقطاعات :

٥٨ عصر ملوك طيبة...
٦٠ الأسرة الثانية عشرة
٧١ حكم الهكسوس...

الباب الرابع ، الدولة الحديثة ، عصر الاستقلال :

٧٦ الأسرة الثامنة عشرة...
٧٧ قيام الإمبراطورية المصرية
٨٢ تحوتمس الثالث
٨٧ طيبة في أوج عزها

(د)

صفحة

٩٢	الانقلاب الدينى ، اخناتون
٩٨	توت عنخ آمون
١٠٤	الأمرة التاسعة عشرة...
١٠٦	رمسيس الثانى
١١٥	اضمحلال الأمباطورية المصرية
١٢٦	كهنة طيبة وأمرأ تانيس
١٣١	الليبيون (الامرة الثانية والعشرون)
١٣٣	النوبيون والأشوريون

الباب الخامس ، العصر الصاوى :

١٣٦	عصر النهضة المصرية ، الأسرة السادسة والعشرون
١٣٩	نخاو الثانى وخلفائه
١٤١	نخاو والغيتيقيون
١٤٧	الفرس وفتح مصر

الباب السادس ، الحضارة المصرية القديمة :

١٥٢	الزراعة
١٥٥	الصناعة
١٥٨	التجارة
١٦١	الفنون
١٦٩	العلوم والآداب
١٧٩	المعتقدات الدينية
١٨٨	النظم الحكومية...
١٩١	الحياة العامة

الباب السابع ، مصر والإسكندر :

١٩٨	مميزات الحضارة اليونانية
٢٠٣	الإسكندر الأكبر
٢٠٥	الإسكندر يخضع المدن اليونانية
٢٠٥	إمبراطورية الإسكندر وسياسته
٢٠٨	الإسكندر في مصر وتأسيس الإسكندرية

الباب الثامن ، مصر في عهد البطالمة :

٢١٢	تقسيم دولة الإسكندر
٢١٢	أهم ملوك البطالمة
٢١٥	بطليموس الثاني
٢٢١	حضارة مصر في عهد البطالمة

الباب التاسع ، مصر في العصر الروماني :

٢٢٧	تمرد سلطان روما
٢٣٠	الإمبراطورية الرومانية
٢٣٥	مميزات الحضارة الرومانية
٢٣٩	علاقة الرومان بالبطالمة
٢٤٣	مصر تحت الحكم الروماني
٢٤٦	دخول المسيحية في مصر

الصور الملونة

٢١	الملك ميناء "نارمر"
٩٧	»	الملسكة نفر تي
١٠٠	»	قلادة توت عنخ آمون
١٦٥	»	قطعة تاكل سمكة

(د)

الخرائط

صفحة	
٥	الدلتا في العصور القديمة
٥٩	أهم مواقع الآثار
٦٨	الطريق البحري بين قفط والقصير
٦٨	القناة القديمة بين النيل والبحر الأحمر
٨٣	الإمبراطورية المصرية في عهد تحوتمس الثالث
١٠٨	الإمبراطورية المصرية في عهد رمسيس الثاني
١٤٣	بعثة نخاو الفينيقية حول أفريقيا
٢٠٦	إمبراطورية الأسكندر
٢١١	دول خلفاء الإسكندر (في القرن الثالث ق م ٠)
٢١٨	دول خلفاء الإسكندر (في القرن الثاني ق م ٠)
٢٣١	الإمبراطورية الرومانية
٢٤٩	مراكز الحضارة القديمة في البحر الأبيض المتوسط



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

نعرض عليك في هذا الكتاب تاريخ الحضارة المصرية منذ أقدم أزمانها ، منذ أيام الإنسان الأول ، الذى أوى إلى الكهوف واتخذ من الحجارة أدوات . وقد ارتقى هذا الإنسان فعرف كيف يوقد النار ، ويسخر الأنعام ، ويستنبت البذور ، وانتظم في جماعات تخضع لرؤساء منها ، ثم اتحدت هذه الجماعات في ممالك ، واندجحت هذه الممالك في الوحدة المصرية ، وظهرت بذلك مصر التاريخية .

وقد بينا لك معالم ذلك التاريخ المصرى الطويل ، ووصفنا لك حياة المصريين السياسية والاجتماعية والفنية والدينية ، وتتبعنا هذه الحياة الى وقت انتهائها ، إلى اندثار الحضارة المصرية القديمة ، لما وقعت مصر في حكم الملوك الغرياء : البطالمة المقدونيين ، والقيصرية الرومان .

وسترى أن هذا المجتمع المصرى القديم كان فريدا ، وأن إدراك حقيقته وتفهم أمره لا يخلوان من عناء . فقد باعد الزمن بيننا وبين ذلك المجتمع ، وخلقت منا الأحداث التى توالى على بلادنا خلقاً جديداً ، يكاد لا يفهم شيئاً من أمر ذلك المجتمع القديم ، ولكن علينا أن نحاول :

في مصر القديمة تألف من الأفراد كبيرهم وصغيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، أمة متماسكة ، ومجتمع مرتبط بعضه ببعض الآخر ، يسوده النظام ، وتغلب فيه مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، ويؤدى كل إنسان واجبه الذى قسم له . وهو مجتمع ، التزعة فيه دائماً نحو التنسيق والتوحيد والانسجام ، فكان بذلك أبعد ما يكون عن العالم اليونانى والرومانى ، الذى حاولنا أن نكشف لك في إيجاز عن أهم مميزاته ، حيث الاضطراب السياسى والفكرى والاجتماعى ، وحيث تطغى مصلحة الفرد على نفع المجموع . وينبغى ألا نقول إن هذا النظام أفضل من ذاك ، أو إن الإنسانية بحاجة إلى الواحد دون الآخر ، فهى فى الواقع بحاجة إلى النظامين والفكرتين .

(ج)

ونحن نقص عليك هذا التاريخ لما فيه من المتعة في ذاته ، ولأن كل مصرى يجب أن يعرف ولو قد رايسيرا مما جرى على بلاده، لأن هذه المعرفة تكون عنصراً هاماً من عناصر ملكة الحكم على المسائل التي يجب أن توجد في كل مصرى .

وهذه المعرنة تغذى العواطف أيضاً مما تبعث في المصرى من الإعجاب أحياناً والاستنكار أحياناً ، وهى توسع المجال للتفكر والتأمل فيما اتخذته المصرى القديم من طرائق العيش وأساليب الحياة المختلفة ، وتؤدى الدراسة التاريخية على هذا النحو ما تؤديه السياحة في أنحاء الأرض أو الاطلاع على أحوال الأمم الحاضرة .

وإنما عند ما تنتقل بك في هذا الكتاب ، ندعوك ألا تتخذ من الدراسة التاريخية مجرد أداة للتباهى بما خلفه المصريون القدماء ، فالمهذب لا يباهى حتى بما صنعت يده . كما أنا ندعوك ألا تزج بنفسك في الجدل العقيم الدائر : أينسب مصريو اليوم إلى مصريي الأمس ، أم يتصلون منهم ؟ فلا داعى لهذا ، فإن الحضارة المصرية قد ماتت بعد أن ألفت بذورها ، وبعد أن علمت الناس طرائق الفنون ، وأصول العلوم ، وقواعد الكتابة ، وعقيدة البعث والحساب في اليوم الآخر ، وفكرة الملوك المؤهلين والإدارة الحكومية الرشيدة ، وليس هذا بالقليل .

وما الكتاب الذى نضعه بين يديك إلا عبارة أبحاث طويلة تملأ المثمين من المجلدات ، فقد وصف مصر القديمة وآثارها عدد كبير من الزوار الغرباء ، القدماء والمحدثين : من اليونان ، والرومان ، والعرب ، والفرنجة . وكتب عن مصر القديمة عدد كبير من العلماء ، بعد أن استطاع شامبوليون فك رموز الكتابة القديمة ، وكشف عن آثارها كشافاً علمياً الأثريون ، وفي طليعتهم مارييت ، واتسع بذلك نطاق البحث وتشعبت المسائل ، حتى دخل التخصص في الدراسات المصرية ، ففرغ بعض العلماء للباحث اللغوية ، وآخرون للفنية أو الدينية ، وما إلى ذلك .

ولعل هذا الكتاب الصغير يشوقك إلى التاريخ المصرى القديم ، ويحبب إليك البحث في كتب أكبر منه ما

الباب الأول

مصر في العصور الأولى

الفصل الأول

جغرافية مصر القديمة وأثرها في تاريخها

تمهيد :

مصر من البلاد التي توفرت الدلائل على أن الحضارة قامت فيها قبل العصور التاريخية بزمان بعيد ، واستمرت مزدهرة بعد ذلك أربعة آلاف من السنين . ويرجع ذلك إلى عوامل جغرافية خاصة كان لها أثر عظيم في تكييف العناصر الضرورية لقيام المدنية ؛ لهذا كان لزاماً على المؤرخ ، قبل أن يعرض تاريخ مصر القديمة ، أن يمهّد لبحثه بالملمة عامة عن جغرافيتها ، ليبين مدى ما لها من أثر في وجودها .

١ - نهر النيل

لا ريب أن العامل الأساسي في وجود مصر هو النيل ، الذي لولاه لكانت صحراء جرداء ، كبقية الأراضي التي تحيط بها من الشرق والغرب ، ولما وجدت فيها حياة أو قامت بها حضارة .

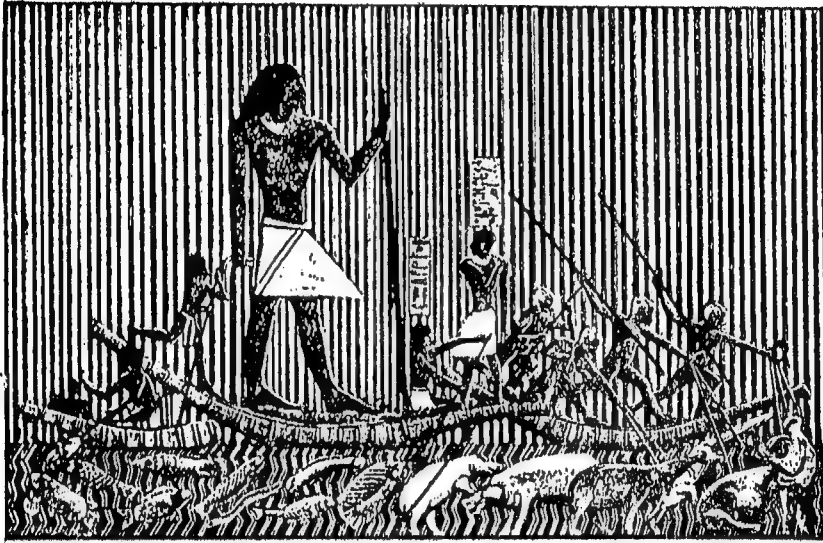
مصر هبة النيل :

شق النيل مجراه في الهضبة الصحراوية ، التي تشمل جميع الجزء الشمالى الشرقى من قارة إفريقيا ، أيام كانت تلك الهضبة غزيرة الأمطار ، وذلك منذ آلاف السنين ، واخترق أرضها الرملية أو الجيرية ، حاملاً معه الغرين الذى كان يقذف به عاماً

بعد عام فى الجزء الأسفل من واديه فكُون بذلك بقعة من أخصب بقاع العالم ،
هى مصر . وهذا ما أوحى إلى ”هَكَاتَه“ الجغرافى اليونانى كلمته المشهورة
”مصر هبة النيل“ ، فنقلها عنه هيرودوت المؤرخ اليونانى ، الذى عاش
فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ورددتها الألسن إلى يومنا هذا .

أثر النيل فى الحياة المصرية :

وكان النيل فى العصور الأولى يغمر الأراضى فيصيرها رطبة ويجعلها مرعى
لعدد وفير من أسراب الماشية ، أما فروعه الراكدة المياه ومستنقعاته الكثيرة
النائية المترامية الأطراف بالوجهين البحرى والقبلى فكانت تكتنفها الأعشاب
الكثيفة من البردى ، ويؤمها أفراس البحر والتماشيح وطيور الماء . وكان المصرى
يصل إلى تلك البقاع فى زورق من البردى ليصطاد بخطافه ويرشق بنباله حيوان
هذه المستنقعات ، كما كان يصعد إلى قمم التلال الصحراوية ، التى تكتنف حافى
الوادى ، فيقتنص فيها السباع أو الضباع أو بنات آوى .



صيد أفراس البحر

وكانت الحاجة إلى طلب القوت سبباً في تعلم القوم تدريجياً والنهوض بهم إلى الحضارة ونور العلم ، فدعتهم وفرة الماء للعمل على الإفادة منه ، ففكروا في شق الترع وبناء الخزانات لتنظيم الري ، وفي تخفيف المستنقعات لتحويلها إلى أراض زراعية .

ولكن هذه الجهود يتعذر على الفرد القيام بها وحده ، لذلك كان لازماً على السكان أن ينضم بعضهم إلى بعض ويؤلفوا من أنفسهم وحدات كبيرة تلقى كل منها مقابلد أمرها في يد رئيس يرأسها . ومن ذلك تكونت إمارات صغيرة يحكمها رؤساء صغار .

وفي فجر التاريخ تكونت من إمارات مصر المختلفة مملكتان عظيمتان ، إحداهما في الشمال والثانية في الجنوب ، بقيت كل منهما مستقلة عن الأخرى ، إلى أن اندمجتا وتكونت منهما دولة واحدة .



آله النيل

ونظراً لأهمية الري عُنى المصريون بدراسة أحوال النهر وقياس ارتفاعه وانخفاضه ، كما عدّوا الأيام التي تسبق كل فيضان ، وبعبارة أخرى فإن الحاجة هي التي دفعتهم إلى اختراع علمي الهندسة والحساب .

عبادة النيل :

لهذه الأسباب كان للنيل في نفوس المصريين القدماء احترام صادر عن عقيدة ، إذ أنه صاحب الفضل الأول في حفظ حياتهم ، والحصن الذي به يتقون غوائل الجذب والضييق ، ولقد بلغ من تقديسهم للنيل أن عبده وسموه "حعبي" أي الإله المقدس ، وكانوا يؤدون له فرائض العبادة ، وخاصة في أيام الفيضان ،

ولا يزال المصريون يحتفلون بفيضانه إلى اليوم ، وفاء له لما أنعم به عليهم من خصوبة ونماء .

٢ - سطح مصر

ليس سطح مصر وحدة متشابهة من الشمال إلى الجنوب ، بل ينقسم إلى قسمين مختلفين تمام الاختلاف هما : مصر العليا (الصعيد) ومصر السفلى (الدلتا) .

مصر العليا :

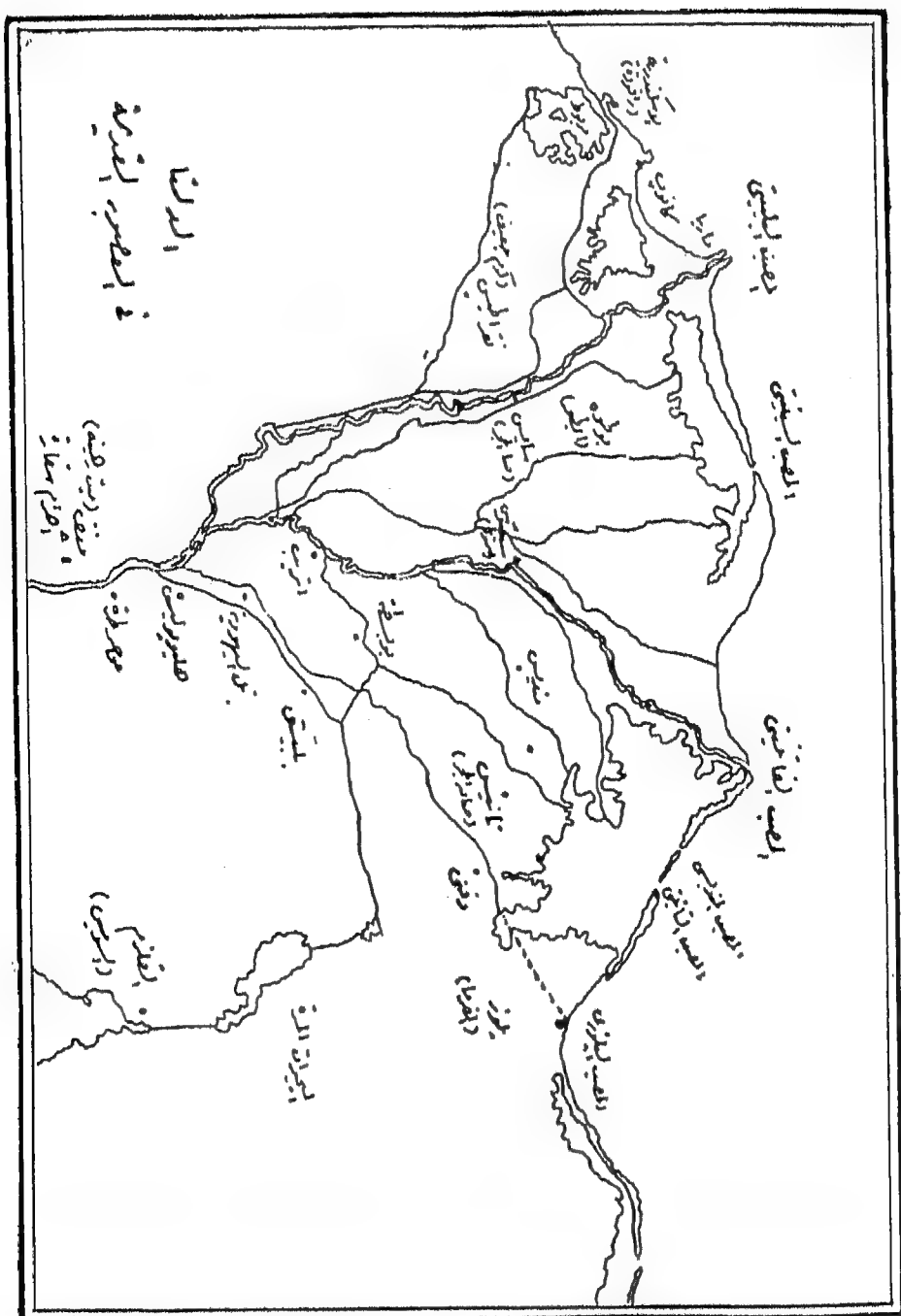
وتتكون مصر العليا من واد ضيق يمتد من الشلال الأول عند أسوان إلى رأس الدلتا بالقرب من القاهرة ، ويبلغ طوله حوالى ثمانمائة وثمانين كيلو متراً ، أما عرضه فلا يزيد على عشرين كيلو متراً ، وقد يصل فى بعض الجهات إلى بضعة أمتار .

فى هذا الوادى الضيق الذى تحف به الصحراء من جانبيه ، عاش سكان مصر القدماء ، وكان لضيق الوادى أثر كبير فى مستوى تفكيرهم وطبيعته حياتهم ، فأصبحت الأرض فى نظرهم قسمين : الأرض السوداء ، وهو الاسم الذى أطلقوه على وادى النيل بسبب سواد تربته ، والأرض الحمراء ، وهو الاسم الذى عرّفوا به الصحراء الرملية ، وما كانوا يعرفون عن البلاد الأجنبية إلا أنها بلاد لا بد أن تكون جابية ، لأن إقليم مصر سهل لا وعورة فيه ، كما أنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا بلداً لا نيل فيه ، وهذا يبين مدى أثر العزلة التى أحاطت بساكن مصر العليا فى أفكاره وآرائه .

مصر السفلى :

وتختلف مصر السفلى كل الاختلاف عن مصر العليا ، إذ أن الدلتا كانت فى أول الأمر خليجاً بحرياً ، ملأه النيل بطميّه ، حتى أصبح أرضاً منبسطة تتخللها عدة فروع للنيل ، ولا توجد بها مرتفعات ، ولا بد أنها ظهرت لسكانها سهلاً فسيحاً يمتد إلى الأفق فى جميع نواحيه .

وكان اتساع الأفق أمام سكان الدلتا قوى الأثر فى شعورهم بالحرية وتوجيه حياتهم ومعيشتهم ، وتقدم مدنيّتهم .



٣ — أرض مصر

خصوبة التربة :

ومن المؤكد أنه كان لتربة مصر ، كما كان لسطحها ، أثر فعّالٌ في حضارتها في العصور القديمة ، فالطمى الذى يجلبه النيل سنوياً في ، زمن الفيضان ، جعل أرض مصر موفورة الخصوبة .

ولقد ساعد هذا الخصب على نمو محاصيل كثيرة : كالقمح والذرة ، والعدس والكتّان ، والثوم والبصل ، والخضر والفاكهة ، وخاصة الكروم والنخيل ، وغير ذلك من المحصولات التى تعتبر ركناً أساسياً في طعام السكان ، والتى متى توافرت سهّلت الحياة وشجعت تقدم المدنية .

المعادن :

وأرض مصر، التى تخرج هذه المحصولات الكثيرة ، لم تحرمها الطبيعة نصيبها من المعادن : كالذهب، والنحاس، والحديد، والرصاص، وبعض الأحجار الكريمة، التى كانت ينبوعاً من ينابيع ثروتها .

ولقد اهتم المصريون بمناطق هذه المعادن، وأنشأوا طرقاً كثيرة توصلها بالوادي، وكان الطريق الرئيسى حينئذ هو طريق وادى الحمامات الذى يصل النيل بالبحر الأحمر بين قفط والقصير .

ومن المعادن والحجارة ، التى وجدت في مصر ، استطاع المصريون القدماء أن يصنعوا تماثيلهم البديعة وآيتهم الجميلة وحُلِيِّهم الثمينة، التى ورثها الأحفاد عن الأجداد فبقيت إلى يومنا هذا ناطقة بما كان عليه قدماء المصريين من رقى وحضارة .

٤ — موقع مصر

تقع مصر عند ملتقى ثلاث قارات من الدنيا القديمة ، ويحدها بحران أحدهما في الشمال ، هو البحر المتوسط ، والثانى في الشرق هو البحر الأحمر .

نشاط التجارة :

وكانت هناك طرق تجارية تستخدم لتصريف المنتجات المصرية واستيراد الحاصلات الخارجية ، قسافر السفن من الموانئ النيلية لتتاجر مع البلاد المجاورة ، مستبدلة بقمحها ونبيذها وزجاجها وأثاثها ومصنوعاتها وأوانيها الخزفية ، والتماثيل من بلاد الإغريق ، والصفائح والملابس من جزيرة صقلية . ولا ريب أن محاصيل الشرق الأقصى كانت ترد إلى مصر في تلك العصور ، لأن بقاياها وجدت في مقابر الفراعنة .

ومما لا شك فيه أن هذه التجارة كانت عاملاً هاماً في تبادل الأفكار بين مصر وجيرانها .

تعرض الدلتا للغزو :

هكذا كان لموقع مصر أثر بليغ في أحوالها الاقتصادية والفكرية ، بيد أنه عاق أحياناً تقدمها الاجتماعي ، إذ أن مصر تهي مدخل أفريقيا من اعتداء سكان غرب آسيا ، الذين طامحوا كانت بلادهم مركز اضطرابات كلما اشتدت أرغمت بعضهم على النزوح إلى دلتا مصر الحصينة ، وقد تكررت تلك الغزوات ، وكان صدها في كل مرة يكلف سكان الدلتا مجهوداً كبيراً ، كان من المستطاع أن يُستغل في العمل على ترقية البلاد .

ولم يكن غرب الدلتا أكثر سلامة من شرقها ، ففي الغرب عاشت قبائل ليبية كانت دائماً مستعدة ، في كل عصر من عصور التاريخ المصري القديم ، أن تلتهم فرصة ضعف الحكومة أو قيام نزاع داخلي في البلاد لتتنقض على الأراضي الحصينة .

مناعة الوجه القبلي :

أما الوجه القبلي فكان بعيداً عن هذه العواصف التي طامحها هبت على الدلتا إذ لم تجاوره أمم في الشرق أو في الغرب ، كما كان من الميسور الدفاع عنه من الشمال والجنوب : ففي الشمال كانت الدلتا نفسها سداً قوياً ضد غزوات الأسويين

والليبيين ، أما في الجنوب ، فإن القبائل الهمجية في النوبة العليا والسودان لم تحدث لمصر متاعب تذكر ، اللهم إلا في القرن الثامن قبل الميلاد .

وهكذا كانت مصر العليا تنعم باستقرار تام ، استطاعت معه أن تواصل سيرها في سبيل التقدم السياسى والاجتماعى .

٥ - مناخ مصر

اعتدال المناخ وأثره :

ولا يقل أثر المناخ عن أثر غيره من العوامل الجغرافية في تقدم الحضارة المصرية ، فلقد حبا الله مصر مناخاً جميلاً معتدل الحرارة والرطوبة بوجه عام . حقيقة أن الصيف حار ، وخاصة كلما اتجهنا جنوباً ، ولكن الرياح التى تهب من الشمال تخفف من وطأة أشعة الشمس ، أما في المدة من أكتوبر إلى أبريل فمناخ مصر لطيف منعش ، وفوق ذلك فإن سمائها صافية ، وشمسها ساطعة ، طول أيام السنة تقريباً .

ولقد كان لجمال مناخ مصر أحسن الأثر في تفكير سكان البلاد ونشاطهم وسيرهم في طريق الحضارة بخطى واسعة .

حفظ الآثار :

كذلك كان لمناخ مصر أثر آخر لا يقل خطورة عما سبق ، ذلك أنه ساعد على بقاء ما خلفه القدماء من آثار قيِّمة ، لولاها لضاعت معالم تاريخهم ، الذى هو تاريخ الإنسانية الأولى ، بوجه عام ، وتاريخ مدنية البحر المتوسط إبان عزمها ، بوجه خاص .

تلك هى العوامل الجغرافية التى ساعدت على الحضارة في مصر ، وسيرها في طريق الرقى ، إلى أن بلغ المصريون درجة عظيمة من القوة والسلطان .

الفصل الثانى

حضارة مصر فى عصور ما قبل التاريخ ^(١)

تمهيد :

الحضارة فى نموها وتطورها أشبه ما تكون بالإنسان ، لا يمكن أن تولد ناضجةً كاملة النمو ، بل لا بد لها من زمن طويل تنمو فيه وتتطور . وعسير على الباحث أن يتعرف أصل الحضارة وخطاها فى التقدم والحقائق المرتبطة بها ، قبل أن يدرس الأدوار التى كالغ الإنسان فيها ، حتى استطاع أن ينتقل من الهمجية إلى المدنية ومن هنا كان اهتمام العلماء بعصور ما قبل التاريخ فى مصر ، وهى العصور التى سبقت الحوادث التاريخية المدونة ، فتسابقوا فى التنقيب عن آثارها وعثروا على الكثير منها فى جهات مختلفة ، وخاصة فى الأماكن الواقعة بين الأراضى الزراعية والصحارى ، ووصلوا بذلك إلى حقائق عن تلك العصور وأهلها ، كانوا يجهلونهم إلى زمن قريب .

١ - العصر الحجري القديم

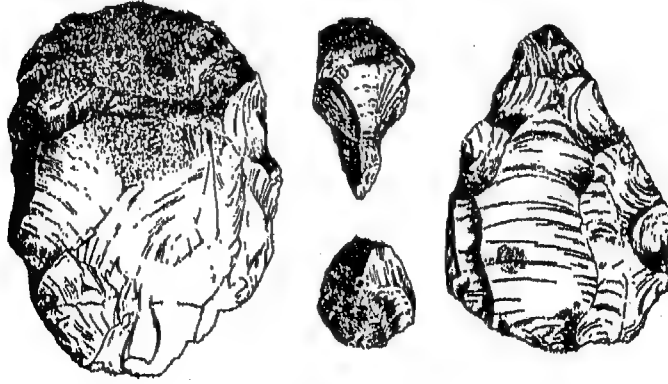
موطن سكان مصر الأول :

ولقد دلت الآلات الحجرية ، التى وجدت على سطح الهضبة الصحراوية ، أو على عمق كبير من السطح ، على أن سكان مصر الأول عاشوا فوق الهضبة وعلى حافة الوادى ، وكان مناخ تلك الجهات حينئذ أكثر رطوبة منه الآن فتوفرت المياه التى ساعدت على نمو الحشائش والأعشاب وبعض الأشجار المتفرقة ، ولا تزال الوديان الصحراوية الجافة التى كانت تجرى فيها المياه فى ذلك العصر موجودة فى بعض نواحي الهضبة حتى وقتنا الحاضر .

(١) يرجع الفضل فى معرفة جل هذه المعلومات الحديثة إلى رأى حفرة الأستاذ مصطفى عامر بك الذى وفق إلى كشف كثير من آثار هذه العصور فى منطقة المادى .

معيشتهم :

ومما لا شك فيه أن الإنسان، الذي كان يقطن تلك الصحارى، عاش في أو
الأمر على الفطرة : يسكن الكهوف ، ويلتمس الرزق في الصيد والقتل
ويستعمل آلات يصنعها من الحجارة صنعاً بسيطاً . ومما ساعده على الصيد
الصحراء كان يأوى إليها كثير من الوحوش المفترسة : كالأسود والفهود والثيران



آلات من العصر الحجري القديم

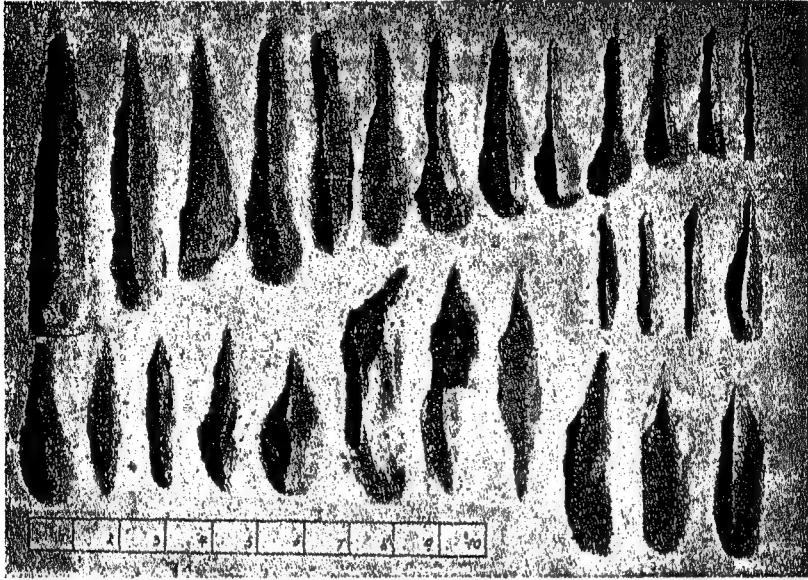
أو الحيوانات الصغيرة كالوعول والفزلان ، ولكن الإنسان الأول لم يوفق إلا
استئناس هذه الحيوانات ، كما أنه لم يعرف الزراعة ، وكان يجمع ثمار الأشجار
ويصيد الطيور والأسماك من المستنقعات ليتغذى بها ، وهكذا كانت حياته حيا
كفاح وشدة ، ولقد سمي ذلك العصر الأول بالعصر الحجري القديم .

٢ — العصر الحجري الحديث

هجرة السكان واستقرارهم :

قضى سكان مصر الأول ردها من الزمن على هذه الحال الفطرية ، فلما بد
مناخ الصحراء يجف تدريجاً وقلت الأمطار ، أخذ هؤلاء السكان يهجرون
الصحراء ليعيشوا بالقرب من موارد الماء ، وفي هذه الجهات استأنس
الأمريون الحيوانات وعنوا بتربيته ، وعرفوا الزراعة واهتموا بها ،

ولما كانت الزراعة ومستلزماتها تحتاج الى التعاون ، فقد انتظم الأفراد في قبائل تخضع لنظام خاص ، وعاشوا عيشة استقرار ، فشيّدوا المساكن ، وصنعوا الأواني من الفخار ، لحفظ طعامهم وشرابهم ، ونسجوا المنسوجات ليصنعوا منها ملابسهم ، كما صنعوا آلاتهم من الصوان ، فكانت أجهل من سابقتها شكلا وأحسن صقلا . وكان لكل قبيلة شعار أو رمز اختارته مما يحيط بها من حيوان أو نبات أو غيرها : كالنحلة والصقر والبردى ، يلتف حوله أفرادها وينتسبون إليه ، ويعبدونه . ثم اجتمع عدد من القبائل في منطقة واحدة وأحاطوها بسور ، فتكوّنت بذلك القرى والمدن ، التي انتشرت في الدلتا



آلات من العصر الحجري الحديث

وأقليم الفيوم وعلى حافتي الوادي بمصر الوسطى والعليا : كمنطقة المعادى وحلوان ، والبدارى بمديرية أسيوط ، ونقاده بمديرية قنا ، وكانت كل قرية من هذه القرى تعيش في عزلة عن غيرها . ومن بقايا تلك القرى والقبور تمكن الباحثون من كشف كثير من أسرار هذا العصر ، الذي أطلق عليه العصر الحجري الحديث .

المساكن :

وكانت مساكن المصريين في هذا العصر بسيطة للغاية ، تبنى من جذوع الأشجار وأغصانها ، ويطل سطحها الخارجى بالطين ، وكان شكلها بيضياً في الغالب أو مستطيلاً ، ويتجه بابها جهة الجنوب ، ليكون سكانها في مأمن من ريح الشمال ، وخاصة في فصل الشتاء البارد . وكان يقام عند مدخل كل بيت من هذه البيوت موقد محفور في الأرض أو مبنى بالحجارة والصلصال ، ويجوار الموقد كانت توضع قدور مختلفة الأحجام ، يحفظ الماء في بعضها ، وتخزن الغلال وأنواع الطعام في البعض الآخر .



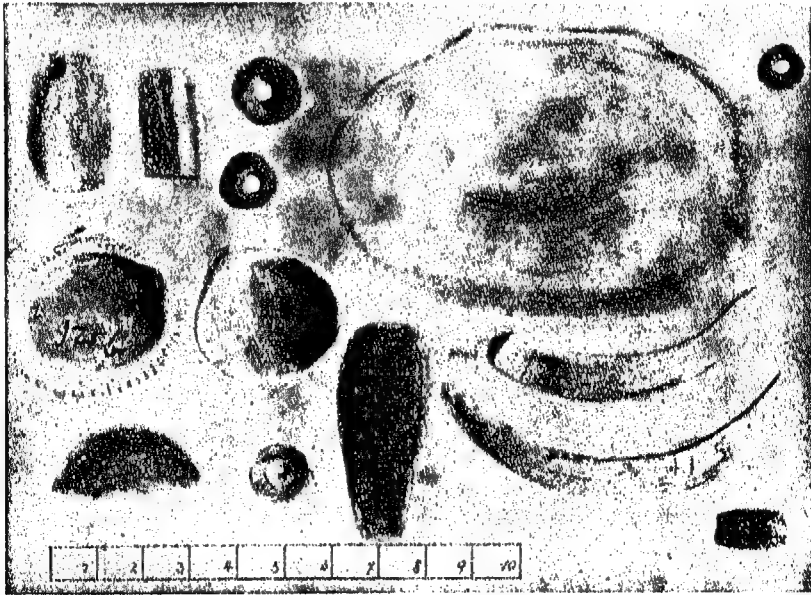
قدر كبير نظون الأشياء.

الملابس :

وكان الإنسان يلتحف أحياناً جلود الحيوان أو يصنع منها لباساً قصيراً ، كما كان ينسج بعض الملابس من شعر الحيوان وصوفه أو من الألياف .

أدوات الزينة :

وقد استعملت المرأة المصرية في ذلك العصر الألوان للزينة ، فكانت تكتحل بمادة خضراء ، وتصبغ خديها وشفتيها بمادة حمراء ، وحاجبيها بمادة سوداء .



بعض أدوات الزينة

وتمسّطُ شعرها بأمشاط من قرون الحيوان أو العاج ، وتزين صدرها بعقود من الخرز أو العقيق أو الأصداق أو سن الخنزير أو قشور بيض النعام ، وتحلى يديها بالأساور ، وأذنيها بالأقراط المصنوعة من الحجر أو البلور أو العقيق .

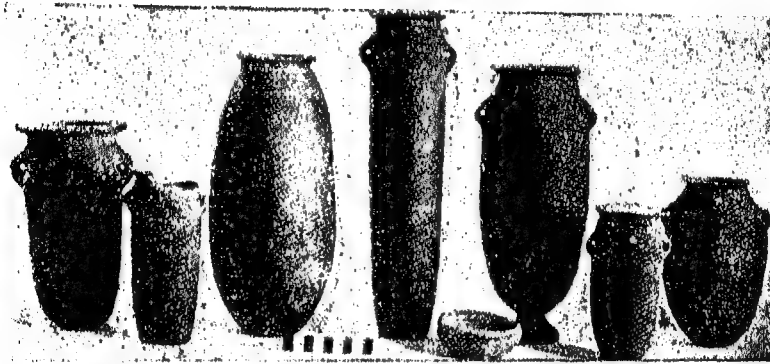
صناعة الأواني :

ولقد أجاد سكان مصر في ذلك العصر صنع الأواني من الفخار بأيديهم ^(١) بأشكال وألوان مختلفة ، فمنها المستدير الأسود ، والمستطيل الأحمر ، أو المائل إلى

(١) تعرف بحلة الفخارى إلا في العصر التاريخي .

البياض والاصفرار ، أو المصنوع على هيئة الطير أو الحيوان ، وكلها دقيقة الصنع فائقة الجمال .

وظهرت مهارة سكان مصر الأول في قطع الصخور الصلبة وتشكيلها وصقل سطحها ، فصنعوا الآنية الجميلة الشكل من أحجار البازلت والمرمر وغيرهما من الأحجار التي يصعب نحتها ، وكانوا يصنعون من الصوان بعض آلاتهم : كالمُدَى والمناجل والمثاقب ورؤوس السهام والفؤوس والدبابيس ، و يصنعون البعض الآخر من عظم الحيوان أو من الخشب : كالملاعق وأغطية القدور .



آنية من حجر البازلت الأسود . وعاء صغير من المرمر

الزراعة :

وكانت الزراعة أهم ما اشتغل به أكثر سكان مصر ، وخاصة أهل الشمال ، وقد أغرتهم بمزاوتها خصوبة التربة التي سببها ما يجلبه النيل من غرين كل عام ، كذلك استأنس المصريون في هذا العصر بعض الحيوانات : كالثيران ، والغنم والماعز ، والخنزير ، الذي كثر في الوجه البحري .

التجارة :

ولا شك أن المصريين في نهاية ذلك العصر اشتغلوا بقليل من التجارة مع البلاد المجاورة ، وكانت لهم سفن تسير في النيل وعلى كل منها علم الإمارة التي كانت تتبعها ، والتي كانت مصر حينذاك تصم كثيرا منها .



قدر عليها رسم قارب من العصر السابق للأسرات

عادات الدفن :

وكان من عادة المصريين الأوائل أن يدفنوا موتاهم في حفرة مستديرة الشكل أو مستطيلة ، فيضعوا الجثة فيها على جانبها الأيسر ، ويجعلوا الرأس تجاه الجنوب والوجه تجاه الغرب ، والركبتين قريبتين من الصدر ، واليدين أمام الوجه ، (كالجنين في بطن أمه) ، وكانت توضع بجانبها أغلى مقتنيات الميت في حياته ، من أوان تحوى الطعام والشراب وأدوات الزينة والآلات ، وكان يوجد بجانبها أحيانا موقد للتدفئة ، وذلك لاعتقادهم أن للإنسان حاجات في مماته ، كما له في حياته ، وأن موت الجسد ليس معناه نهاية المرء بل معناه الانتقال من حياة إلى حياة ، ومن المحتمل أن كثيرا من هذه المقابر لم يكن مسقوفا بل مغمورا بالرمال إلى

مستوى سطح الصخر ، ومنها ما كان مغطى بسقف من الخشب أو البوص
تعلوه طبقة من الطين .



قبر من العصر السابق للأسرات

اللغة والكتابة :

أما لغة سكان مصر قبل التاريخ فن المحتمل جدا أنها هي نفس اللغة التي
كانت شائعة في عصر الأسرات ، إذ ليس من الممكن أن تظهر لغة جديدة بغاية
في الأسرة الأولى ، بل لابد أنها كانت موجودة قبل ذلك بزمان بعيد ، وكان المصري
أول من سجل أفكاره وخواتمه ، فاخترع بذلك الكتابة المعروفة بالهيراغليفية .

٣ — عصر المعادن

وقبل أن ينتهي العصر الحجري الحديث ، دخل سكان مصر في آخر مرحلة من
أولى مراحل تقدمهم في سبيل الحضارة ، وهي عصر المعادن السابق للأسرات
فاستطاعوا أن يصنعوا بعض الآلات من النحاس ، الذي كشفوه في شبه جزيرة
سيناء ، حوالي عام ٤٠٠٠ ق.م. (على أقل تقدير) ، وساروا بالبلاد في طريق الرقي
بخطوات واسعة ، ولا يزال البحث العلمي يكشف لنا أسراراً كثيرة عن هؤلاء
القوم الذين يمكننا أن نتبع حوادثهم في مقابر البداري ، بمديرية أسيوط .

الدلتا أقدم حضارة من الصعيد

وقد اعتقد الناس إلى وقت قريب أن الحضارات المصرية الأولى نشأت في الوجه القبلي ، ثم انتقلت شمالا إلى الوجه البحري ، ومما قوى هذه العقيدة عندهم أن كل ما عثر عليه الباحثون من بقايا سكان مصر قبل التاريخ وجد بالصعيد ، وأن أهل الوجه القبلي استطاعوا في نهاية ذلك العصر أن يضموا الوجه البحري إليهم ويكوّنوا من الوجهين مملكة متحدة .

ولكن أثبت فساد هذا الرأي ما كشف عنه البحث أخيرا من آثار الإنسان الأول في منطقة المعادي شرق النيل ، وفي مَرَمْدَة (بأراضي بني سلامة ، بمركز إمبابة بمديرية الجيزة) ، على بعد خمسين كيلومترا من القاهرة ، وكان طمى النيل يغمر تلك الآثار فبقيت مجهولة زمنا طويلا ، وأصبح مما لا جدال فيه أن سكان الوجه البحري كانوا أقدم حضارة من سكان الصعيد ، وساعدتهم على ذلك اتساع أراضيهم الزراعية ومراعيهم ، واعتدال مناخهم ، واتصالهم بالبحر ، وما يتبع ذلك من مختلف المؤثرات . والأدلة متوفرة الآن على أن سكان الوجه البحري وصلوا إلى درجة عظيمة من التقدم في العلوم والفنون ، ومما يسجل لهم بالفخر أنهم كانوا أول من أُرْخُوا الحوادث تاريخا تقريبا ، ووضعوا لذلك تقويما قسموا به السنة إلى اثني عشر شهرا ، والشهر إلى ثلاثين يوما ، ثم أضافوا خمسة أيام في نهاية السنة ، جعلوها أعيادا يتقدمون فيها إلى الآلهة بالعبادة .

كما أنه ثبت أن اتحاد الوجهين القبلي والبحري تم لأول مرة ، في عصر ما قبل التاريخ ، بزعماء أهل الشمال ، كذلك كانت مدن الدلتا وقراها أوسع مساحة وأكثر سكانا وأفضل نظاما من مدن الوجه القبلي وقراه .

مدة عصر ما قبل التاريخ

يصعب على المؤرخ أن يحدّد تاريخا مضبوطا لبدء عصر ما قبل التاريخ في مصر ، لهذا يكفي أن نقرر أنه بدأ منذ ظهر الإنسان لأول مرة على أرض هذه البلاد ، ومن المؤرخين من يفرض لذلك تاريخا يرجع إلى سنة ١٠٠.٠٠٠ ق . م ، أما انتهاء ذلك العصر فمن المستطاع تحديده تاريخه بحوالى سنة ٣,٢٠٠ ق . م ، أى حيث يبدأ التاريخ .

الفصل الثالث

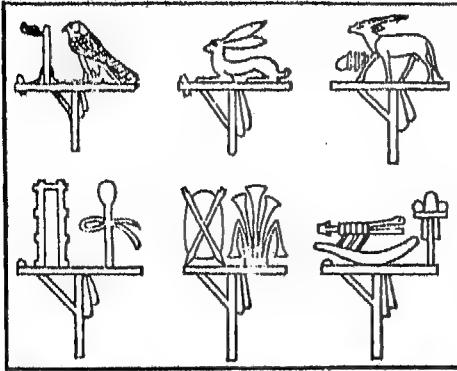
عصر ملوك طينة

٣١٩٧ — ٢٧٧٨ ق . م (١)

اتحاد مصر

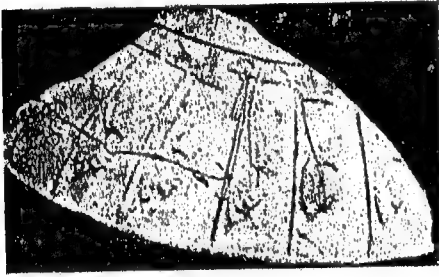
اتحاد الإمارات :

عاش المصريون الأوائل حيناً من الدهر على هيئة قبائل متنقلة كل منها



في عزلة عن الأخرى ، ولكل منها شعارها الخاص ، كالنحلة أو الصقر ، ينتسب أفرادها إليه ويلتفون حوله ، فلما توافرت لديهم أسباب استقرار الحياة واضطروا إلى التعاون للصحة

المشتركة ، انضم بعضهم إلى بعض وألفوا إمارات صغيرة مستقلة ، ألقى كل منها مقاليد أمورها إلى يد رئيس يرأسها ، وجعلت لها رمزاً خاصاً أو معبوداً أو (طوطاً) اعتبرته ربها وحاميها .



في الشكل العلوي مجموعة من الطواطم . وفي الشكل الأسفل لوحة لأحد ملوك الأسرة الأولى عليها طواطم أيضاً

(١) كل هذه التواريخ تقريبية حتى سنة ٥٢٥ ق . م .

مملكة الشمال والجنوب :

ولما زادت مطالب الحياة بمرور الأيام ، أصبح من الضروري توسيع دائرة التعاون والاتحاد ، فانضمت تلك الإمارات بعضها إلى بعض وكوّنت مملكتين منفصلتين : إحداهما في الشمال ، ولها ملك يلبس تاجاً أحمر ، ورمزها نبات اللوتس الذى يكثر في المستنقعات ، وعاصمتها مدينة بوطو ، وهى التى تعرف اليوم باسم إبطو ، إحدى قرى مركز دسوق بمديرية الغربية . والأخرى في الجنوب وعلى رأسها ملك يلبس تاجاً أبيض ، وشعارها نبات البردى ، وعاصمتها مدينة نخب (عزبة الكاب بأراضى ناحية الخبز بمركز إدفو) ، ولها ضاحية على الضفة الغربية من النهر اسمها نخين وهى التى سماها اليونان فيما بعد هيراكونبوليس ، وتقع على بعد ست عشرة كيلومتر إلى الشمال من مدينة إدفو .

وكان لكل من هاتين العاصمتين معبود خاص يراها ويدرا عنها الأخطار : فمعبود بوطو كان يرمز له بأفعى تسمى بوطو ، ومعبود نخب يرمز له بطائر يشبه النسر . وقد عبّد المعبود حوريس (ورمز له بالصقر) فى كل من هاتين العاصمتين .

وكان ملوك هاتين المملكتين يلقبون بخدام حوريس ، وقد صبغهم المصريون بصبغة دينية ، إذ اعتقدوا أن أرواحهم بعد الموت تكون واسطة بين الناس والآلهة . وبمرور الزمن اعتُبر هؤلاء الملوك أشباه آلهة ، ومن هذا يمكن أن نتصور مدى ما كان لملوك هاتين المملكتين من نفوذ وسلطان .

توحيد المملكتين :

دلّت الأبحاث الحديثة ، فى هيراكونبوليس ، على أن بعض ملوك عصر ما قبل الأسرات حاولوا توحيد مملكتى الشمال والجنوب ، وكان أول من فعل ذلك ملك من الوجه البحرى تكلّل مسعاه بالنجاح ، حوالى سنة ٢٤٥٠ ق.م . ولكن التنافس بين المملكتين كان شديداً فلم يدم هذا الاتحاد زمناً طويلاً . وبعد ألف سنة تقريباً ، قام حاكم من حكام الوجه القبلى ، وكان سياسياً محنكاً ، وقائداً قديراً ، فغزا

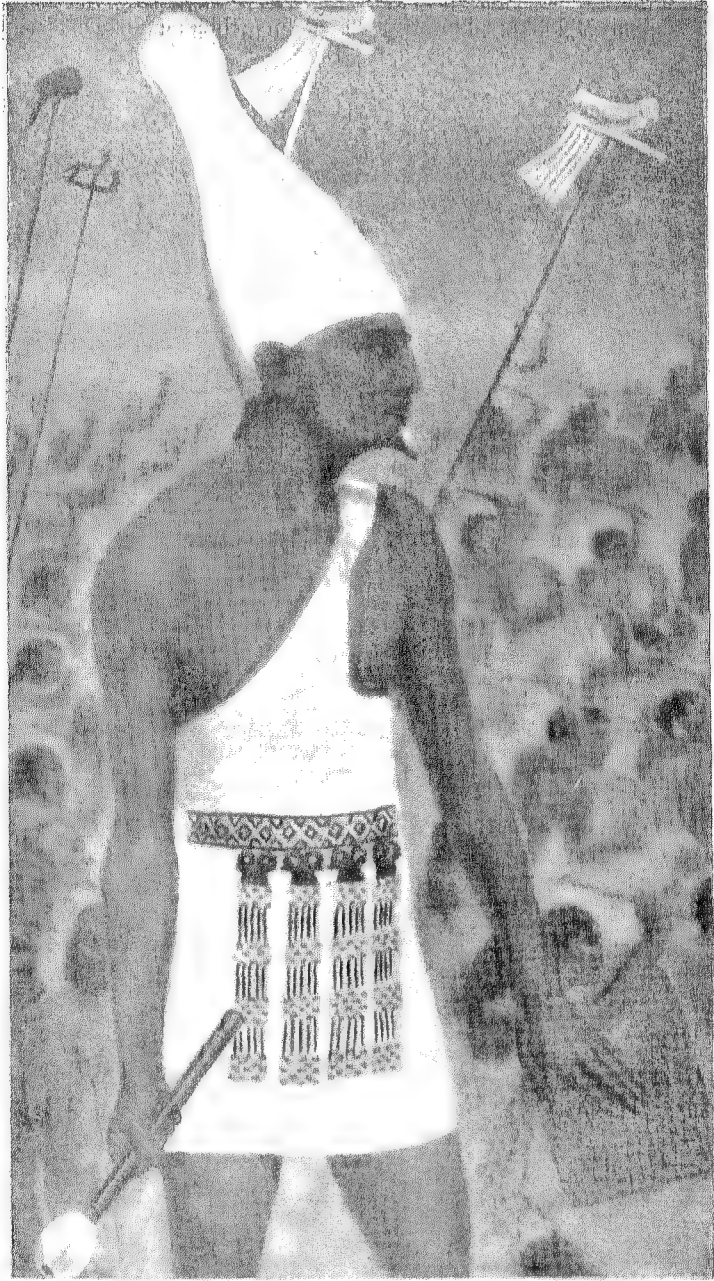
الوجه البحرى وانتصر على سكانه ، وكون منه ومن الوجه القبلى دولة واحدة تدين له بالولاء والطاعة ، وسمى نفسه ملك الوجهين ، وأخذ الملوك بمرور الزمن يضعون فوق جباههم أفعى ، وهى معبود الملكة الشمالية ، مشيرين بذلك إلى بسط نفوذهم على الدلتا .



أحد وجهى لوح نارمر

لوح نارمر :

وقد ثبت أن هذا الاندماج تم على يد ملك يسمى نارمر ، إذ عثر على لوح كبير من حجر الإردواز فى هيراكونبوليس ، وهو محفوظ اليوم بالمتحف المصرى ، نقش على أحد وجهيه رسم يمثل الملك نارمر واقفاً وعلى رأسه تاج الوجه القبلى الأبيض ، يمسك بيده اليمنى صولجاً ، ويقبض بيده اليسرى على ناصية أسير من الأسرى ، ربما كان من سكان الدلتا أو من شبه جزيرة سيناء ، وأمامه حوريس معبود القبيلة ، واقفاً فوق رأس أسير ، وتحت رجليه عبارة تدل على أن عدد الأسرى ستة آلاف ، وفى أسفل هذا الوجه من اللوح رسم أسيرين يتأهبان للهروب من



المك نارمر « مينا »

قلعة. أما الوجه الآخر، وهو الأهم من الناحية التاريخية ، فقد نقشت عليه صورة الملك متوجاً بالتاج الأحمر الخاص بالوجه البحرى ، وأمامه أعلام القبائل التى اتحدت معه يتقدمها علم القبيلة التى وحدت المملكة ، وبجانب تلك الأعلام جثث فُصِلت عنها رؤوسها ، وفى أسفل اللوح رسم يمثل الملك على هيئة ثور كاسر يفتك بالعدو ويهدم الحصون .



الوجه الآخر من لوح نارمر

الملك نارمر "مينا"

فهذا اللوح يدل دلالة واضحة على أن اتحاد الوجهين البحرى والقبلى اتحاداً نهائياً إنما يرجع الفضل فيه إلى نارمر. ويحتمل أن يكون نارمر هو مينا، الذى ذكره مانيتون المؤرخ المصرى، الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد .

مدينة منف :

ولقد نسب مانيتون إلى مينا أعمالاً كثيرة ، يصعب تصديقها ، من ذلك أنه بعد نجاحه في توحيد الوجهين ، البحرى والقبلى ، رأى ما للموضع الذى توجد به بلدتا ميت رهينة والبدرشين من الأهمية الحربية ، إذ أنه حداثى بين مصر العليا ومصر السفلى ، فحفر مجرى النيل من الجبل الغربى إلى مجراه الحالى ، ثم بنى فى الفضاء الذى تخلف عن ذلك مدينة جديدة أحاطها بجدار أبيض ، فعرفت بمدينة الجدار الأبيض ، وهى التى أطلق عليها فيما بعد منف أو ممفيس .

ويكاد يكون من المستحيل أن تبدأ هذه الأعمال كلها وتنتهى فى عهد ملك واحد .

ومهما يكن من شىء فالراجح أن ملوك الأسرتين الأوليين لم يتخذوا مقرهم فى منف ، بل ظلت هذه المدينة فى الشمال بمثابة قلعة حصينة لهم تشرف على الدلتا وتخرج منها الحملات الحربية ضد الليبيين ، الذين يهددون الحدود الغربية لمصر السفلى وظل أولئك الملوك يحكمون المملكتين من مدينة طينة ، ومحلىها الآن قرية البربا على مقربة من مدينة جرجا ، ولذلك يعرف عصرهم بعصر ملوك طينة

ملوك الأسرة الأولى بعد اتحاد المملكتين

أعمالهم الداخلية :

بعد أن تم اتحاد المملكتين ، تولى حكم مصر ملوك عملوا على تقوية اتحاد البلاد بجميع الوسائل ، وعنوا بالفنون والعلوم عناية فائقة ، وأرسلوا الحملات إلى الصحراء الشرقية لاستخراج المعادن منها .

وقد كشف البحث أخيراً عن أثره أهمية من الوجهة الاقتصادية ، إذ وجد اسم أحد ملوك الأسرة الأولى منقوشاً على صخرة فى الصحراء الشرقية ، بالقرب من مدينة ادفو ، فى طريق القوافل بين النيل والبحر الأحمر ، وكان الاتقاد السائد

قبل ذلك أن البدو وحدهم هم الذين استعملوا هذا الطريق منذ العصور المتويزة في القدم، ولكن ورود اسم هذا الملك منقوشاً في تلك الجهة أثبت فساد هذا الرأى ، ودلّ على أن المصريين في عهد ملوك طينة أرسلوا الحملات إلى الصحراء الشرقية لاستغلال المحاجر والمناجم التي هي الثروة الوحيدة لتلك الصحراء .

وعنى ملوك ذلك العصر بتحصين البلاد تحصيناً منيعاً ضد الغارات الأجنبية وكان للحفلات الدينية نصيب وافر من اهتمامهم وعنايتهم .

أعمالهم الخارجية :

ولم يكن هؤلاء الملوك أقل عناية بالشئون الخارجية فقد تعددت غزواتهم لبلاد النوبة ، وأخضعوها لسلطانهم ، ودانت لهم منطقة ما بين السلسلة وأسوان فزاد بذلك اتحاد وادى النيل . كذلك امتد نفوذهم إلى ليبيا واضطروا أهلها إلى دفع الجزية لمصر .

وصفوة القول أن ملوك الأسرة الأولى بذلوا جهوداً جبارة في سبيل إتمام وحدة البلاد وتقويتها وتوسيع رقعتها ، فهدوا بحملهم هذا لسعادتها ورفاهيتها في مستقبل أيامها .

الأسرة الثانية

ما لبثت الوحدة التي مكّن لها ملوك الأسرة الأولى أن تفككت في عهد ملوك الأسرة الثانية، وكان ذلك نتيجة للنزاع الذي قام بين سكان الدلتا وسكان الصعيد والذي سبّب حروباً كثيرة أريقَت فيها الدماء، وأدّى ذلك إلى عدم قيام ملوكها الأول بأعمال تذكر. واستمرت الحال على ذلك حيناً من الدهر إلى أن استطاع آخر ملوك هذه الأسرة أن يعيد المياه إلى مجاريها، ويردّ أهل الشمال إلى الطاعة والولاء .

وقد استمر حكم الأسرة الأولى مائتي عام ، وحكم الأسرة الثانية مائتين وعشرين عاماً .

الفصل الرابع

الحضارة فى عصر ملوك طينة

الحكومة العليا :

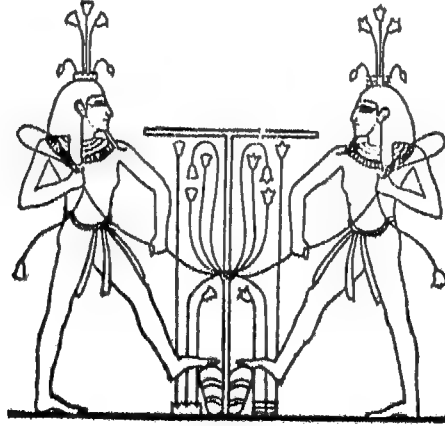
كان الملك يعيش فى قصر على ربوة ، يشرف منه على رعاياه ، ولذلك عرف المصريين القدماء قصره باسم ”پرعو“ أى البيت العالى ؛ ويرجح أن لفظ ”فرعون“ ومعناه صاحب البيت العالى اشتق من ذلك الاسم . وكان لهذا القصر بابان عظيمان يمثلان الملكية المزدوجة (الصعيد والدلتا) ، وكانت الملكية فى ذلك العصر مُطلقة أساسها قدسية الملك ، الذى كان يعتبر الإله الرئيسى للملكة وبيده كل شىء . ولكن لما كثرت أعماله اضطر إلى أن يتنازل عن بعضها لرجال يعتقد فيهم الإخلاص له ، فكان يساعده مستشاران : أحدهما للوجه القبلى ، والثانى للوجه البحرى ، وكانت لها خزانة مزدوجة ، للصعيد والدلتا . على أن تجزئة إدارة مصريين الوجهين لم تذهب إلى أبعد من التجزئة الاسمية ، وإنما فعل المصريون ذلك احتراماً للقديم الراشح فى الأذهان .

وكان يتبع الإدارة المركزية مكتب يسمى مكتب السجلات الملكية ، تحفظ فيه أخبار الحكم سنة بعد أخرى مكتوبة على ألواح من العاج أو غيره .

حفلة التتويج :

ولقد كان من آثار توحيد الوجهين فى ذلك العصر أن عُنى الملوك بحفلة التتويج التى استمرت معمولاً بها حتى نهاية التاريخ المصرى القديم ، وتتلخص هذه الحفلة فى أن الملك كان يدخل قاعة فسيحة بقصر ممفيس ، ثم يصعد إلى منبر عليه كرسى العرش ، حيث يجلس وبيده عصا تشبه عصا الراعى ، ثم يقف أمام الشعب ويتوج بتاج الوجه القبلى ، وبعدئذ يسير إلى كرسى آخر يجلس عليه ، ثم يقف مرة أخرى ويتوج بتاج الوجه البحرى ، وتتلأ آيات دينية يلعب فيها الملك بحوريس الحى ، وبعد هذا يقدم الكاهن للملك قطعة من الخشب تدلت من أحد طرفيها زهرة

اللوتس (رمز الوجه البحرى) ومن الطرف الآخر نبات البردى (رمز الوجه القبلى).
فيشد الزهرة من اليمين كاهن ، كما يشد النبات من اليسار آخر ، حتى يصل إلى
قاعدة التاج ، وفى هذا إشارة إلى اتحاد الوجهين فى ظل التاج ، ثم يقف الملك
ويدور حول الجدار الأبيض ، الذى بنى فى منف مُطْلًا على الدلتا وعلى الصعيد .



شد زهرى اللوتس والبردى

كذلك عني ملوك هذا العصر بالحفلات الدينية الأخرى ، التى كانوا يقيمونها
للآلهة .

الحكومة المحلية :

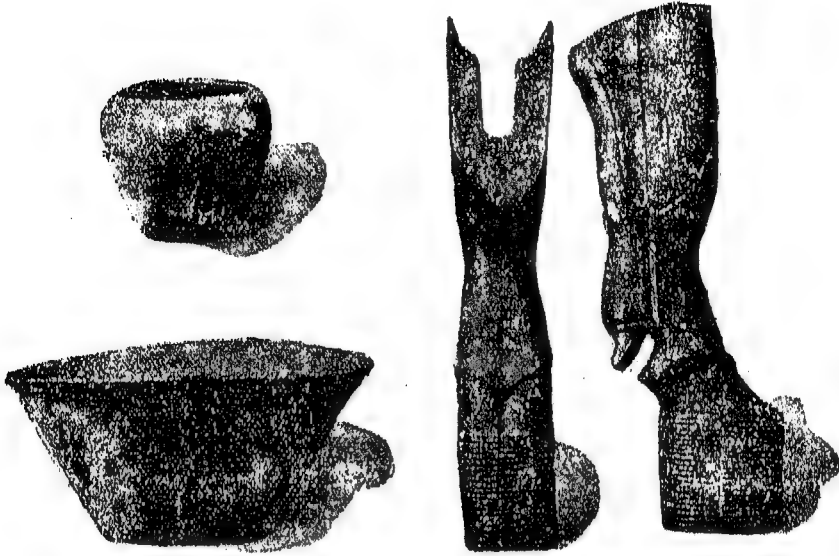
كانت حكومة البلاد المحاية فى يد إدارات تشرف عليها الحكومة العليا ، وكان
حاكم الولاية يتمتع بسلطة كبيرة داخل حدود ولايته : إذ كان مديرا ، وكاهنا أكبر
وجابيا للضرائب ، يعنى عناية خاصة بالزراعة ووسائل الرى ، كما كان قاضيا ، يوزع
العدل بين الرعية ؛ وقد قام فى عاصمة كل ولاية محكمة مهمتها النظر فى المسائل
القانونية .

وكان الأمراء يتوارثون الحكم فى ولاياتهم بعد موافقة الملك .

الفنون :

تقدمت العمارة في ذلك العصر تقدماً ظهر أثره في بناء القبور ، إذ أصبح القبر عبارة عن حجرة مستطيلة ، مبنية بالطوب والخشب ، تحيط بها حجرات صغيرة توضع بها القرايين التي تقدم لليت ، وتغطي المقبرة بالطين والطوب والخشب . وبنيت المقابر من الحجر لأول مرة ، في أواخر عهد الأسرة الأولى ، ورصفت أرضها بالجرانيت .

وفي هذا العصر برع المصريون في نحت التماثيل من البازلت والمرمر والأحجار الصلبة الأخرى ، وكذلك في صنع الأواني وصقلها ، وفي فن الزخرفة والصبغة التي تجلت فيما كشف من أثاث وحلى في مقابر ملوكها .



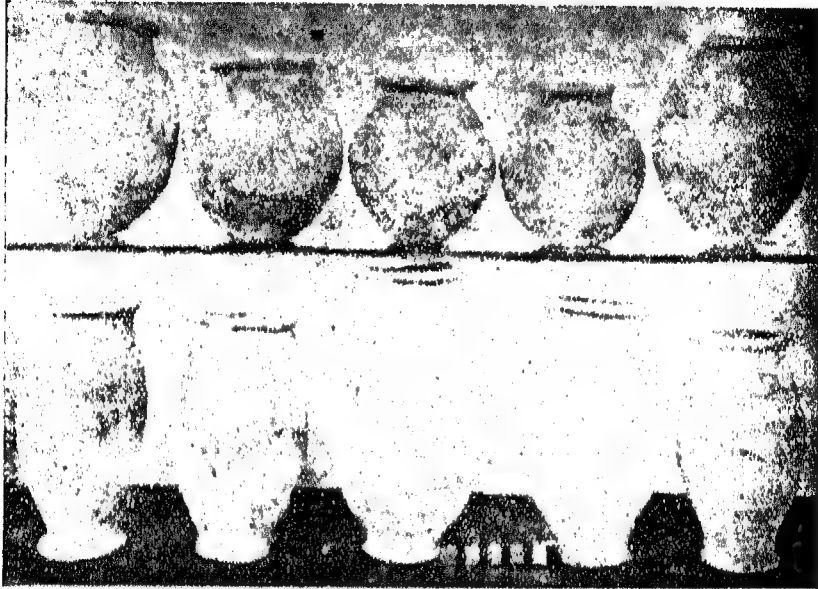
أرجل كرامى مصنوعة من العاج وأران مرمرية وأخرى نحاسية

يرجع تاريخها إلى عهد الأسرة الأولى

علاقات مصر بالبلاد المجاورة :

اختلطت مصر منذ ذلك العهد ببعض الأمم المجاورة : مثل سوريا وفلسطين فعثر على بقايا آثار مصرية في مدينة قديمة بفينيقييا ، تسمى يبلوس (جبيل) ، ومن هذه الآثار : خاتم مستطيل الشكل عليه ألقاب لبعض كبار الموظفين في الأسرة الثانية ؛ كذلك وجد في بعض مقابر ملوك هاتين الأسرتين قطع من الخزف المزخرف بخطوط بيضاء ، دلت على وجود علاقات بين المصريين وبين سكان جزيرة كريت في ذلك الوقت . ويلاحظ أن علاقات المصريين مع تلك البلاد المجاورة كانت علاقات تجارية منظمة ، ولم تكن قائمة على هجرة القبائل المتنقلة ، كما كانت الحال قبل زمن الأسرات .

وقصارى القول أن مصر بلغت ، في عهد الأسرتين الأولى والثانية ، منزلة رفيعة من الحضارة والرقى .



آنية من الفخار من النوع الأسود المصقول في أعلى والنوع الأحمر في أسفل

الباب الثاني

الدولة القديمة

(٢٧٧٨ — ٢٤٢٣ ق.م.)

الفصل الأول

عصر بناء الأهرام

تمهيد :

ظل ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة يتمتعون بما كان لملوك الأسرتين الأولى والثانية من نفوذ مطلق ، حتى وصلوا إلى أقصى درجة من الجبروت ، وقد تجلّت قوتهم في إقامة الأهرام الكثيرة ، مما دعا إلى تسمية هذا العصر "عصر بناء الأهرام" .

الأسرة الثالثة

الملك زوسر

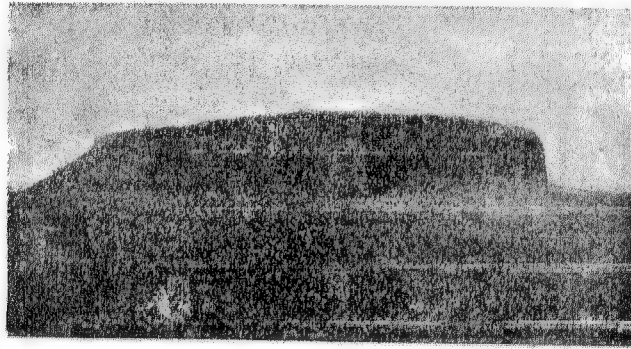
أعماله الداخلية :

أسس "الملك زوسر" الأسرة الثالثة ، وكان أعظم ملوكها . عاش في ضواحي أبيدوس ، وبنى لنفسه بالقرب منها مقبرة (بأراضى ناحية بيت خلاف ، بمركز جرجا) على شكل مصطبة من الطوب ، كبيرة الحجم ، بها سرداب منحدر يؤدي إلى اثنتي عشرة حجرة .

وبعد مدّة من الزمن رأى زوسر أن ينقل عاصمة مملكته إلى مدينة الجدار الأبيض (منف أو ممفيس) ، وذلك لأهمية موقعها .



تمثال الملك زوسر

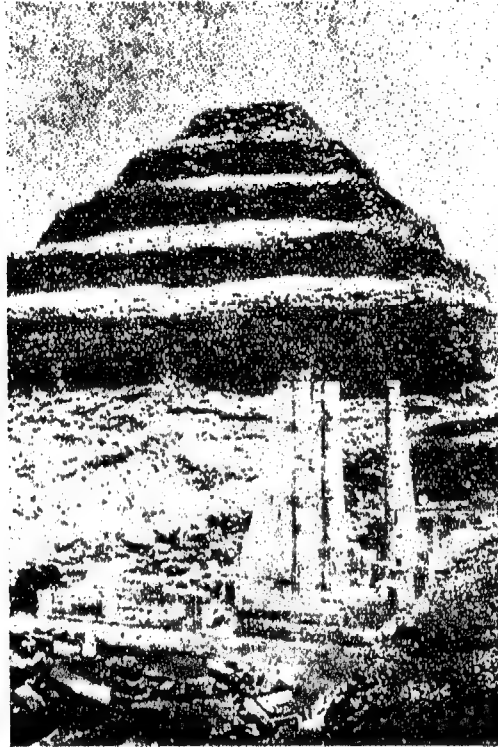


مصطبة زوسر بأراضي ناحية بيت خلّاف وهي من الأبن

هرم سقارة المدرج :

وبني بالقرب منها في بلدة سقارة ، بالجبل الغربى ، مقبرة من الحجر ، على نسق مصطبته العظيمة بيت خلاف ، ثم زاد حجم هذه المقبرة تدريجاً ، ببناء خمس مصاطب بعضها فوق بعض ، كل منها أصغر مما تحتهما حجماً ، فتكوّن من هذه المصاطب الست هرم سقارة المدرج ، الذى يبلغ ارتفاعه ستين متراً تقريباً ، وكانت تكسوه طبقة من الحجر الجيري الدقيق ، وأنشئت بداخله أهباء وممرات مغطاة بالقيشاني الأزرق والأخضر مكتوب عليها اسم الملك وألقابه ، وتلتقى جميع هذه الممرات عند زلاّقة عظيمة يوجد في قاعها محباً ، كانت توضع فيه جثة الملك .

وهذا الهرم أول بناء حجري كبير عرفه التاريخ ، ويدل بناؤه على تقدّم فن العمارة تقدّماً محسوساً في ذلك العصر ، إذ أنه خطوة الانتقال من المصاطب التى بناها الملوك الأول الى الأهرام الكاملة التى أقامها ملوك الأسرة التالية .



هرم سقارة المدرج

ولقد كشف البحث أخيراً عن أسوار من الحجر تحيط بأرض مساحتها نحو أربعين فدانا حول هرم زوسر ، كانت تقام فيها الصلوات وتقدم القرابين للآلهة ، وهذه الأسوار على شكل أبراج ذات أعمدة جميلة الشكل بعضها مضرع والآثر مزخرف .

أعمال زوسر الخارجية :

استغل زوسر كأسلافه مناجم شبه جزيرة سيناء واستخرج النحاس منها ، إذ وجد اسمه منقوشاً في وادي مغارة ، وأرسل حملات إلى بلاد النوبة ، ومدّ حدود المملكة المصرية جنوباً حتى جاوزت الشلال الأول .
ولقد اعتمد زوسر في جميع أعماله على وزير قدير هو إمحوتب .

الوزير الحكيم إمحوتب

اختياره للوزارة :

عُرف إمحوتب بغزارة علمه ، وذكائه الوقاد ، وشخصيته البارزة ، وحسن سياسته فاختاره الملك وزيراً له . وكان لمنصب الوزير في تلك العهود خطره ومسئوليته ، إذ كان يشرف على جميع أعمال الدولة ، من تشريع ، ومالية ، ودفاع ، وزراعة ، وغير ذلك من الشؤون الداخلية .

إمحوتب والمجاعة :

ويروى أنه حدثت في عهد وزارة إمحوتب مجاعة عمّت البلاد وأهلكت الحرث والنسل ، وكان سببها انخفاض النيل سبع سنوات متواليات ، أظهر فيها إمحوتب عظيم إخلاصه للملك والأمة ، مما قوى ثقة الملك به ، وزاد حب الشعب له .

إمحوتب رئيس الكهنة :

شغل إمحوتب فوق ذلك وظيفة رئيس الكهنة ، ومهمته : القيام بخدمة الآلهة في المعبد ، وتلاوة الصلوات من الكتب المقدسة ، ورياسة الحفلات الدينية .

حكمة أمحوتب ومهارته فى الهندسة والفلك :

وكان أمحوتب من أكبر حكماء عصره ، ولقد ظلت حكمته مضرب الأمثال عدة قرون .

كما كان مهندسا قديرا ، فهو الذى وضع تصميم الهرم المدرج فى سقاره .
وولع بالفلك والتنجيم ، وذلك لاعتقاده كغيره من رجال عصره ، فى تأثير الأجرام السماوية فى حياة الانسان .



تمثال لأمحوتب

أمحوتب إله الطب :

وذاع صيت أمحوتب كساحر وطبيب ، إذ كان السحر فى تلك العصور أساسا للطب ومداواة المرضى ، ولمهارته فى فنه عينه الملك زوسر طبيبا خاصا له .

هكذا كانت حياة أمحوتب سلسلة من جلائل الأعمال ، جعلت المصريين يعجبون به كثيرا ويحترمونه احتراما وصل بهم فى النهاية إلى أن وضعوه فى مصاف الآلهة بعد وفاته ، وأقاموا له المعابد والتماثيل ، وكان المرضى يحجون إلى قبره . وبعد قرون عدة اعتبره اليونان إلهًا للطب .

خلفاء زوسر

أما باقى ملوك الأسرة الثالثة الذين خلفوا زوسر على عرش مصر فلا يعرف إلا القليل عن تاريخهم .

الأسرة الرابعة

(٢٧٢٣ - ٢٥٦٣ ق. م.)

مما لا ريب فيه أن عصر الأسرة الرابعة يعتبر أزهى عصور الدولة القديمة ، إن لم يكن أزهى عصور التاريخ المصرى القديم بأسره ، يؤيد ذلك نخامة مبانیه ودقتها ، وجمال تماثيله وروعها .

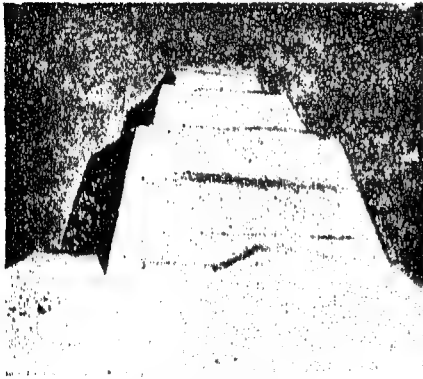
الملك سنfro

مؤسس الأسرة الرابعة :

وقد أسس هذه الأسرة الملك سنfro ، الذى حكم البلاد أربعة وعشرين عاما قام فيها بأعمال عظيمة فى الداخل والخارج .

أعماله الداخلية :

عنى سنfro عناية فائقة بتحصين مصر ، وتنظيم وسائل الدفاع عن حدودها الشرقية ، كما عنى بترقية التجارة فهد لها الطرق ، وبني السفن .



هرم سنfro فى ميدوم

واهتم سنfro بالعمارة فشيد لنفسه مقبرة بالجبل الغربى ، بناحية ميدوم جنوبى سقارة ، تشبه هرم سقارة المدرج ويعرفها العامة اليوم باسم "الهرم الكذاب" ، بسبب شكلها غير الكامل ، ولما قاربت الانتهاء ، بدأ فى بناء أخرى فى دهشور ، على شكل هرم كامل من الحجر المنحوت ، كساه طبقة من الحجر الجيرى الدقيق ، وعلى نمط هذا الهرم بنيت أهرام الجيزة .

أعماله الخارجية :

واصل سنفرو استخراج النحاس من سيناء، وأخضع بدو تلك الجهات، وسجل انتصاراته على صحورها، بعد أن وطّد سيادة مصر هناك، واعتبر فيما بعد المؤسس الحقيقي للنفوذ المصرى فى تلك الأقاليم، كما أنه أرسل أسطولا بحرياً مكوناً من أربعين سفينة إلى بلاد فينيقيا، لاستحضار خشب الأرز من جبال لبنان، واقتنى أثرزوسر، فأغار على سكان النوبة الشالية واستولى على غنائم كثيرة، كما أرسل حملة إلى ليبيا عادت بأسلاب وفيرة.

الملك خوفو

خلف سنفرو بعد وفاته ابنه الملك خوفو، الذى بلغت قوّة الملكية فى عهده منتهىها، فاستطاع أن يستخدمها فى عمل خلد اسمه على مرّ الأيام، وجعله أظهر

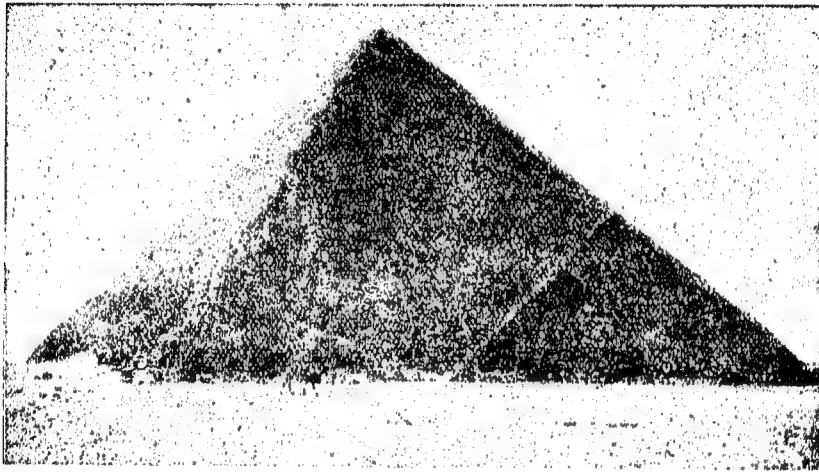


تمثال صغير من العاج للـك خوفو

اسم بن أسماء ملوك الشرق القديم ، ذلك هو بناء الهرم الأكبر الذى يعتبر معجزة من معجزات الدهر ، لضخامة بنائه التى تبعث فى النفوس الرهبة ، وجمال هندسته التى تبين مدى ما وصل إليه المصريون من تقدم فى العلوم والفنون ، وتدل على ما عم البلاد فى ذلك العصر من ثروة ورخاء .

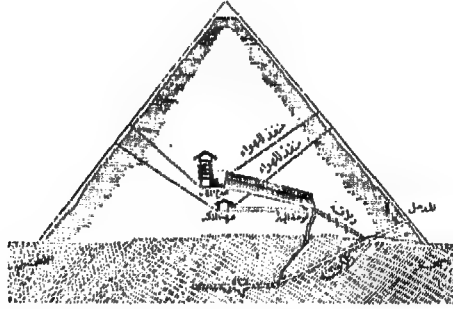
الهرم الأكبر :

بنى خوفو هذا الهرم على الشاطئ الغربى للنيل ، وعلى حافة صحراء ليبيا ، غربى مدينة الجيزة ، على أرض مساحتها ثلاثة عشر فدانا ، وجعل قاعدته مربعة الشكل يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها حوالى ٢٣٣ مترا ، وتجه كل زاوية من زواياه إلى جهة من الجهات الأربع الأصلية ، وكان ارتفاعه عند بنائه ١٤٦ مترا ، صارت ١٣٧ مترا بعد أن تهدمت قمته . وقد استخدمت فى بنائه الأحجار الجيرية الصلبة الكبيرة الحجم التى تبلغ زنة كل منها طنين ونصف ، وجعل بين كل صخرة وأخرى طبقة رقيقة من المونة تكاد لا تراها العين المجردة ، مما جعل الهرم كله يظهر كصخرة واحدة . وكانت تغطى هذا الهرم طبقة من الجرانيت تعلوها أخرى من الحجر الجيري المصقول ، وقد زال هذا الغطاء بمرور الزمن .



الهرم الأكبر

أما مدخل الهرم فيوجد في الجهة البحرية منه على ارتفاع نحو خمسة عشر مترا من الأرض، يسده حجر تعلوه زلاقة منحدره طويلة، تصعد منها على بعد قليل من المدخل زلاقة أخرى توصل إلى حجرة من الصوان المصقول بها تابوت الملك، وبها منفذان يخترقان الهرم إلى الخارج، وفوقها خمس غرف صغيرة بعضها فوق بعض، الغرض منها تخفيف ثقل البناء على سقف حجرة الملك؛ ويخرج من الزلاقة الصاعدة، في منتصفها تقريبا، سرداب أفقي يوصل إلى غرفة الملكة، وعند بدء هذا السرداب توجد فوهة بئر عميقة يُظن أن الماء كان يؤخذ منها وقت انخفاض النيل .



الهرم الأكبر من الداخل

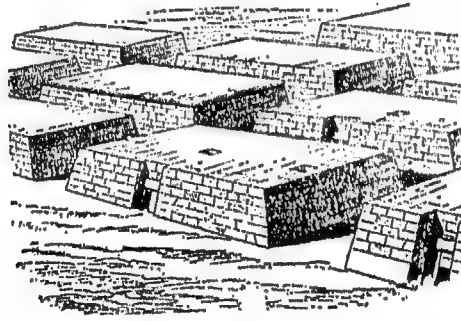
كيف بُني الهرم :

كانت الأحجار تنقل من محاجر طرة (١)، على الضفة اليمنى للنيل، على زحافات تجرها الثيران إلى النهر، حيث توضع في سفن تعبر بها إلى الشاطئ الغربي، وهناك تُسحب فوق طريق منحدر شديد بين مجرى النيل القديم ومكان الهرم، طوله مائتا متر وعرضه سبعة وعشرون، وكلما علا البناء زيد في ارتفاع الطريق الذي لا تزال آثاره باقية في شرق الهرم إلى الآن .

وقد استخدم خوفو في هذا العمل مائة ألف رجل كانوا يشتغلون ثلاثة أشهر كل عام، وقت فيضان النيل، وهو الوقت الذي تفيض فيه مياه النهر على الأرض ويقف دولا ب العمل الزراعى .

(١) قطعت بعض الأحجار من منطقة الهرم نفسها

وقد بُني أمام الهرم الأكبر ثلاثة أهرام صغيرة دفنت فيها زوجات الملك وأولاده تحيط بها مقابر الأمراء والحاشية ، على هيئة مصاطب مصفوفة تتخللها طرقات منظمة .



بنى الأمراء مقابرهم على هيئة مصاطب حول هرم مليكهم

أعمال خوفو الأخرى :

ومما لا شك فيه أن خوفو واصل البحث عن المعادن في شبه جزيرة سيناء ، إذ أن اسمه وجد منقوشا على أحجار ذلك الإقليم . ويقال إنه لما كبرت سنه عين ابنه الأكبر وزيراً له وكبير قضاته ، كما عين ولديه الآخرين للإشراف على الأعمال الحكومية الأخرى .

وعلى الرغم من قلة معلوماتنا عن هذا الملك وعصره الزاهي ، فمن الميسور أن نقرر بلا تردد أن هيئة الحكومة في عهده كانت موفورة ، مما دعا إلى استتباب الأمن والنظام ، كما أن الرخاء كان شاملاً ، مما ساعد على إطعام آلاف العمال ولأيوائهم .

الملك خفرع

هرم الملك خفرع :

حكم مصر بعد وفاة خوفو بمدة قصيرة ^(١) ابنه خفرع ، فاقتفى أثر أبيه في بناء هرم لنفسه ، بالقرب من الهرم الأكبر ، ولكنه أقل إتقاناً منه ، وعلى الرغم من

(١) يقال إن ددف ، الابن الأكبر لخوفو ، حكم ثمانى سنوات بعد أبيه مباشرة ، وله هرم في "أبوراش" .

أنه أقل حجما من سابقه فانه يظهر من بُعْد أعلى منه ، وذلك لأنه بُنِيَ على جزء مرتفع من الهضبة . وقد كست الجزء الأعلى من هذا الهرم طبقة من الحجر الجيري لا تزال ظاهرة إلى اليوم ، أما جزؤه الأسفل فكان يغطيه الجرانيت .



ويقع مدخل هذا الهرم في الجهة البحرية ، على ارتفاع أحد عشر مترا تقريبا من الأرض ، ويؤدي إلى دهليز طويل منحدر يوصل إلى غرفة بها تابوت من الجرانيت دُفِن فيه الملك .

معبد هرم خفرع :

كانت تبنى في الجهة الشرقية من الأهرام معابد تقام فيها الطقوس الجنازية للملك المتوفى ، ومن أهم تلك المعابد وأقدسها معبدان بناهما خفرع ، يقع أحدهما على الهضبة إلى

تمثال للـك خفرع ، محفوظ بالمتحف المصرى
جوار هرمه ، ولهذا يعرف بالمعبد العلوى ، ويقع الآخر فى أسفل الوادى ، ولهذا يسمى بالمعبد السفلى أو معبد الوادى ، ويصل المعبدان طريق مرصوف يبلغ طوله حوالى خمسمائة متر (١) .

وكان المعبد العلوى خاصا بكبار الكهنة وأقارب الملك المتوفى ، وقد عُثِر فيه على تماثيل عديدة لخفرع ، أهمها تمثال مصنوع من حجر الديوريت الأخضر محفوظ الآن بالمتحف المصرى ، وقد دل نحتة على براعة المصريين فى هذا الفن .

(١) أمد خفرع هذا الطريق فى الأصل لنقل الحجارة اللازمة لبناء هرمه

أما المعبد السفلى فكان يباح الدخول فيه للشعب في أيام الأعياد الدينية والحفلات القومية ، وكان أيضا بمثابة رواق يطرقة قاصدو زيارة الهرم الوافدون في سفنهم في موسم الفيضان .



الهرم الأكبر إلى اليمين ، والهرم الثاني إلى اليسار ، والطريق الذى يصل بين معبديه

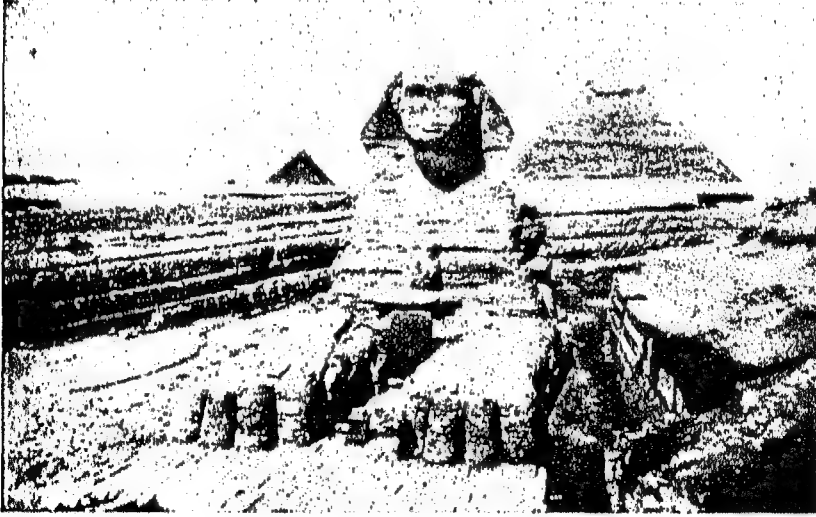
أبو الهول :

وإلى الشمال من هذا المعبد يوجد تمثال هائل ، منحوت من صخرة طبيعية واحدة على هيئة أسد رابض يمد مخالبه إلى الأمام على الرمل ، أما رأسه فرأس إنسان ، واسم هذا التمثال أبو الهول^(١) ، وطوله سبعة وخمسون مترا ، وارتفاعه عشرون مترا ، وأما وجهه فطوله خمسة أمتار ، وعرضه أقل من ذلك بقليل ، وطول أذنه أكثر من متر ، وأنفه أقل من مترين ، وفمه متران وثلاث متر .

وقد أصبح من المؤكد أن هذا التمثال يمثل الملك خفرع ، وهو بهذا الشكل الضخم يحرس مدخل المعبد القريب منه . ولقد اعتبر المصريون القدماء الأسد

(١) العرب هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم ، إما لأن منظره يبعث في النفس الرعب ، أو لأنهم حَرَفُوا اسمه القبطى إلى "أبو الهول" .

حارساً للعباد ، على أنهم منذ عهد الدولة الحديثة ، خلطوا هذا التمثال بآله من آلهتهم وجعلوه رمزاً للشمس المشرقة ، لاسيما وأنه وضع بحيث يستقبلها حين شروقها .



أبو الهول ، ويرى في الخلف هرم خفرع إلى اليمين ، وهرم منقرع إلى اليسار

وكان أبو الهول في أول الأمر جميل الصورة ، على رأسه تاج ، وعلى جبهته حية مقدسة (رمز الملكية) ، وله لحية ، ووجهه أحمر بلون وجه الإنسان الطبيعي فسقطت الحية واللحية ، وهما محفوظتان الآن بالمتحف البريطاني بلندن ، أما الوجه فقد سحا الزمن لونه ، ولكنه على الرغم من كل ما حدث به ، ظل منظره يبعث في النفس الرهبة ويشهد بعلو كعب المصريين في الفنون .

الملك منقرع

هرم منقرع :

بعد وفاة خفرع ، خلفه الملك منقرع ، فشيّد لنفسه هرمًا أصغر كثيرًا من الهرمين السابقين ، إذ يبلغ طول كل ضلع من أضلاع قاعدته ثمانية ومائة متر ، وارتفاعه حوالي ستة وستين مترًا ، أصبحت الآن اثنين وستين مترًا .

ويقع مدخل هذا الهرم في الجهة البحرية ، على ارتفاع نحو أربعة أمتار من الأرض ، ويؤدي إلى دهليز هابط ، يمر بغرفة ، يسير بعدها أفقيا حتى يصل إلى غرفة أخرى وجد بها تابوت الملك ، المصنوع من الحجر والخشب ، وبداخله بقايا جثة بشرية ، وقد نقلت هذه الأشياء إلى المتحف البريطاني بلندن .



تمثال لملك منقرع وزوجه

وغُطِّي أسفل هذا الهرم بالجرانيت الأحمر ، أما باقي كسوته فمن الحجر الجيري وكان يحاوره من الشرق معبد جنازي يمتد أمامه طريق يوصل إلى معبد آخر قائم بالوادي ، ويظهر أن الملك منقرع مات بخاة ، قبل أن يتم بناء الهرم والمعبدين ، ولهذا أتمهما من بعده خلفاؤه .

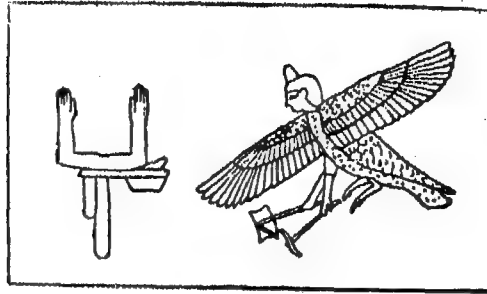
هرم آخر :

وقد كشفت البحوث الحديثة عن هرم آخر مبني من الصخر ، على مقربة من هذا الهرم ، وأصغر منه حجما ، وعليه نقوش تدل على أن صاحبه هي الملكة خنت كاوس ، ابنة منقرع ..

الغرض من بناء الاهرام

١ — فكرة الخلود :

عني المصريون بأمر موتاهم عناية فائقة ، فبدلوا عن سقاء في إعداد مقابرهم وحفظ جثثهم سليمة ، وسبب ذلك عقيدتهم في الخلود ، إذ كان الإنسان في اعتبارهم مكوّناً من قوى عدّة ، لكل منها عملها ، ف بجانب الجسم ، وهو الجزء الظاهر من قوى الإنسان ، يوجد القرين أو ” الكا “ ، وهو شبح للأُنسان ، لا يمكن رؤيته ، يشبه صاحبه تمام الشبه ، ومثّله بشكل ذراعين مرفوعتين للتضرع والحماية ، و بجانب ” الكا “ يوجد ” البا “ أي الروح ، وتخيّلوها على هيئة طائر رأسه رأس إنسان .



الروح والقرين كما تخيلهما المصريون القدماء .

وكانت هذه القوى في اعتقادهم معرضة للفناء إذا أُهملت ، وإذا فنيت مات الشخص مرة أخرى وزال من الوجود نهائياً . وكانت حياة ” الكا “ متوقفة على بقاء الجسم سليماً ، ولذلك حنط القدماء جثث الموتى ووضعوها في قبور حصينة بعيدة عن عبث اللصوص ، وفي أماكن جافة ، بعيدة عن الرطوبة التي تحلل الأجسام ، و بجانب هذا أقاموا الصلاة وقدموا القرابين ليحفظوا حياة ” الكا “ و ” البا “ . وكان القرين لا يفارق الجسد في القبر ، أما الروح فكانت تصعد إلى الآلهة في السماء ، ثم تهبط بين آونة وأخرى لزيارة الجسد .

وبما أن قدماء المصريين اعتبروا المقابر دوراً أبدية ، فإنهم نظّموها بالطريقة التي تتفق وفكرتهم عن الحياة المقبلة ، وجعلوها بحيث يُضمن فيها. لليت طيب الحياة واستقرارها ، فكانوا يضعون في القبر كل ما يحتاج إليه الميت من طعام وشراب ومتاع ، ثم نقشوا ، ابتداء من الأسرة الخامسة ، رسوم هذه الأشياء على جدران المقبرة ، زعمًا منهم أن هذا يُغنى الميت عن القرابين نفسها ، وخاصة أن أداء الصلوات وقراءة النصوص الدينية تحوّل هذه الرسوم إلى أشياء حقيقية .

كذلك كانوا يصنعون تماثلاً أو أكثر من تماثيل الميت ، لأنهم يخافون أن تتحلل الجثة ، على الرغم من تحنيطها ، أو تُسرق ، أو يُشوّهها اللصوص ، فلا تجد الروح مكاناً تأوى إليه ، فيموت المتوفى مرة أخرى ؛ ولهذا كانوا يضعون التماثيل التي تشبه صاحبها تمام الشبه ، في مكان أمين ، ويكتبون اسمه عليها حتى يعرفها "الكا" ويحل فيها إذا فنى الجسد الحقيقي ، وهكذا تستمر الحياة .

على أساس هذه الفكرة — فكرة الخلود — بنى الفراعنة أهرامهم .

٢ — قُدْسِيَّةُ الْمَلِكِ :

أضف إلى ذلك أن الحكم في هذا العصر قام على أساس السلطة المطلقة المستمدة من قدسية الملك ، الذي يعتبر خليفة المعبود حوريس على الأرض ، ويدخل في مصاف الآلهة بعد موته ؛ وبما أن الحياة الآخرة ، كالحياة الدنيا في نظرهم ، لا يمكن تسيير دفة الأمور فيها إلا بإشراف الحكام أو الملوك الخالدين ، فقد بنوا الأهرام على هضبة عالية من صحراء ليبيا ، ليستطيع فرعون (صاحب البيت العالي) أن يشرف على الأرضين ، أى الوجهين البحرى والقبلى ، في حياته الباقية ، كما كان يشرف عليهما من مدينة منف (الحدار الأبيض) في حياته الفانية .

لهذا لا يمكن أن نقول إن الهرم مقبرة لملك جبّار فحسب ، كما قال كثير من المؤرخين ، وإنما هو بناء يمثل عقيدة أمة تؤمن بسلطة الحاكمين في الدنيا والآخرة فيجب أن تكون مظاهر هذه العقيدة موضع إجلال الجميع واحترامهم .

حال البلاد الداخلية :

تدل هذه الآثار العظيمة ، التي خلفها ملوك الأسرة الرابعة ، على ما كان يسود مصر من نظام حكومى دقيق ، لولاه ما أمكن جمع آلاف من العمال كل عام لإتمام البناء ، كما تدل على وفرة الرخاء الذى شمل مصر حينذاك ، والذى لولاه ما استطاعت الحكومة أن تطعم هذا العدد الوفير من الناس أو تأويهم .

نهاية الأسرة الرابعة :

دام حكم الأسرة الرابعة مائة وستين عاما ، وصلت فى خلالها مصر إلى أعظم درجات الحضارة والرقى ، غير أن نفوذ الملوك بدأ ، فى أواخر هذه المدة ، يضعف شيئا فشيئا ، بينما أخذت قوة كهنة رع بمدينة دهن شمس (هليو بوليس) تزداد بتدخلهم فى شؤون البلاد السياسية ، حتى استطاعوا فى النهاية أن يسلبوا ما كان للملوك الأسرة الرابعة من نفوذ وسلطان .

الفصل الثانى

عصر نفوذ الكهنة — الأسرة الخامسة

(٢٥٦٣ — ٢٤٢٣ ق . م)

كهنة رع

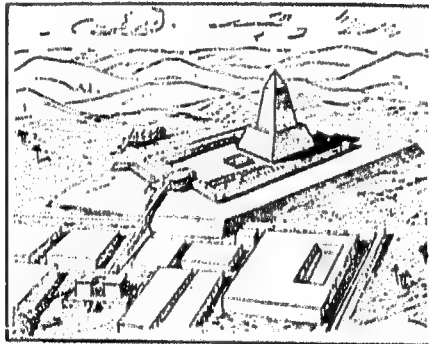
ازدياد نفوذهم :

قبل أن يتولى متفرع حكم مصر ، ابتداء اسم رع يظهر ضمن اسم الملك الحاكم مما يدل على أن كهنة ذلك المعبود أخذوا ، منذ ذلك الوقت ، يتدخلون فى سلطة الملك ، وشجعهم على هذا التدخل ثقة الملك بهم ، إذ أنهم عملوا على توجيه العقائد الدينية فى مصر إلى عقيدة البيت المال (عبادة الشمس) ، فنجحوا فى ذلك ، وخاصة

لأن الشمس في نظر المصريين جميعا قوة تسيطر على الحياة فتتمى الزرع والضرع، وتبدد الظلام، وهو طريق الموت، وتخلق النور، وهو سبيل الحياة؛ فأصبح من الميسور إدخال المعبودات المحلية في دائرة هذه القوة وتسميتها إلهيا، لهذا لقب حوريس مثلا بحوريس رع، وآمون بآمون رع، وهكذا. ولتقريب هذه التسمية من أذهان المصريين شبه الكهنة هؤلاء الآلهة بحكومة جعلوا رئيسها رع وأعضاءها الآلهة الباقين، وبذلك أمكن توحيد العقائد الدينية تحت لواء كهنة رع، فأخذ نفوذهم يزداد شيئا فشيئا حتى طغى على نفوذ الملك، وانتهى الأمر بأن جمعوا كل السطة في أيديهم، واستطاع كبيرهم، أوسركاف، أن يغتصب العرش لنفسه، ويؤسس أسرة جديدة هي الأسرة الخامسة.

مظاهر الانقلاب الدينية والاجتماعية :

عند ما أسس كهنة رع هذه الأسرة تغيرت بعض مظاهر العقائد الدينية والحالة الاجتماعية : فعلى الرغم من أن ملوك هذه الأسرة استمروا يبنون الأهرام كأسلافهم ، فإن عنايتهم بتشيدتها كانت أقل بكثير من عناية هؤلاء ، فصغر حجمها ، بعد أن كان كبيرا ، ولكنهم زينوا جدرانها بالنصوص الدينية ، بعد أن كانت خالية منها في العصر السابق ، أما المعابد فبعد أن كانت محجوبة عن المرأة ، لا يستطيع أحد أن يعرف ما يجري بداخلها من الطقوس الدينية ، أصبحت مكشوفة للناظرين ، وأقيمت فيها مسلة ضخمة على هرم ناقص ، وكانت المسلات رمز إله الشمس ” رع “ ، وتعرف هذه المعابد بمعابد الشمس ، ومعظمها موجود في ناحيتي أبو صير ودهشور ، الواقعتين بالقرب من سقارة .



أحد معابد الشمس في أبو صير كما كان أيام الأسرة الخامسة

أما من الوجهة الاجتماعية، فبعد أن كانت الوظائف الكبرى مقصورة على أفراد البيت المالك والكهنة ، أصبح يتمتع بها بعض أفراد الأسر الكبيرة مثل أسرة (بتاح حتب)، التي تولى رجالها الوزارة ورياسة القضاء، وانهزوا فرصة انهماك الكهنة في الدين وإهمالهم السياسة ، واكتسبوا لأنفسهم حق تولى هذه المناصب بالوراثة ، ولكنهم مع ذلك حافظوا مدة من الزمن على الولاء للملوكهم ، وبذلوا جهودهم في سبيل العمل على إنعاش البلاد ، وبذلك حافظت مصر في عهد هذه الأسرة على ثروتها ، ونفذت مشروعات قيمة زادت هذه الثروة نماء ، وظهر أثر ذلك في إسعاد الشعب وتقدم الحضارة .

الملك سخورع

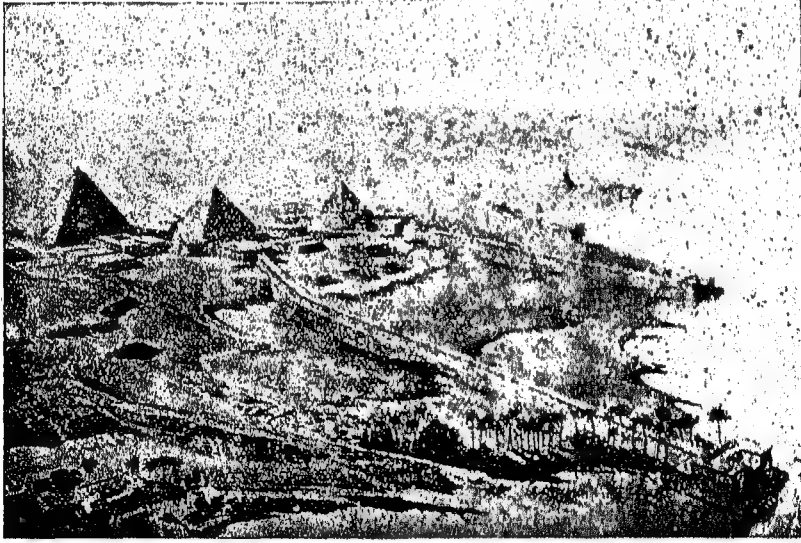
وكان أول ملوك هذه الأسرة الملك أوسركاف ، ثم خلفه سخورع .

مصر أول دولة بحرية :

بنى سخورع أسطولا لمصر ، أصبحت به أول دولة بحرية عرفها التاريخ ، وامتاز عهده بإرسال حملات بحرية وبرية إلى الأقاليم المجاورة ، فأرسل حملة بحرية إلى شواطئ البحر المتوسط الشرقي (فينيقيا) ، حيث هزم سكانها وأسر عددا كبيرا منهم ، كذلك هزم أهالي ليبيا في الغرب ، وأرسل أسطولا بحريا إلى بلاد بنت (الصومال) ، لطلب الأخشاب الثمينة والصمغ والبخور اللازمة للعباد المصرية ، كما أرسل حملة برية إلى شبه جزيرة سينا .

هرم سخورع :

وبنى سخورع لنفسه هرما فى أبو صير ، أقيم فى الجهة الشرقية منه معبد يُعتبر من أهم آثار الأسرة الخامسة ، لأن أعمدته كانت من الجرانيت الأحمر تعلوها تيجان تمثل سعف النخيل وأزهار اللوتس .



أهرام أبو صير كما كانت أيام الأسرة الخامسة

وفى عهد خلفه ، بُنى هرم آخر فى المنطقة نفسها ، وكان الأمير (قى) ، الذى دُفن فى المصطبة المعروفة باسمه فى سقارة ، قِيماً على هذا الهرم .

الحكيم بتاح حتب

أمثلة من نصائح بتاح حتب :

عاش فى الأسرة الخامسة الحكيم المصرى الشهير ”بتاح حتب“ ، وكان وزيرا للملك إسيسى أحد ملوكها . فلما بلغ من العمر عشر سنوات بعد المائة ، وأصبحت الحياة عبثاً ثقيلاً على كاهله ، استدعاه الملك وأمره أن يضع كتاباً يجمع فيه ثمرات حكمته ، فكانت وصاياه صادرة عن رجل حنكته الأيام وذاق حلوها ومرها ، وأغلب هذه النصائح يتصل بالسلوك الشخصى ، وإليك أمثلة منها :

”إذا دعاك كبير إلى طعام فاقبل ما يقدمه لك ، ولا تطل نظرك إليه ، ولا تبادره بالحديث قبل أن يسألك ، لأنك تجهل ما يوافق مشربه ، بل تكلم عند ما يسألك فيعجبه كلامك “ . ”لا تخن من أثمنك لتزداد شرفا ويعمر بيتك “

”إذا دخلت منزل غيرك فاحذر أن توجه ذهنك إلى خدر نسائه فكم هلك أناس من جراء ذلك “ .

”إذا كنت عاقلا قَرَّب ابنك حسبما يرضى الله تعالى ، وإذا شب على مثالك وجدَّ في عمله ، فأحسن معاملته واعتن به ، أما إذا طاش وساء سلوكه ، فهذَّب أخلاقه وأبعده عن الشرور لئلا يستخف أمرك “ . ”إذا كنت عاقلا فدبر منزلك وأحب زوجتك ، التي هي شريكك في حياتك ، وقدم لها الطعام والملابس وأحضر لها العطور وأدخل عليها السرور ، ولا تكن شديدا معها ، فباللين تملك قلبها ، وأدِّ مطالبا الحق ، ليدوم معها صفاؤك ويستمر هنأوك “ . ”لا تترك التحلى بحيلة العلم ودماثة الأخلاق “ .

ألا ترى أن مثل هذه النصائح نسمعها الآن ، كما كان يسمعها المصري القديم منذ آلاف السنين !

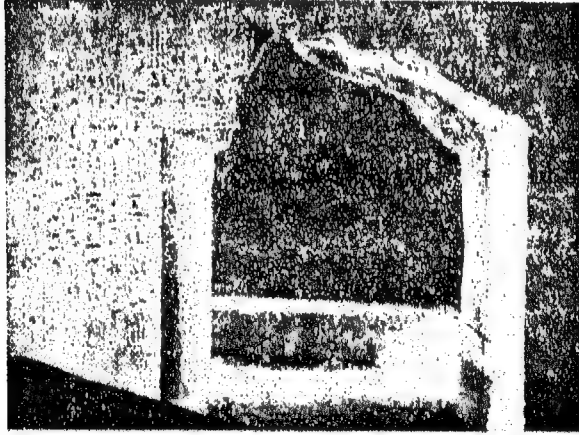
ولبتاح حتب ، صاحب هذه النصائح ، مقبرة جميلة في سقارة ، سيأتي ذكرها عند الكلام على الفنون (ص ١٦٣) .

الملك أوناس

نصوص الأهرام :

يلتئى نفوذ كهنة رع بانتهاء حكم الملك أوناس ، الذى بنى لنفسه هراما بسقارة ، يمتاز عن سابقيه بأن جدرانها الداخلية مغطاة بنقوش زرقاء زاهية ، هى نصوص دينية سميت (نصوص الأهرام) ، وتعتبر أقدم النصوص المعروفة فى مصر ، وهى مجموعة أدعية وطلاسم اعتقد المصري القديم أنها تحفظ جثة الميت وتحول المآكل والمشارب لمرسومة إلى حقائق ، وتضمن لأوناس أن يكون ملكا فى حياته

الباقية، كما كان في حياته الفانية؛ وتعتبر هذه النصوص مصدرا هاما من المصادر التي نستمد منها معلوماتنا عن ديانة المصريين القدماء .



جبر التابوت في هرم أوناس بسقارة

قرص الشمس :

ومنذ عهد أوناس بدأ المصريون ينقشون على مبانيهم الرسمية صور قرص الشمس تكتنفه حية مقدسة من الجانبيين ، ويحمله جناحا صقر منشوران ، هذا هو قرص الشمس الشهير ، الذي يحلّ واجهة المعابد المصرية ، والذي يدل على مكانة الشمس في المدنية المصرية القديمة .



قرص الشمس

الفصل الثالث

الأسرة السادسة — سقوط الدولة القديمة

٢٤٢٣ — ٢٢٨٠ ق. م.

حكام الأقاليم ونزعتهم الاستقلالية :

منذ قبض كهنة "رع" على أزمة الملك في مصر وأسسوا الأسرة الخامسة ، وجهوا جُلَّ عنايتهم إلى الأمور الدينية ، وأغفلوا شئون السياسة ، وابتزح حكام الأقاليم هذه الفرصة وأخذوا يعملون على جمع السلطة في أيديهم ، فجعلوا مناصبهم وراثية يتولاها الأبناء عن الآباء ، وأصبح كل منهم يعيش في ولايته دائماً ولا يفارقها إلا نادراً ، أما قبورهم فبعد أن كانت تبنى حول قبر فرعون أصبحت تحت في الصخر ، بالقرب من مدنهم ، وبمرور الزمن قويت شوكتهم وأحاطوا بأنفسهم بالحرس والموظفين ، وأصبح كل منهم أشبه بملك صغير ، وسموا أنفسهم "أمراء الأقاليم العظام" بدلا من حكام الأقاليم .

تودد الملوك إلى الأمراء :

ولما دالت دولة الكهنة ، وقام على أنقاضها ملك الأسرة السادسة ، كان أول ما وجه إليه الملوك نظرهم أن يتوددوا إلى أمراء الأقاليم ، وتوسلوا إلى ذلك بكل وسيلة فكانوا يضيفون أبناءهم في القصور الملكية ، ويربونهم مع أبناء الملوك ، حتى يضمّنوا ولاءهم للعرش ، كما كانوا يستميلونهم إلى سكنى العاصمة ، كي يتمتعوا بنعيمها وينغمسوا في ملاذها ، فيلهيهم ذلك عن التفكير في الجاه والسلطان ، كذلك كان يعمد ملوك هذه الأسرة إلى الزواج من بنات أمراء الأقاليم ، ليوثقوا عرى المحبة بين البيت المالك وبيوت هؤلاء الأمراء ، ولكن هذه الوسائل كثيرا ما كانت تؤدي إلى عكس ما يراد منها ، إذ كانت تثير حقد من لم ينالوا هذا الشرف .

حاكم الجنوب :

لهذا رأى الملوك أن يجربوا وسيلة أخرى ، فأنشأوا وظيفة أطلقوا عليها اسم "حاكم الجنوب" ، ومهمة شاغلها العمل على تقوية الصلة بين حكام الأقاليم الجنوبية وبين الفراعنة في منف ، وقد حققت هذه الوسيلة الغرض المنشود منها فاستمرت كلمة فرعون هي العليا ، وخاصة بعد أن أسندت هذه الوظيفة إلى ذوى الشخصية القوية من أمراء الأقاليم ، الذين استطاعوا أن يخلصوا البلاد من الأخطار الداخلية والخارجية التي كانت تهددها حينذاك .



تمثال من النحاس الأحمر
للك بكبي الأوتل

بكبي الأول وأوتل

استطاع بكبي الأول ، أعظم ملوك هذه الأسرة ، أن يصلح حال البلاد الداخلية ، ويدافع عن حدودها ويوسع رقعتها ، وكان عضده الأيمن في تنفيذ سياسته هذه رجلا من الأشراف اسمه أوتل ، أولاد كل ثقته ، وجعله قاضيا ، فكاونا ، فناظرا على أملاكه .

الإدارة الداخلية :

وقد استطاع أوتل أن يدير شؤون الدولة الداخلية بإدارة حازمة : بجمع الضرائب من الأهالي ، دون أن يثير سخطهم ، ونشر راية الأمن والنظام ، وأقام العدل بين الناس .

هزيمة الآسيويين :

وكان نجاح أوتل في الدخول بنجاح كذلك في الخارج ، فلما عهد بكبي الأول إليه محاربة قبائل البدو الآسيوية ، الذين تعدوا حدود مصر الشرقية ، جمع جيشا جرارا من المصريين والنوبيين والليبيين ، ووضع له الخطة الحربية المحكمة ، ثم سار به عن طريق سيناء ، وفي أثناء سيره ضرب على أيدي العابثين وقطاع الطرق ، ولما

قابل العدو، هزمه ، ودُمِّر قلاعه ، ونحرب دياره ، وذبح الرجال ، ثم رجع بجيشه سالمًا غانمًا . وثار البدو الآسيويون بعد كل ذلك ، فأرسل پيى إليهم حملات أخرى ، أهمها حملة بحرية قادها أوئى ، فسارت سفنه محاذية سواحل فلسطين الجنوبية ، وأُزيلت جندها هناك ، وفُتكت بالثأرين فتكا ذريعًا .

ويلاحظ أن هجمات أولئك البدو على مصر كانت نتيجة حركة هجرة واسعة النطاق ، ظهرت فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد فى الشمال الشرقى من بلاد العراق ، ثم اقتربت شيئًا فشيئًا إلى فلسطين فالحدود المصرية ، واستطاع أوئى أن ينقذ مصر من شر هذه الإغارات وما يتبعها عادة من فقر وانحطاط ، وهو شر هددها مرارًا بعد ذلك ثم طغى عليها فترة من الزمن ، كما سنرى عند الكلام على إغارة الهكسوس ، ص ٧٢

الملك مرزوع وأوئى



رأس تمثال مرزوع — المصنوع من النحاس

دام حكم پيى الأول عشرين عامًا ، كانت خير أيام الأسرة السادسة ، فلما مات ، خلفه ابنه مرزوع ، وكان فى صغره ، فقرب أوئى إليه ، لتفانيه فى خدمة أبيه ، ورقاه حاكمًا للجنوب . وقام أوئى بواجباته الجليلة خير قيام ، فبذل جهده لتأمين حدود مصر الجنوبية واستعمار بلاد النوبة .

أوئى واستعمار بلاد النوبة :

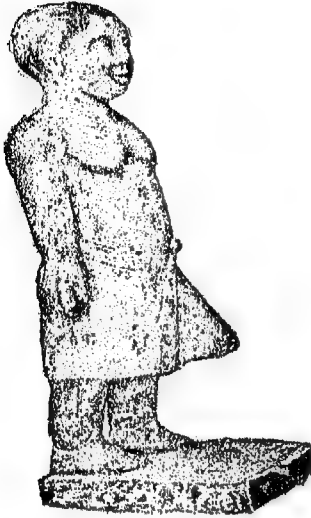
كانت بلاد النوبة دائمًا مطمح أنظار المصريين القدماء : لوفرة الذهب بها ، ولأنها حلقة الاتصال بين مصر والسودان الجنوبي — الغنى بالعاج والأبنوس وریش النعام — وبين بلاد بنت (الصومال) الكثيرة الخيرات والشهيرة بالبخور اللازم لمعابد الآلهة المصرية . لهذا قام أوئى بحفر خمس قنوات بالقرب من

الشلال الأول عند أسوان ، ليسهل الاتصال بتلك البلاد ، ونجح في هذا العمل ، على الرغم من أن شق هذه القنوات كان في صخور جرانيتية .

وقد دُون أوني سيرته على حجر عثر عليه في مقبرته بأبيدوس (العرابة المدفونة — مركز البلينا ، بمديرية جرجا) ، وهو محفوظ الآن بالمتحف المصرى .

حرخوف حاكم الجنوب :

وبعد موت أوني ، خلفه في منصب حاكم الجنوب رجل اسمه حرخوف ، وكان رئيس قبائل جزيرة الفيل المواجهة لأسوان ، ونجح حرخوف في مد نفوذ فرعون إلى ما وراء الشلال الثانى ، وأخضع القبائل الثائرة هناك ، وفرض عليهم غرامة كبيرة نقلها إلى منف على ثلاثمائة حمار ، فسر الملك مرنع بذلك كثيرا .



مثال قزم - الأسرة السادسة

پيى الثانى

طول حكمه :

مات مرنع صغيرا ، خلفه أخوه پيى الثانى ، وهو فى السادسة من عمره ، وعاش حتى بلغ المائة ، فكانت مدة حكمه أطول مدة عرفها التاريخ ، وفى عهده توغل حرخوف فى بلاد النوبة ، فمهد بعمله هذا سبيل الاستيلاء عليها فيما بعد .

حرخوف والقزم :

ومن الطريف أن نذكر أن حرخوف عاد من إحدى حملاته فى تلك الجهات ومعه قزم من أواسط إفريقيا ، فلما علم پيى بذلك غممه سرور عظيم ، إذ كان لأغنياء المصريين ولع بالأقزام يتلهون برقصهم ولعبهم ، فكتب إلى

حرخوف خطابا يوصيه فيه بإقامة الحراس ليلا ونهارا على القزم ، ومراقبته
في السفينة لئلا يفرق في النيل !

وقد نقش حرخوف نص هذا الخطاب على واجهة مقبرته بأسوان .



واجهة مقبرة حرخوف بأسوان

ضعف الحكومة :

وفي أواخر أيام پيى الثانى ، انتهز أمراء الأقاليم فرصة ضعفه لشيخوخته ،
واستادوا كثيرا من سلطتهم ، وبعد وفاته ، خلفه ملوك ضعاف حكموا مددا
قصيرة ، ولم يستطيعوا كبح جماح الأمراء ، الذين قوى شأنهم وأصبح كل همهم
أن يستقلوا استقلالاً تاماً ، ومزّدوا بذلك للتفكك السياسى فى العصر الثانى .
وبانتهاء الأسرة السادسة انتهى عهد الدولة القديمة ، الذى بلغت فيه مصر درجة
عظيمة من المدنية والمجد .

الفصل الرابع

عصر الانحلال — العصر المتوسط الأول

من الأسرة السابعة إلى الأسرة العاشرة

٢٢٨٠ — ٢٠٦٥ ق م

انتشار الفوضى :

يسقط الأسرة السادسة استقل كل أمير بتدبير شئون إمارته ، وبعد أن كانت البلاد تحت سلطان ملك واحد، صارت تحت حكم أمراء عديدين، ينافس كل منهم الآخر في السيطرة عليها ، فعمت الفوضى وساد الانحلال ، وطمع في البلاد جيرانها : فأغارت قبائل البدو الآسيوية على الدلتا، واحتل النوبيون لإقليم أسوان .

الأسرتان السابعة والثامنة :

عندئذ قام بعض الأمراء وأسسوا حكومة مركزية في منف، هي حكومة الأسرة السابعة، ثم خلفتها أسرة جديدة ، هي الأسرة الثامنة، التي ظلت الفوضى ضاربة أطنابها في أيامها أيضا ، فتقهقر فن البناء وتخربت المعابد ، وسرقت محتويات المقابر والأهرام ، ولم ترسل بعثات إلى أسوان أو سيناء، لطلب أحجار المباني ، بل كانت الأحجار تؤخذ من مقابر العهود السابقة ومعابدها ، وساءت حال الأسر الطيبة ، وأثرى الفقراء على حساب الأغنياء ، واتسعت حرمة القانون وتدهورت البلاد بعد عزها .

الأسرتان التاسعة والعاشره — ملوك هيراقليوبوليس :

وبانتهاء الأسرة الثامنة انتهى العصر الذى كانت فيه " منف " عاصمة مصر ، واغتصب بعض أمراء الأقاليم الملك ، ونقلوا العاصمة إلى مدينتهم هيراقليوبوليس ، أهناسية المدينة ، مركز بنى سويف ، وأسسوا الأسرتين التاسعة والعاشره ، ولم يتركوا آثارا تذكر ، وإنما عرفنا أخبارهم من النقوش التى دونها أمراء أسيوط على مقابرهم المحفورة فى الصخور ، وكانت العلاقة بين هؤلاء الأمراء وملوك أهناسية طيبة ووثيقة ، ويتضح من تلك النقوش أن مصر كانت تعاني أشد أنواع الفوضى إذ ذاك ، وأن ملوك أهناسية حاولوا رد شىء من النظام إلى البلاد .



الباب الثالث

الدولة الوسطى — عصر الإقطاعات

٢٠٦٥—١٥٨٥ ق.م

الفصل الأول

عصر ملوك طيبة

الأسرة الحادية عشرة

تأسيسها :

بينما كان ملوك هيراكليوبوليس (إهناسية) يقاومون الفوضى ويحاولون رد النظام إلى البلاد، قَوَّى الأمراء الحاكِّون في طيبة (الأقصر) شيئا فشيئا، فأخذوا يوسعون رقعة أملاكهم، ونَصَّب أحدهم نفسه فرعونا على البلاد، وأسس هو وخلفاؤه مملكة مستقلة في الجنوب، عاصمتها طيبة، وقامت بذلك الأسرة الحادية عشرة، فبدأت عهدا جديدا في تاريخ مصر، هو عهد الدولة الوسطى.

القضاء على الفوضى :

و يلاحظ أن هذه الأسرة عاصرت ملوك إهناسية فترة من الزمن، أى أن مصر انقسمت مدى حين إلى مملكتين مرة أخرى : مقر إحداهما في إهناسية، ومقر الأخرى في طيبة، ثم قدر لملوك طيبة أن ينتصروا على أعدائهم في الشمال، على الرغم من مساعدة حكام أسيوط لهم، واستطاعوا بذلك أن يعيدوا لمصر اتحادها وينشروا لواء الأمن، وينهوا الحروب الأهلية والفتن.

تحسن الحالة الاقتصادية :

وبذل ملوك الأسرة الحادية عشرة كل ما يستطيعون فى العمل لصالح مصر وسكانها : فعنوا عناية طيبة باستغلال مناجم وادى الحمامات ومخارج استغلالا منظما ، بعد أن أهمل شأنه منذ عهد طويل ؛ واهتموا بإخضاع بدو الصحراء الشرقية ، لتأمين الطريق بين النيل والبحر الأحمر ؛ وتوطيد العلاقات التجارية بين مصر وبلاد بنت (الصومال) ؛ فتحصنت بذلك حال البلاد الاقتصادية .

نمو الطبقة الوسطى :

وكان من نتائج الرخاء الذى عم مصر فى ذلك الحين أن تكونت من أغنياء الملاك وأرباب المهن والتجار طبقة جديدة ، هى الطبقة الوسطى .

الفصل الثانى

الأسرة الثانية عشرة

٢٠٠٠ — ١٧٨٥ ق . م

أممحيث الأول

دام حكم الأسرة الحادية عشرة نمسا وستين سنة ، ثم خلفتها الأسرة الثانية عشرة التى أسسها أممحيث الأول .

توليّه الملك :

كان أممحيث وزيرا لأحد ملوك الأسرة الحادية عشرة ، ومن المحتمل أنه كانت بينهما قرابة ، ولهذا أولاه فرعون كل ثقته ، فقويت بذلك شوكته ، ولما مات آخر ملوك تلك الأسرة ، دون وريث ، انتهز أممحيث هذه الفرصة ، وأعلن نفسه ملكا على مصر ، فأسس بذلك الأسرة الثانية عشرة ، التى حكمت البلاد نيّفا ومائى سنة ، كانت من أسعد عصور التاريخ المصرى القديم وأكثرها رخاء واستقرارا .

سياسته نحو أمراء الأقاليم :

صادف أمنيحيات الأول عقبات كثيرة في أول حكمه ، فاستطاع بمهارته أن يتغلب عليها جميعا ، وثبتت ملك أسرته على أساس متين .

وكانت أولى هذه المشا كل رغبة أمراء الأقاليم في قطع صلّتهم بفرعون والانفراد بالحكم في إقطاعاتهم ، التي كانوا يتوارثونها ابنا عن أب بإقرار إسمى من الملك .

ولم يكن من الميسور أخذ هؤلاء الأمراء بالشدّة ، لأنهم مازالوا أقوياء ، تدل على قوتهم : المقابر الهائلة التي نحتوها في الصخور ^(١) ، والنقوش التي سجلت حوادث إدارتهم لإقطاعاتهم ؛ لهذا عمل أمنيحيات على أن يأخذهم بالسياسة والحسنى ، لاسميا وأنهم كانوا يعطفون على أهل إقطاعاتهم ، ويقدمون لهم الحبوب وقت المحن ، ويساهمون بذلك في تقدّم البلاد ؛ فسمح لهم بقسط كبير من الاستقلال في إقطاعاتهم ، ولكنه أبقى عليهم ما كان على أسلافهم من التزامات واجبات : كدفع الضرائب ، وإمداده بالجيوش عند الحاجة ، وعين لكل منهم حدود أرضه ، حتى لا يتنافسوا كما كانوا يفعلون قديما ، وبذلك استمالم اليه وضمن ولائهم له .



مقبرة أحد أمراء بني حسن محفورة في الصخر

(١) كان أمراء المنيا يقيمون مقابرهم في بني حسن الشروق ، مركز أبو قرقاص ، وأمراء الأشمونين يقيمونها في البرشا ، مركز ملوى ، وأمراء أسيوط في بلدة مير ، إحدى قرى مركز منفوط .

العاصمة أتت تاوى :

ولما وجد امنمحيث الأول أن بلدة طيبة تقع في جنوب مصر وتبعد عن شمالها ، تركها ، وفضل بناء عاصمة جديدة في نقطة متوسطة ، فاختار بقعة تقع على بعد ٣٠ كيلو مترا إلى الجنوب



مقبرة أحد أمراء الأقاليم من الداخل

من منف ، وبني فيها قصره ودواوينه ، وسماها أتت تاوى ، أى القابضة على الوجهين ، البحرى والقبلى ، ومكانها قرية اللشت الحالية ، بمركز العياط — مديرية الجيزة (١)

ومن هذه العاصمة الجديدة استطاع امنمحيث أن يشرف على الدلتا والصعيد ، فحصى الدلتا من إغارات الأسويين وأخضع بلاد النوبة حتى كورسكو ، واستغل مناجم سيناء ووادى الحمامات .

إشراك ابنه في الحكم :

ولكى يضمن العرش لابنه من بعده ، رأى أن يدرّبه على الحكم في حياته فأشركه معه في السنة العشرين من حكمه ، وقد سار كل ملوك هذه الأسرة تقريبا على هذه الخطة .

التأمر على امنمحيث الأول ووصيته :

قوبل امنمحيث في أواخر أيامه بنكران الجيل من حاشيته ، فدبر بعضهم مؤامرة لاغتياله ، ولكنه نجا منها ، وأثرت في نفسه هذه الحادثة ، فأوصى ابنه أن يشتد في معاملة مرءوسيه ، لأن الناس «تحتزم كل من يخيفهم ويفزعهم» ، وحذّره من أن يتخذ أحدا منهم رفيقا أو صاحبا .

(١) تنقل ملوك الأسرة الثانية عشرة في جهات مختلفة ما بين منف والفيوم ، ولم يستقروا جميعا في هذه العاصمة .

وفاة امنمحيث :

لم يعيش امنمحيث طويلا ، بعد نجاته من هذه المؤامرة ، وعند ما مات كان ولي عهده سنوسرت وأمير من أقاربه ، اسمه سنوهي ، يحاربان الليبيين ، فلما بلغهما نعي الملك عاد أولهما إلى العاصمة وتسلم زمام الأمور ، قبل أن ينازعه على العرش منازع ، أما سنوهي فقد فر إلى فلسطين ، لسبب ما زال مجهولا ، وعاش هناك حينما من الدهر ، ثم عاد إلى مصر بإذن من سنوسرت ، وروى ما حدث له منذ وفاة امنمحيث ، وتعتبر قصته من القصص المصرية الشهيرة (١) .

سنوسرت الأول

— أعماله الداخلية :

شيد سنوسرت الأول (٢) هرما لنفسه في عاصمته ، أتت تاوى ، وبني أيضا معبدا للآله «رع» ، في مدينة أون (عين شمس) ، بالقرب من المطرية ، لم يبق منه سوى مسلة لا تزال شاخصة في مكانها .

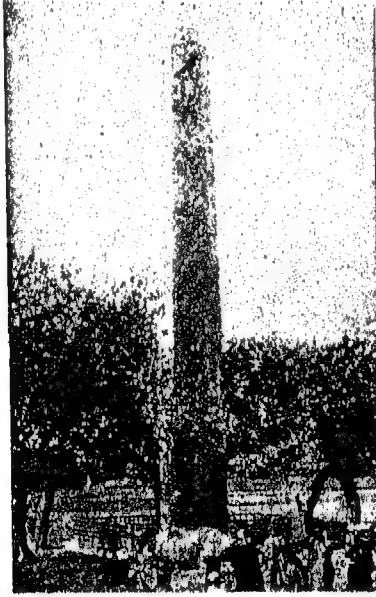


رأس تمثال سنوسرت الأول

(١) راجع ص ١٧٧ (٢) وقد عرفه اليونان باسم سيوستريتس .

أعماله الخارجية :

وعُنى سنوسرت باستعمار النوبة ، فقاد الجيوش بنفسه إلى بلاد كوش ، الواقعة وراء الشلال الثانى ، وأرسل بعثة إلى الواحة الخارجة ، وجابت رسله فلسطين وسوريا بانتظام .



مسلة عين شمس

امتحيت الثانى وسنوسرت الثانى

خلف سنوسرت الأول ابنه امتحيت الثانى ، ثم تولى بعد هذا ابنه سنوسرت الثانى ، وقد تدرب كل منهما على شئون الحكم مع أبيه مدة من الزمن ، ولأولهما هرم بدهشور ، وللثانى آحر باللاهون .

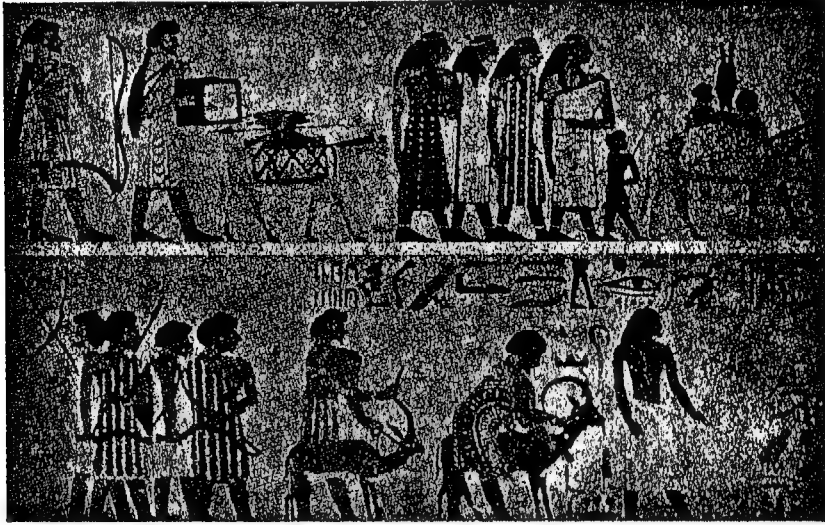
رخاء مصر فى عهدهما :

تمتعت مصر طول حكم هذين المليكين ، الذى دام خمسين عاما ، بالرخاء والرفاهية ، فاستغلت مناجم سيناء ثانية ، واستؤنفت العلاقات التجارية مع بلاد بنت ، حتى ألف أهلها رؤية المصريين ، وأخذ هؤلاء يذكرون تلك البلاد

في قصصهم ، ومن أطرفها قصة تعرف بقصة الملاح الغريق ، تصف ما صادفه هذا الملاح من مشاق في سبيل وصوله إلى بلاد بنت ، وسنعود إليها عند الكلام على الأدب المصري ، في باب الحضارة (ص ١٦٣) .

تجدد خطر الأسويين على مصر :

على أن رخاء مصر ورفاهيتها وخصوبة أرضها ، كل ذلك جذب إليها المهاجرين الأسويين ، فتجدد سيلهم ، في عهد سنوسرت الثاني ، كما يتضح ذلك من نقش ، وردّ على جدران إحدى مقابر بنى حسن (مركز أبو قرقاص) ، يمثل وفدا جاء في السنة



قدوم وفد من البدو الأسويين — مقابر بنى حسن

السادسة من حكمه ، وتألف من سبعة وثلاثين شخصا من البدو الساميين ، بين رجال ونساء وأطفال ، ارتدوا ملابس صوفية مزركشة ، وترك الرجال لحاهم ، وأسدل النساء شعورهن ، وجلبوا معهم الحمير التي حملوها بالهدايا لحاكم منطقة بنى حسن ، وتقدماتهم رئيسهم يطلب إليه الإذن له ولجماعته بالإقامة في مصر والتجارة معه ، لا سيما في الكحل والروائح العطرية التي كان المصريون يستعملونها بكثرة إذ ذاك .

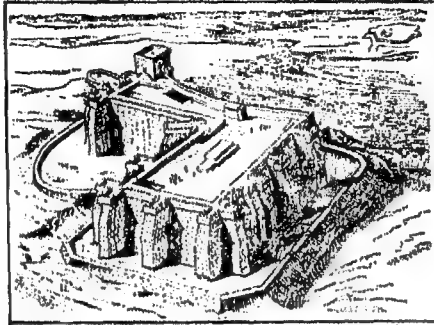
سنوسرت الثالث

مطاردة الاسيويين :

على أن هذا الخطر، الذي هدد مصر في عهد سنوسرت الثاني، استطاع أن يدرأه عنها ابنه سنوسرت الثالث، الذي تولى الحكم بعده، فطارد القبائل السامية الزاحفة على البلاد، وهزمها في بلدة تقع شمال أورشليم (بيت المقدس) ، وغزا الجزء الجنوبي من سوريا فهدد بذلك فتح تلك البلاد لفراعنة الأسرة الثامنة عشرة ، كما مهد ملوك الدولة القديمة لأسرته فتح بلاد النوبة وضمها لمصر .

ضم النوبة :

رأينا أن ملوك الأسرة السادسة أرسلوا حملاتهم إلى الشلال الأول، ثم توغل ملوك الأسرة الثانية عشرة الأوائل إلى ما وراء الشلال الثاني، فلما تولى سنوسرت الثالث ضم هذه البلاد إلى مصر، وقاد الحملات بنفسه إليها، وشيد عند الشلال الثاني، بالقرب من وادي حلفاحصنين متقابلين على النيل : أحدهما في سمته والآخر في قمة .



حصن سمته كما كان في أيام الدولة الوسطى

إخضاع أمراء الأقاليم :

وكما انتصر سنوسرت الثالث في حروبه وفق أيضا في فضاله مع أمراء الأقاليم الذين قويتم شوكتهم مرة أخرى، فاستطاع أن يتغلب عليهم ويقضى على ما كان لهم من نفوذ، ويتضح ذلك من توقفهم فجأة، في عهده، عن نحت مقابرهم الصخرية الهائلة في إقطاعاتهم، كما كان يفعل أسلافهم من قبل .

قناة سينوستريس :

ساعدت كل هذه الأمور على ازدياد ثروة مصر ونشاط تجارتها، لاسيما وأنه كان يوصل خليج السويس بفرع النيل الشرقى إذ ذاك قناة، هي أقدم اتصال مائى بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، عرفها المؤرخون اليونان بقناة سينوستريس .

أمنمحيث الثالث

الرخاء فى عصره :

خلف سنوسرت الثالث ابنه أمنمحيث الثالث ، فورث مملكة واسعة الأرجاء موطدة الدعائم، وكان عصره عصر سلام ورخاء، وقد ساعده طول حكمه واستتباب

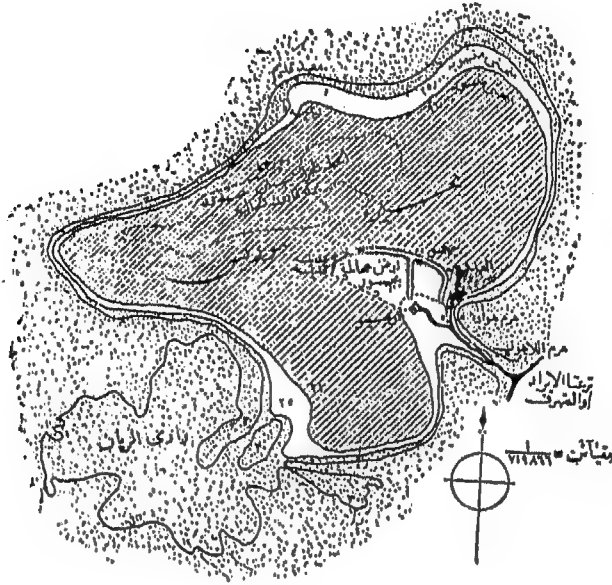


رأس تمثال أمنمحيث الثالث

السلم فيه، بعد عهد أبيه المليء بالحروب ، على التوسع فى المشروعات النافعة للبلاد وأهمها مشروع الفيوم .

عنايته بإقليم الفيوم :

عنى فراعنة الأسرة الثانية عشرة الأوائل بإقليم الفيوم المنخفض ، وبالارتفاع بمياه النيل ، التى كانت تطفى عليه وقت الفيضان فتحوله بحيرة عظيمة يضيع ماؤها هباء ، فأقاموا جسرا فى الفجوة التى تصل وادى النيل بمنخفض اللاهون بالفيوم ، وبذلك أصبح هناك شبه خزان ترد إليه المياه عند ارتفاع النيل بواسطة ترعة (بحر يوسف الآن) ، وتصرف منه وقت التحريق لرى أراض زراعية كثيرة ، كما المحسر الماء عن جزء من البحيرة ، فأصبح صالحا للزراعة ، وصارت الفيوم منذ ذلك العهد من أخصب بقاع مصر .



الفيوم

ولما تولى الحكم أمنمحيث الثالث ، أطال الجسر فضاقت بذلك حدود البحيرة وجف جزء آخر منها ، ولكثرة عنايته بإقليم الفيوم ، ظن البعض خطأ أنه مبتكر المشروع .

مقياس سمنه :

هكذا غنى أمنحيت بأمور الزراعة والرى ، ويدل على ذلك أيضا إنشاءه مقياسا للنيل فى جهة سمنه ، يوضح ارتفاع الفيضان أولا بأول ، فيستطيع رجال الحكومة تقدير كمية المحصول المنتظرة ، وعلى أساس ذلك كانت تجمع الضرائب حتى لا يرهق الفلاح .

” اللابرنت “ قصر التيه :

وبالقرب من هذا السد ، بنى أمنحيت قصرا عظيما جعله مسكنا له ومعبدا ومقرا لحكومته ، وكان بهذا القصر اثنتا عشرة ردهة ، وثلاثة آلاف حجرة لاجتماع حكام البلاد ، وكانوا يأتون كل سنة إلى هذا القصر ومعهم الموظفون التابعون لهم ، فيذهبون إلى الحجرات المخصصة لهم ، وهناك يعمل كل منهم حساب الأموال المطلوبة منه لخزانة الملك ، ويقدم له ما تجمع لديه من تلك الأموال .

وظل هذا القصر قائما زمنا طويلا ، ورآه بعض من زاروا البلاد المصرية من الرحالة اليونان : أمثال هيرودوت وديودور وسترابو ، وأعجبوا به أكثر من إعجابهم بالأهرام ، وسموه قصر اللابرنت أو التيه : نظرا لتشعب طرقه وحجراته التى يتيه فيها من يدخله ، وتشبيها بقصر اللابرنت الكريتي الشهير فى الروايات اليونانية الخرافية . وقد زال ذلك القصر ولم يبق من آثاره شيء .

مناجم سيناء وتنظيم استغلالها :

ومن أعمال أمنحيت أنه نظم استغلال مناجم سيناء ومحاجرها ، فبنى للعمال المساكن ، وحفر لهم الآبار لتسهيل العمل عليهم ، وأقام حراسا فى تلك الجهات لتحول دون سطو اللصوص على المناجم .

العناية بالتجارة :

كذلك غنى بالمعاملات التجارية ، فوضع وحدة مشتركة من النحاس لقيمة ما يشرى وما يباع .

موت أمنمحيث الثالث :

دام حكم أمنمحيث نحو خمسين عاما ، ترنم الناس بجلالها وقالوا : ”إن الملك هو الذى كسا القطرين حلة خضراء“ ، وقد دعاهم إلى ذلك ما شاهدوه من ثروة ، وشعروا به من طمأنينة وأمن فى عهده ! ولما مات أمنمحيث دُفن فى هرم قائم بهواره .

نهاية الأسرة الثانية عشرة :

خلف أمنمحيث الثالث ابنه أمنمحيث الرابع ، وفى عهده عاد أمراء الأقاليم إلى تقوية نفوذهم ، ولما مات ، دون أن يترك ولى عهد ، ورثته أخته الملكة سبك نفرورع ، فضعفت الملكية ضعفا أدى إلى انتهاء الأسرة الثانية عشرة وعهدها الزاهر ، الذى دام مدة تزيد على القرنين .

الفصل الثالث

الاضطراب الداخلى وحكم الهكسوس — العصر المتوسط الثانى

من الأسرة الثالثة عشرة إلى الأسرة السابعة عشرة

١٧٨٥ — ١٥٨٠ ق.م.

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة

احتفظت مصر بوحدةها بضع سنين ، بعد انتهاء الأسرة الثانية عشرة ، ثم صارت فريسة للنزاعات الداخلية ، فبدأ بذلك عصر من أظلم عصور التاريخ المصرى القديم دام مدّة قرنين ، وحكم البلاد فيه ملوك ضعاف كوّنوا الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، واتخذوا عاصمتهم فى مدينتى طيبة بالصعيد ، وسخا فى الشمال الغربى بالدلتا ، على التوالى ، ونكاد لا نعرف شيئا عن معظمهم .

وقد ساعد ضعف ملوك هاتين الأسرتين على انقسام مصر واضمحلال قوتها وسيادة الفوضى فى أرجائها مدّة أخرى ، فاتهمز جيرانها الغزاة الآسيويون هذه الفرصة وأغاروا عليها ، وهكذا تولى حكم البلاد ملوك من الأجانب القساة .

الهكسوس (١٧٣٠ - ١٥٨٠ ق.م)

معنى كلمة هكسوس :

أُطلق على هؤلاء الغاصبين اسم "الهكسوس"، وهى كلمة ترجمها أحد المؤرخين القدماء بملوك الرعاة، فقال إن "هك" معناها فى اللغة الدينية المصرية القديمة ملك و "سوس" معناها فى اللغة الدارجة رعاة ؛ وقد خالف كثير من المؤرخين هذا التفسير وقرروا أن كلمة سوس مشتقة من كلمة مصرية قديمة معناها البلاد الأجنبية، وعلى هذا قالوا إن "هكسوس" معناها "حكام البلاد الأجنبية"، وهو تفسير يطابق ما كان معروفا منذ الأسرة الثانية عشرة، حين أطلق هذا الاسم على رؤساء القبائل الآسيوية، الذين كانوا يقدون إلى مصر بين حين وآخر لتقديم الهدايا لأمراء بنى حسن الأقوياء، كما أسلفنا .

أصل الهكسوس :

ولا نعرف بالضبط من هم هؤلاء الهكسوس، وقد قيل
لأنهم إما من أصل عربى أو من أصل فينيقي ، والأرجح
كما يتضح من أسماء ملوكهم، أنهم خليط من شعوب آرية
وأخرى سامية عربية .

أسباب إغارتهم على مصر :

وفد الهكسوس على مصر من آسيا نتيجة لزحف الشعوب
الآرية من وطنها الأصل على الأراضى الواقعة شرق بحر
قزوين ، وقد بدأ هذا الزحف فى الألف الثانى ق . م .
واهتزت له أعم الشرق القديمة ، فدفعت بعض شعوبها نحو
وادی النيل، الذى كانت حال سكائه حينئذ أكبر مشجع
على غزوه .



خنجر من أسلحة الهكسوس

أسباب انتصارهم :

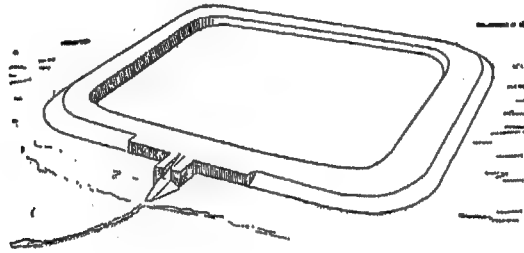
وقف الهكسوس أمام أعداء ضعاف مزقتهم الفوضى ، وفوق ذلك كان المغيرون يفوقون المصريين حربيا من حيث العدد والعدد ، فقد استعملوا في حربهم الخيل والعجلات الحربية والسيوف المصنوعة من البرونز ، واستطاعوا بهذه الوسائل أن ينشروا الذعر في صفوف المشاة المصريين ويهزموهم .

عاصمتهم أفاريس :

أخضع الهكسوس في أول الأمر إقليم الدلتا ، واتخذوا فيه عاصمة لهم تسمى أفاريس^(١) ، وأقاموا الحصون والقلاع ، ومن أهمها حصن تل اليهودية ، بالقرب من شبين القناطر ، ثم أجبروا جميع الأمراء المصريين على دفع الجزية لهم ، وقد ألّف ملوكهم الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة .

أعمالهم في مصر :

احتفظ الهكسوس بعبادتهم ، وكانوا يعاملون المصريين بغلظة في أول الأمر فدمروا كثيرا من معابدهم ومبانيهم ، ولكنهم مالبنوا أن تمصروا وقلّدوا الفراعنة



حصن تل اليهودية — عصر الهكسوس

(١) أثبتت الأبحاث الحديثة أن أفاريس هـرسان الحجر (تانيس) ، مركز فاقوس ، بمديرية الشرقية

في أسمائهم وعاداتهم وأزيائهم ولغتهم وديانتهم ، وسمّوا أنفسهم "أبناء رع"
وشبّدوا المعابد وكتبوا أسماءهم على الآثار ،
وإليهم تنسب الجعل (الجمارين) الكبيرة
التي وجدت في مصر منقوشة ، على الطريقة
الأسبوية ، على شكل الأزهار وفي وسطها
أسماءهم مكتوبة بالهيروغليفيه .



جعل على كل منها اسم ملك من
ملوك الهكسوس

خروج الأمراء المصريين عليهم :

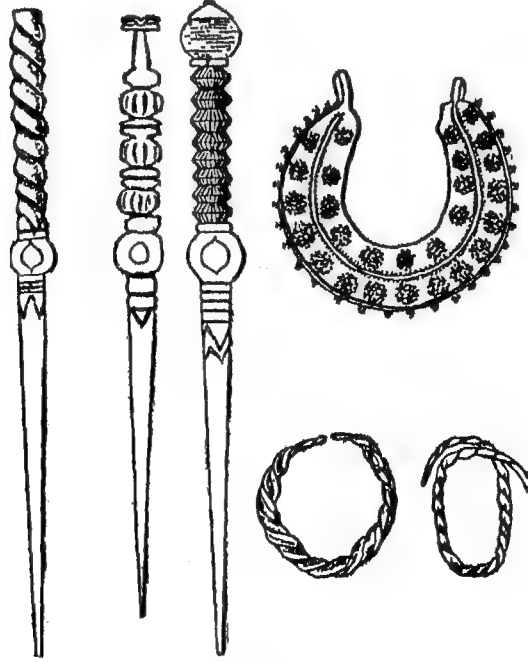
ولكن على الرغم من ذلك كان الهكسوس مكروهين كغزاة للبلاد ، ولم يغتفر
المصريون لهم ما أصابهم منهم ، ونبهتهم بالقذرين ، وأخذوا يتحينون الفرص
لطردهم ، وبمرور الزمن ضعف الهكسوس ، فاسترد الأمراء المصريون ما كان لهم
من نفوذ ، وانتهز أمراء طيبة الأقوياء فرصة هذا الضعف وخرجوا عليهم ، وأسسوا
الأسرة السابعة عشرة وحكموا الصعيد .

قصة أفراس البحر :

حقق لذلك ملك الهكسوس المدعو أبوي ، وعزم على أن يحارب أمير طيبة
ليكسر شوكته ، وتروى قصة مصرية ، كان يتعلمها الأطفال المصريون القدماء
في مدارسهم ، وهي أن أبوي أرسل إلى أمير طيبة يشكو من الضجة التي تحدثها
أفراس البحر في بركة قريبة من طيبة فتحرمه لذة النوم الهادئ !

ومن الواضح يخفف هذه الشكوى ، إذ أن أفراس ، التي يقيم بها ملك الهكسوس ،
تبعد عن طيبة بمئات الأميال ، ولكن لما كانت أفراس البحر حيوانا مقدسا
عند سكان طيبة فقد استطاع أبوي بهذه الشكوى أن يثير خواطرهم ، وخاصة عند

ما هدد بذبح هذا الحيوان ، فقامت الحرب بين الهكسوس والطيبيين ، وفاز الهكسوس في أول الأمر ، واستشهد أمير طيبة في القتال .



حلى من عصر الهكسوس

طرد الهكسوس من مصر :

ولكن المصريين ما فتئوا أن انتصروا بعد قليل ، وذلك لأنهم كانوا قد تعلموا الفنون الحربية ، في أثناء مكافحتهم للهكسوس ، فاستعملوا آلاتهم ، واستخدموا الخيل والعجلات الحربية في القتال ، وأخيرا تمكنوا بقيادة أحد أمراء طيبة ، واسمه أحبس ، من طردهم من مصر ، وتعقبوهم نحو الشمال ، واستولوا على عاصمتهم أفاريس ولم يكتفوا بذلك ، بل اقتفوا أثرهم إلى الشام وحاربوهم فيها ، فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، ثم انتقم المصريون لأنفسهم منهم : فدمروا معابدهم ، ومحووا آثارهم ، وهذا هو السبب في غموض تاريخ هذا العصر .

الباب الرابع

الدولة الحديثة

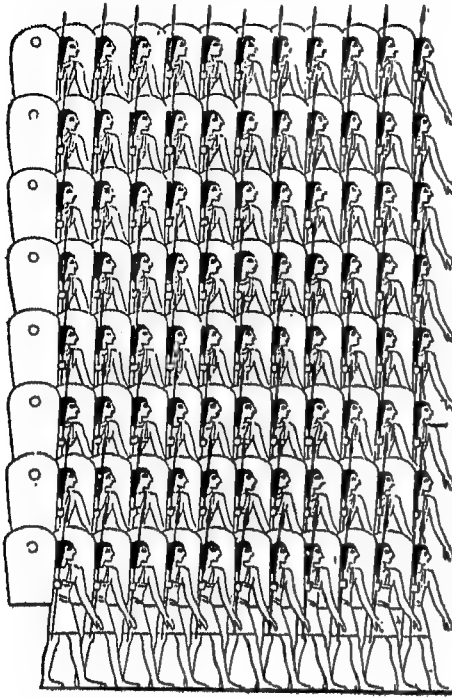
١٥٨٠-١٠٨٥ ق.م.

الفصل الأول

الأسرة الثامنة عشرة

أحمس الأول واستقلال مصر :

تخلصت مصر من الاحتلال الآسيوي البغيض ، ذلك الكابوس الثقيل الذي



فرقة من الجنود المصريين القدماء

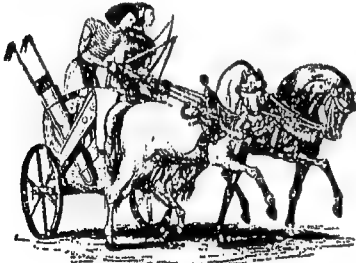
ناعت بعيشه مدة تتراوح بين قرن
وقرنين من الزمان ، واستردت
بلادنا استقلالها ، بفضل همة الملك
أحمس وشجاعة أهلها .

ويعتبر أحمس أول ملوك الأسرة
الثامنة عشرة ، التي حكمت مصر مدة
قرنين ونصف (١٥٨٠ - ١٣٢٠
ق.م) .

ولقد شاهدت هذه الأسرة
حادتين هامتين : أولها ، قيام
الامبراطورية المصرية ، وثانيهما ،
ثورة إخناتون الدينية .

قيام الإمبراطورية المصرية

تعلم المصريون من نضالهم الطويل مع الهكسوس فنون الحرب ، وأخذوا عنهم استعمال الخيل والعجلات الحربية ؛ ومن الغزوات التي قام بها أحسن عدة سنوات في فلسطين وفينيقياء ، في أثناء مطاردته للهكسوس ، أدركوا ما عليه الأقطار الآسيوية من ثروة ، فخرجوا من عزلتهم ومالوا إلى الفتح والاستعمار ، وتسلمت الروح العسكرية على نفوس أفراد الشعب



عجلة حربية يجرها جوادان
وفيه أمير ومساعداه

حتى الأغنياء منهم ، فقدّموا أنفسهم وأرواحهم فداء لفرعون ، وانخرطوا في سلك حملاته التي أرسلها لتوسيع حدوده ، وبذلك أصبح لمصر ، التي استردت استقلالها ، ممتلكات شاسعة في قارتي آسيا وإفريقيا . وكان فرعون يصدر أوامره من طيبة ، عاصمة ملكه ، فيليبيا أمراء كوش عند الشلال الرابع ، على بعد ثمانمائة ميل على طول مجرى النيل ، ويطيعها أمراء الشام ، في الشمال الشرقي لمصر ، حتى نهر الفرات على مدى يزيد على ألف ميل .

الفترة الأولى : (١٥٨٠ - ١٥١٥ ق.م.)

امنتحبت الأول

إخضاع النوبة :

عنى فراعنة الأسرة الثامنة عشرة بإخضاع بلاد النوبة ، وأرسل كل منهم حملة لهذا الغرض ، وللحصول على الذهب الوفير فيها ، فقد امتحنت الأول (١) ، الذى تولى العرش بعد أبيه إحسن ، حملة إليها وصلت إلى ما وراء وادى حلفا .

(١) وقد ذكره اليونان باسم أميوفيس .

إخضاع ليبيا :

كذلك وجه امنحتب حملة أخضعت قبائل الصحراء الغربية أو الليبية ، ولم يهتم فراعنة مصر بهذا الجزء من أجل خيراتہ ، فهي قليلة ، وإنما درءا لأخطار القبائل المتجولة هناك ، إذ كانت هذه القبائل تهدد سكان وادي النيل من قديم ، أيام الحكومات الضعيفة .

فتح الشام :

ولما زال الخطر عن حدود مصر الجنوبية والغربية ، وجه امنحتب همه نحو الشام الغنية بأخشابها ، فأرسل إليها حملة يظهر أنها بلغت نهر الفرات .

تحوتمس الأول

بلوغه الفرات :

تولى بعد امنحتب ابنه تحوتمس الأول ، وزحف هو أيضا على الشام ، مخترقا جبال لبنان ، ولم تستطع الولايات المفككة في فلسطين والشام صد جيوش مصر المدربة على القتال ، فبلغت بلاد النهرين ، وهي البلاد الواقعة بين نهر العاصي "الأورنط" ونهر الفرات ، وأقام تحوتمس على شاطئ الفرات لوحا تذكاريا ذكر عليه أن ذلك المكان هو الحد الأقصى لملكات مصر الأسبوية .

الفترة الثانية : (١٥١٥ — ١٤٥٠ ق.م.)

تحوتمس الثاني

قصر عهده :

حكم تحوتمس الأول عشرين عاما ، ولما مات لم يترك إلا ابنا لا تنتمى أمه إلى الأسرة المالكة ، هو تحوتمس الثاني ، وقد تزوج هذا الابن من حاتشبسوت أخته لأبيه ، وكان يجري في عروقها الدم الملكي ، وذلك كي يبردا اعتلاء العرش ، ولكن عهده كان قصيرا جدا ، وورثه في الحكم ابن صغير له عرف بتحوتمس الثالث ، ولم يكن هو أيضا وريثا شرعيا للملك .

الملكة حاتشبسوت

تَشَبَّهَها بالرجال :

انتَهزت حاتشبسوت هذه الفرصة وأصبحت الوصية على الملك، وحكمت البلاد باسمه في أول الأمر، ثم أهملته كما أهملت أباه من قبل، نظرا لما كانت عليه من عظم القدرة وصدق العزيمة .



حاتشبسوت في زي الرجال

وقد تزيت حاتشبسوت بزي الرجال وتشبهت بهم ، فكانت ترتدي ملابس الملوك في الحفلات الرسمية ، وتضع لحية مستعارة مثلهم .

عهد سلم ورخاء :

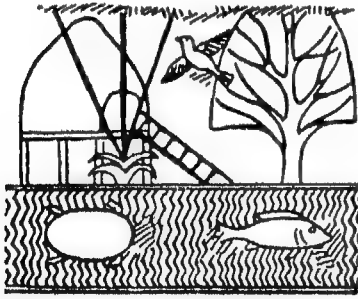
وفي عهدها، الذي دام اثنين وعشرين عاما لم تشغل مصر بالحروب ؛ وتقدّمت تجارتها ودرّت عليها خيرا وفيرا ، فقد أمرت الملكة

ببناء أسطول لها، لا يقل عن خمس سفن كبيرة تسير بالمجاديف والشرع ، وتسع كل سفينة منها ستين أو سبعين شخصا ، منهم ثلاثون يتولون التجديف يجاديف طويلة تساعدهم على السير ، سواء أكانت الريح في اتجاههم أم في اتجاه مضاد لهم ، واثنى عشر هم البحارة ، والباقون حراس يحملون السلاح ، عليهم حماية السفينة ورجالها من تمرد القبائل التي تخرج للتجار معهم .

بعثة بلاد بنت "الصومال" :

و بعد أن تم بناء الأسطول ، أرسلته الملكة ، في بعثة إلى بلاد بنت "الصومال" ، لطلب البخور وأشجار المر ، وزودته بهدايا كثيرة لرؤساء القبائل المتبررة الساكنة هناك .

سارت السفن المصرية شمالا في النيل ، في القناة التي حفرها ملوك الدولة الوسطى ، بين النيل والبحر الأحمر ، مخترقة وادي طميلات في شرق الدلتا ، ثم خرجت



مسكن أهل بنت

في هذا البحر وسارت حتى وصلت
سالمة إلى بلاد بنت ، فرحب بمقدمها
الأهالي ، وكانوا قوماً سذجاً ، يعيشون
في أكواخ تحملها أعمدة مرتفعة عن
الأرض ، بسبب كثرة المستنقعات هناك ،
وجاء رئيسهم تصحبه زوجته المدينة
وأفراد أسرته ليستقبلوا المصريين ،

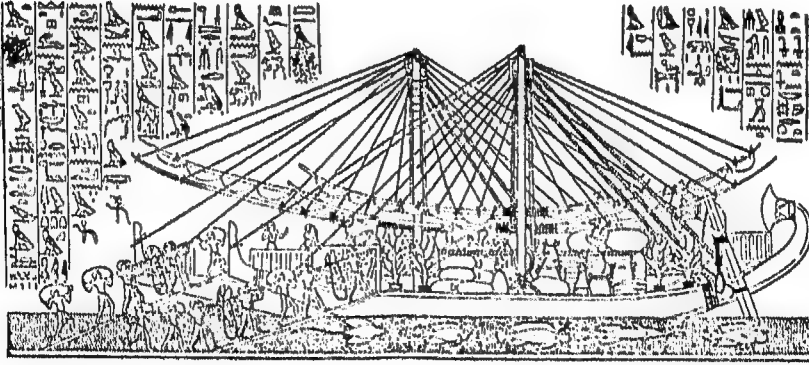
وفرحوا بهداياهم ، وأذنوا لهم أن يزلوا إلى غابات المر ، يقتلعون منها ما يشاءون
ويعبثون من محاصيلها ما يكفيهم ، فاقتلع المصريون بعض الأشجار ليغرسوها
في مصر ، طوعاً لإرادة الملكة ، وجمعوا قدراً كبيراً من المر ، في حقائب وضعوها
في سفنهم ، وجاء أهالي البلاد يحملون كثيراً من محصولاتهم من آبنوس وعاج ،



رئيس بلاد بنت وزوجته

وحوانات غريبة ، من نسانيس وقردة ، ليستبدلوا بها السلع التي أحضرها
المصريون من بلادهم ، وهكذا ظلت روح الود والصفاء سائدة بين الفريقين
طول إقامة البعثة المصرية التجارية هناك ، فلما حان وقت رحيلها ، عز على
بعض الأهالي أن تفارقهم ، وطلبوا أن يرحلوا معها إلى مصر ، فكان لهم ما أرادوا .

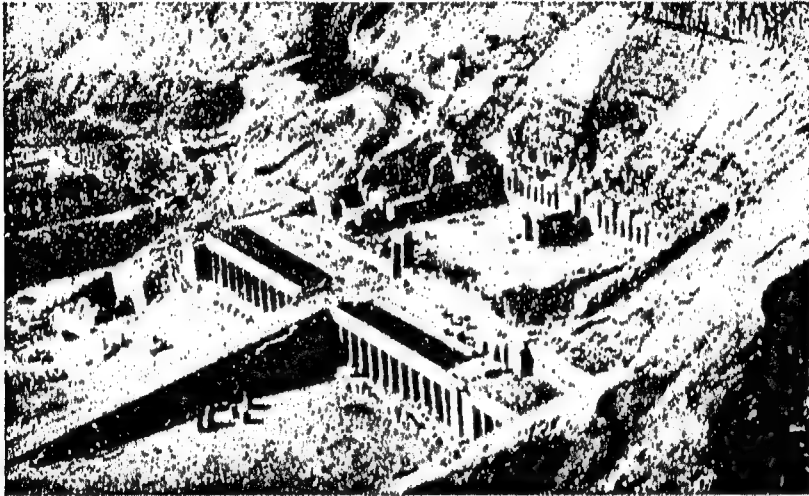
ووصلت السفن المصرية إلى ميناء طيبة سالمة ، فخرج أهلها جميعا يستقبلونها
كانهم في يوم عيد .



السفن المصرية في بلاد بنت

معبد الدير البحرى :

وأمرت حاتشبسوت بتصوير أخبار تلك الرحلة وكتابة حوادثها على جدران
معبد هائل ، أقامته في سفح تلال طيبة الغربية ؛ يعرف الآن بالدير البحرى .



معبد الدير البحرى

بعثة الشلال الأول :

وجاء أيضا ، في النقوش الظاهرة على جدران هذا المعبد ، وصف للبعثة التي أرسلتها حاتشيسوت ، بقيادة مهندسها المحبوب سنوت ، إلى محاجر الجرانيت ، عند الشلال الأول ، لما كلفته قطع حجرين كبيرين لصنع المسلتين العظيمتين اللتين أقامتهما بمعبد الكرنك بالأقصر ، ولا تزال إحداها شاخصة هناك إلى اليوم .

بعثات وادى مغارة :

كذلك أرسلت حاتشيسوت بعثات إلى وادى مغارة بطور سيناء ، للبحث عن معادنها واستغلالها . وقديما وجه الفراعنة حملاتهم إلى تلك الجهات لأمرين : أولهما الحصول على الملاشيت والنحاس ، إذ أنهما يكثران على بعد عشرة أو خمسة عشر ميلا من وسط الساحل الغربى عند سراييط الخادم ، وثانيهما : الإشراف على الطريق الساحلى ، المار من حصن ثارو ، عند الحدود المصرية ، إلى فلسطين .

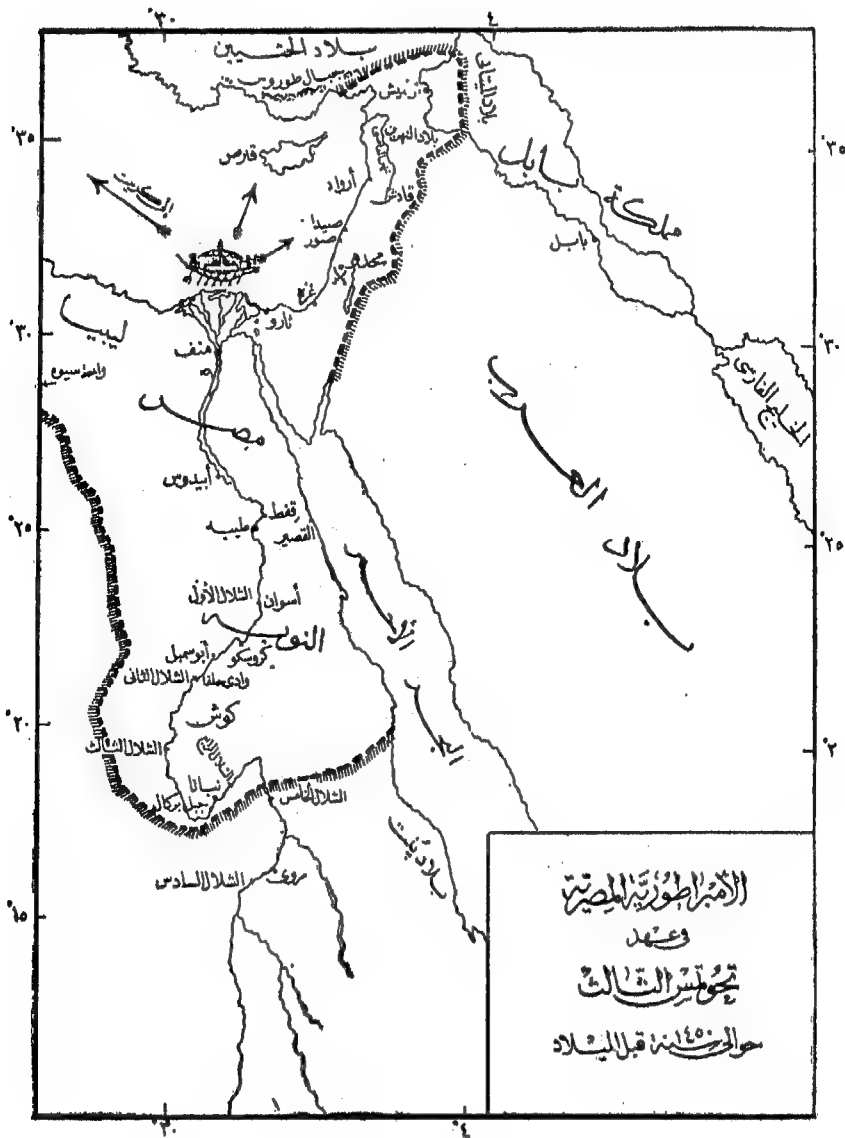
تمرد أمراء سوريا :

هكذا كان عهد حاتشيسوت مصحوبا بالأمن والسكينة ، إلا أن هذا أدى إلى ضعف مركزها الحربى . فاتهز أمراء الشام الفرصة ونظموا حركتهم ضد الحكم المصرى ، واتخذوا مركزا لمؤامراتهم مدينة قادش الواقعة على نهر العاصى ، وكان ملك بلاد ميتانى ، الواقعة وراء نهر الفرات ، يحضهم على العصيان .

تحوتمس الثالث

خَطَّتُهُ :

لما انفرد تحوتمس الثالث بعرش مصر ، بعد موت حاتشيسوت ، عزم على القضاء على تمرد الأمراء قضاء تاما ، وتوسيع ملكه وتثبيت سلطانه فى فلسطين والشام ، فتم له ما أراد ، بعد أن قام بسبع عشرة حملة .



فتوحات تحوتمس :

استولى تحوتمس في حملته الأولى على مجدو ، أما قادش فلم يأخذها إلا بعد أن بعث خمس حملات أخرى ، وفي الحملة الثامنة ، بلغ نهر الفرات ، وهزم جيشا ميتانيا عند مدينة قرقيش ، وأقام ، على الشاطئ الغربي لذلك النهر العظيم ، لوحة تذكارية إلى جانب اللوحة التي تركها أبوه تحوتمس الأول .



تحوتمس الثالث

ولم يكتف تحوتمس الثالث بهذه الحملات الثانية ، بل أرسل تسع حملات أخرى كي يثبت دعائم فتوحه ، ويبعث الرعب في قلوب الشعوب المجاورة. وفعلا أرسل إليه ملوك بابل الهدايا الثمينة لإظهارا لولائهم ، وكذلك فعل الحيثيون ، وهم سكان مملكة خيتا ، فيما وراء جبال طوروس ، وأرسات جزيرة قبرص والجزائر اليونانية وبلاد بنت محاصيلها إليه طمعا في رضائه .

أسباب انتصار تحوتمس الثالث :

وكان جيش تحوتمس رهين إشارته ، وعلى استعداد تام للزحف أينما أراد ، كما كانت موانئ الساحل الفينيقي مزودة بالمعدات والذخيرة ، منذ أخضعها بأسطوله الضخم في غزوته الخامسة ، ولهذا كان من السهل عليه أن ينزل العقاب السريع بكل من حاول عصيانه .



صور أشخاص يمثلون الشعوب التي خضعت لتحوتمس الثالث — قرى النوبى وقد وضع على رأسه ريش النعام والتحف جلد الفهد ، والميثاق وقد ألقى بشال على كتفيه ، والسورى السامى

آثار تحوتمس الثالث :

وقد دَوَّن تحوتمس أخبار حروبه وانتصاراته على جدران معبد الكرنك ، الذى زاد فى بنائه . كذلك أقام فى عين شمس مسلتين نقلتهما كليوباترة فيما بعد إلى الإسكندرية ، فاشتهرتا بمساقى كليوباترة ، وتقوم إحداهما الآن على ضفة نهر التيمز بلندن ، وتقوم الأخرى فى مدينة نيويورك .

كلية الأمراء بطيبة :

لم يكن تحوتمس الثالث قائدا حربيا عظيما فحسب ، بل كان كذلك سياسيا بعيد النظر، فسمح للشعوب الشمالية المتمدينة بالاحتفاظ بحُكُمائها، على أن يكونوا تابعين لأمبراطوريته، ولكنه فى الوقت نفسه جاء بأبنائهم الى مصر : ضمنا لولاء

آبائهم له ، وليربيهم فى كلية الأمراء ، التى أنشأها فى مدينة طيبة ، وينرس فى قلوبهم حب مصر ، حتى إذا آل إليهم حكم بلادهم ، بعد موت آبائهم ، عادوا إليها وتسابقوا فى خدمة فرعون ، وأصبحوا من أتباعه المخلصين ، يدفعون له الضرائب ويتطلعون إليه ليحجمهم من الأعداء .

نتائج أعماله :

هكذا شيد تحوتس الثالث الإمبراطورية المصرية وأقامها على أساس متين ، واقتدى به الفراعنة ، الذين تولوا الحكم من بعده ، فاتبعوا هذا النظام طول أيام الإمبراطورية ، وبهذا قضت مصر على الفتن والثورات والمؤامرات التى هددها حينئذ من الدهر ، كما مدت يد المعونة لاتباعها المخلصين .

أمنحتب الثانى وتحوتس الرابع

تأديب أهل الشام :

ولكن على الرغم مما بذله تحوتس الثالث من مجهود فى إخضاع الشعوب المجاورة ، فقد كان من الضرورى أن يبعث ابنه أمنحتب الثانى^(١) ثم حفيده تحوتس الرابع ، اللذين خلفاه حملة تأديبية إلى الشام ، ضمنا لنفوذهما وإرهابا لمن تحدتهم أنفسهم بالعصيان .

أول مصاهرة سياسية :

وانتهز تحوتس الرابع فرصة إرسال حملته ، إلى تلك الجهات وبدأ علاقات سياسية ودية مع مملكة ميتانى ، الواقعة وراء نهر الفرات ، وكانت قد أخذت تخشى قوة جيرانها الحيثيين ، فتزوج من ابنة ملكها ، وهذا أول مثل لاتحاد سياسى يقوم على المصاهرة بين أسرتين ملكيتين . ويقال إن هذه الأميرة الميتانية هى أم أمنحتب الثالث ، الذى خلف أباه تحوتس الرابع على عرش مصر .

(١) يقول فريق من المؤرخين أن بنى إسرائيل خرجوا من مصر فى عهد أمنحتب الثانى .

الفصل الثالث

طيبة في أوج عزها

أمنحتب الثالث

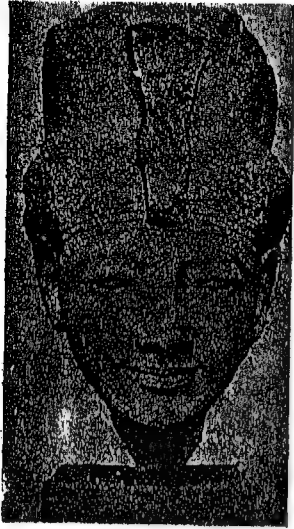
ورث أمنحتب الثالث إمبراطورية شملها السلم وتماسكت أطرافها ، بفضل تلك التقاليد الحكيمة التي وضع أسسها تحوتمس الثالث .

صفاته :

كان أمنحتب قائداً قديراً ، وصياداً ماهراً له ولع خاص بصيد الأسود ، ويروى أنه قتل منها في أثناء حكمه مالا يقل عن مائة أسد .

مظاهر الترف في عهده :

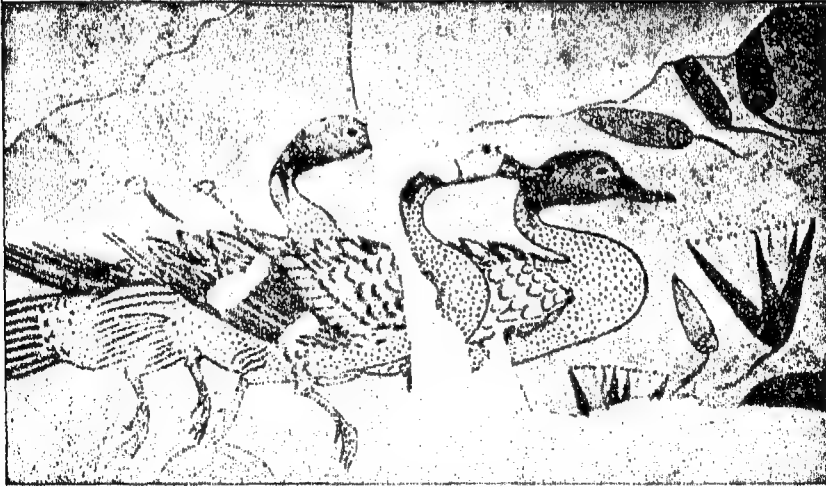
وتزوج أمنحتب من سيدة شهيرة ، تعرف بالملكة تي ، كان لها عليه سلطان كبير ، وبلغ من إكرامه إياها أن أنشأ لها بركة بحيلة للازدهار وعاش معها في قصره الفخم ، في طيبة ، في ترف ونعيم ، تحيط به مظاهر الأبهة والعظمة ، ولم يفتت مومياؤه تبين أنه قضى شطراً من حياته يشكو ألماً في أسنانه ، ولم يعرف الأطباء المصريون إذ ذاك كيف يعالجونه .



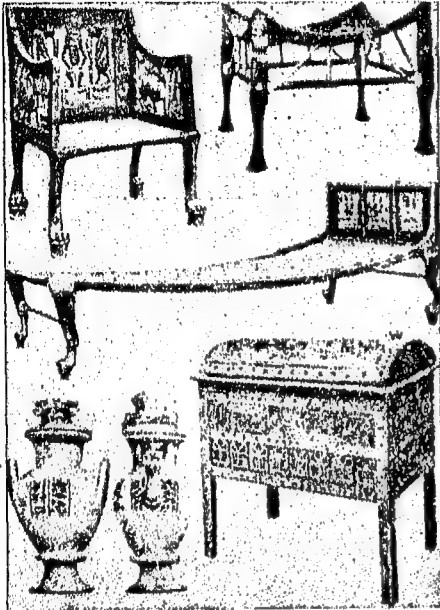
الملكة تي زوجة أمنحتب الثالث ، وعلى رأسها حية مقدسة رمز الملكية

وهذه المناسبة نذكر أن فحص الجمجم والموميات دل على أن أسنان المصريين الأوائل كانت في حالة جيدة ، ثم بدأت تضعف لما ظهر الترف في معيشتهم ، فالأشراف ، الذين عاشوا في عصر بناء الأهرام ، كانوا يشكون من الأسنان الرديئة ، أما الفقراء فكانوا أحسن حالا من هذه الناحية ، وذلك لبساطة طعامهم .

وتدل معيشة الأشراف في عصر أمنتب على رخاء عظيم ؛ فقد كانت جدران



رسم بطعام بين زهر اللوتس — قطعة من أرض قصر أمنتب الثالث



أثاث وجد في مقبرة الملكة تي ، زوجة أمنتب الثالث ،
والصندوق مطعم بالذهب والأبنوس والعاج

سجدهم محلاة بالنقوش الجميلة ، كما
أن أرضها كانت من بلاط ملون ،
تغطيه أنفخ البسط ، أما أثاثها
فكان من طراز بديع مطعم بالعاج
ورصع بالأحجار الكريمة .

وكان الأشراف إذا جلسوا
للطعام يستعملون أباريق وآنية
من الذهب والفضة ، وأكواب
من البلور ، وصحافا من الخزف
المذهب ، بينما كان الموسيقيون
يشنفون أسماعهم بأغانهم
وباللعب على القيثارة وغيرها
من الآلات الموسيقية ، ويقوم
على خدمتهم في أثناء الطعام عدد
كبير من الخدم .

عنايته بالعمارة :

ومما لا شك فيه أن مصر بلغت في عصر أمنحتب الثالث ذروة مجدها ، وكان المال يتدفق إلى خزائن فرعون ؛ فينفق منه الكثير على الإصلاح : فارتقى في زمنه فن البناء والنقش والتصوير ، واتسعت مدينة طيبة اتساعا عظيما ، وكثرت بها القصور الفخمة ؛ والواقع أن القسط الأكبر من الشهرة العظيمة التي نالها أمنحتب الثالث يرجع إلى عنايته بالعمارة .

معبد الإلهة "موت" بالكرك :

زاد أمنحتب الثالث كثيرا في معابد طيبة : فبنى على الشاطئ الشرق للنيل ، إلى الجنوب من معبد آمون بالكرك ، معبدا خاصا للإلهة موت ، زوج الإله آمون ، وحفر إلى جواره بحيرة مقدسة .

معبد الأقصر وطريق الكباش :

وبنى معبدا آخر للإله آمون في الأقصر ، ثم وصل هذا المعبد ومعبد الكرك بطريق أقام على جانبيه تماثيل حجرية لكباش جاثية ، بين أرجلها تماثيل صغيرة للملك ، وكانت تسير بينها المواكب حاملة تماثيل الآلهة في المواسم والأعياد .



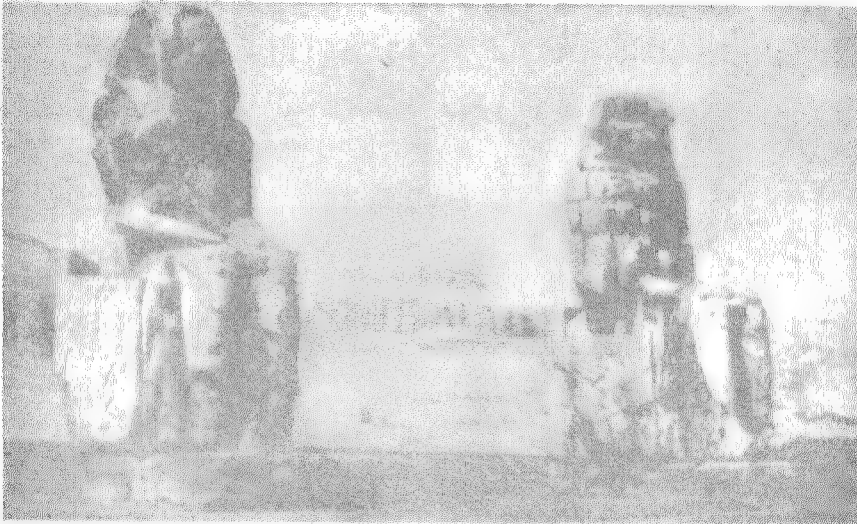
طريق الكباش — معبد الكرك

المعبد الغربي وتمثالا ممنون :

وعلى الضفة الغربية للنيل شيد أمنتب الثالث معبدا هائلا لم يبق منه سوى تمثالين أقامهما تجاه مدخله : أحدهما يمثل ملكا للشمال ، والآخر ملكا للجنوب ،

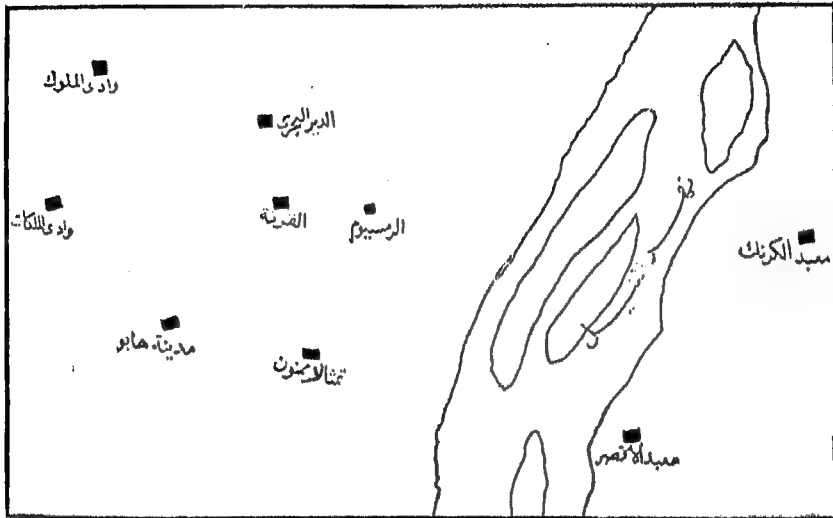


جزء من معبد الأقصر ، أسسه أمنتب الثالث ، وترى هنا بعض الأعمدة التي تحيط بساحة المعبد ، وهي على شكل باقات براعم البردى



تمثالا ممنون

ويزيد ارتفاع كل منهما على عشرين مترا . وقد تصدّع التمثال الأول إثر زلزال حدث سنة ١٢٧ ق.م ، ومنذ ذلك الحين لوحظ خروج نغمة منه ، عند الشروق ، منشؤها تبخر الندى الذى يتجمع داخله فى أثناء الليل ؛ ونسبت الأساطير (الميثولوجيا) اليونانية والرومانية ذلك الصوت إلى ممنون ، وهو من شهداء حرب ترواده وابن اورورا ، أى الشفق ، فجعلته بصورة ذلك التمثال ، وهو بصوته يحيى أمه ، وتجود هى عند سماع هذا الصوت بدموعها اللؤلؤية ، أى الندى ، ولذا فالتمثالان يعرفان بتمثالى ممنون . وتشاهد على التمثال الشمالى ، لاسيما على ساقه اليسرى ، نقوش يونانية خطها السباح اليونان ، الذين زاروا مصر فى عهد الرومان لسماع ذلك الصوت الموسيقى ، الذى كان ينبعث منه كل صباح . ويروى عن الامبراطور هادريان أنه ، فى سنة ١٣٠ م ، قضى عدّة أيام فى طيبة مع زوجته وحاشيته لسماعه . وقد بطل خروج هذا الصوت منذ أصلح أحد الأباطرة الرومان بناء الأجزاء العليا من التمثال .



خريطة تخطيطية لمدينة طيبة تبيّن مواقع أهم آثارها

الفصل الثالث

الانقلاب الدينى

١٣٧٠ — ١٣٤٠ ق. م.

امنحتب الرابع "إخناتون"

صفاته :

تولى بعد امنحتب الثالث ابنه امنحتب الرابع ، وله من العمر خمسة عشر عاما ، ولم يكن مغرما كأبيه بالحرب أو مولعا بالصيد ، ولكنه كان شاعرا خياليا ، ومصلحا دينيا ، حكم مصر حوالى سبعة عشر عاما ، وكانت زوجته ، الملكة نفرتيتى ، أميرة نادرة الجمال ، وكان يقضى معها ومع أمه الملكة فى ساعات طوالا فى مناقشات فلسفية .



إخناتون

ديانة قرص الشمس :

كانت عبادة آمون عقيدة مصرية بحتة ، تقوم على رموز وإشارات لا يفهمها سكان البلاد المختلفة ، التى تكوّنت منها الإمبراطورية المصرية ، ولا أولئك الذين نزحوا إلى مصر واختلطوا بأهلها وصاهروهم .

وكان من الضرورى إذاً لهذه الشعوب المتباينة من دين أعم وأقرب إلى الفهم من دين آمون ، فاقبّس امنحتب الرابع عبادة الشمس فى شكل مادى محسوس فثّل إلهها فى صورة قرص تخرج منه أشعة ينتهى كل منها بيد آدمية توزع الضوء والحرارة على الناس .

أصل ديانة آتون :

ولست هذه الديانة الجديدة — وتسمى ديانة آتون — من ابتكار أممنتب الرابع ، فقد ظهرت في عهد الملك تحوتمس الرابع ، الذى تزوج من ابنة ملك ميتانى ، أى في الفترة التى عظم فيها النفوذ الآسيوى في مصر وظهرت الحاجة ماسة إلى وجود دين عام يفهمه المصريون والأجانب على السواء ، ونمت ديانة آتون في عهد أممنتب الثالث ، فأبدى ولعا خاصا بها ، حتى أطلق اسم ”مجد آتون“ على القارب الذى كان يتنزه فيه مع زوجته في البحيرة التى حفرها على مقربة من قصره بطيبة .

أممنتب الرابع وديانة آتون :

ثم انتشرت هذه الديانة في أول عهد أممنتب الرابع انتشارا سريعا ، وذلك لسببين : أحدهما شخصي ، وهو تحمس الملك لهذه الديانة ، والآخر سياسى ، وهو أن كهنة آمون أخذوا يزيدون من نفوذهم الدنيوى حتى أصبحت لهم سلطة كبيرة في الحكومة ، ونخرجوا بذلك عن مهمتهم الدينية الأصلية .



أخناتون مع زوجته وأطفاله

ولما كان في هذا ضرر للحكم وإفساد للنظام فقد رأى أممنتب الرابع أن خير وسيلة لإضعافهم هى إبطال عبادة آمون ، وترك مدينة طيبة ، موطن هذه العبادة . وقد نفذ ذلك فعلا في السنة الرابعة من حكمه ، فأعلن أن ليس هناك إلا إله

واحد يسيطر على العالم بأسره ، وتمثل قوته في قرص الشمس المضيء ”آتون“
ولما لاحظ أن اسم أمنحتب معناه ”راحة آمون“ كره سماعه وكره نقشه على الآثار ،
بفعل اسمه إخناتون ومعناه ”بهاء قرص الشمس آتون“ ، وحزّم عبادة إلهه الجديد
في شكل تماثيل ، إذ قال إنه كائن في كل شيء ، ولذا لم يصنع لهذا الإله تماثيل
قط ، ونظم إخناتون الأناشيد لإلهه ، وإليك أمثلة منها :

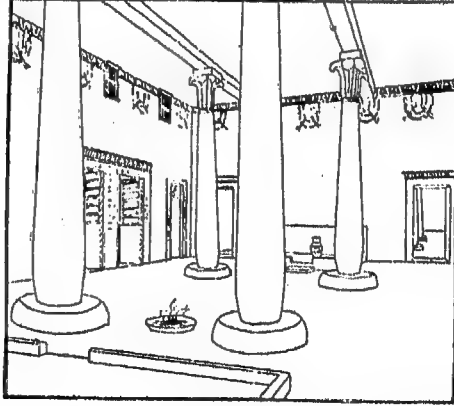
”حين تستريح ، تصير الأرض في ظلام كأنها ميتة : فالناس ينامون في غرفهم
ولا ترى عين من عيونهم أخرى ، وربما تُسرق أمتعتهم من تحت رؤوسهم دون
أن يحس بذلك أحد منهم ؛ وإذا ذاك تخرج الأسود من كهوفها ، والثعابين
من أوكارها ؛ فالأولى تفترس ، والثانية تنهش ؛ ويعم الظلام ، فيمسي العالم كأنه
فرن مظلم ، وتصمت الأرض صمتا تاما . ولكن حين تقذف بسهامك ، يتمزق
الظلام ، فيستيقظ الناس وينهضون على أقدامهم ، وإنما أنت الذى تنهضهم ، ثم
يغسلون أعضائهم ، ويعبدون بأيديهم إشراقك ، ثم تأخذ الأرض جميعها في العمل“ .

”ما أكثر الأشياء التى خلقتها : بإرادتك خلقت الأرض والإنسان والحيوان
وجميع المخلوقات الصغيرة ، وكل ما يمشى على رجليه أو يطير بجناحيه ، وكذلك
خلقت أرض سوريا وبلاد النوبة ، فضلا عن أرض مصر“ .

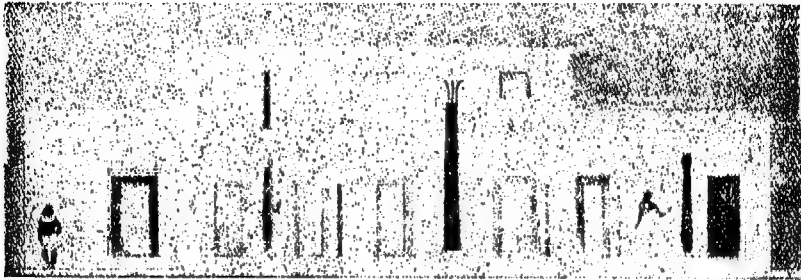
مدينة اخيناتون (تل العمارنة) :

هجر الملك طيبة وبنى إلى الشمال منها ، على الشاطئ الشرق للنيل ، عاصمة
جديدة سماها ”اخيناتون“ ومعناها أفق قرص الشمس ، وموقعها الآن بلدة
تل بنى عمران ، الشهيرة بتل العمارنة ، شرق النيل تجاه محطة دير مواس ، بمديرية
أسيوط ، وقد بنيت كل مبانيها من اللبن ، فقامت فيها المعابد المكشوفة للإله
آتون ، ودواوين الحكومة ، ودور سجلاتها ، والجامعة ، وكانت تسمى في اللغة
المصرية القديمة ”بيت الحياة“ ، وكان للملك في هذه العاصمة ثلاثة قصور ، يقع
أكبرها في شمالها ، وبيت للوزير يحوى ثلاثين حجرة ، وقصور للأشراف والكهنة ،
وبيوت صغيرة لأصحاب المهن والحرف . واحترق المدينة ثلاثة شوارع رئيسية ،
سارت في موازاة النهر ، كذا حارات ضيقة متعرجة . وامتدت سوقها من وسطها
إلى حافة النهر ، وإلى الخلف منها بنيت مخازن الغلال ، وتليها المقابر ، وقد نحت

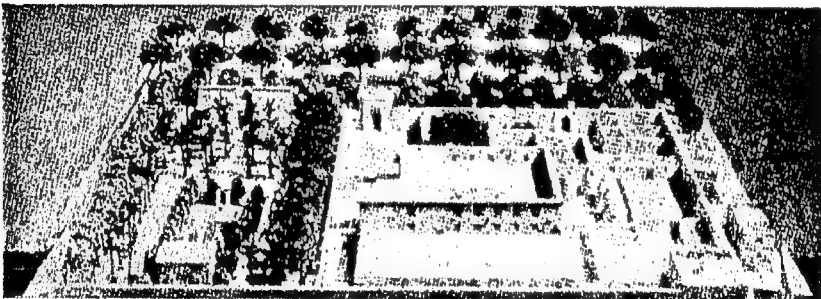
في الصخور في جهتين بعيدتين ؛ وقامت إلى جوارها معابدها الجنازية ، وعلى مقربة من هذه بنيت مساكن خدام المقابر وحراسها ، وخططت تخطيطا



صورة تكوينية لبית وزير في تل العمارنة ، كانت الأعمدة الأربعة مصنوعة من الخشب وتقوم على قواعد بيرية تدل بقاياها على أنها كانت مدهونة باللون الأزرق

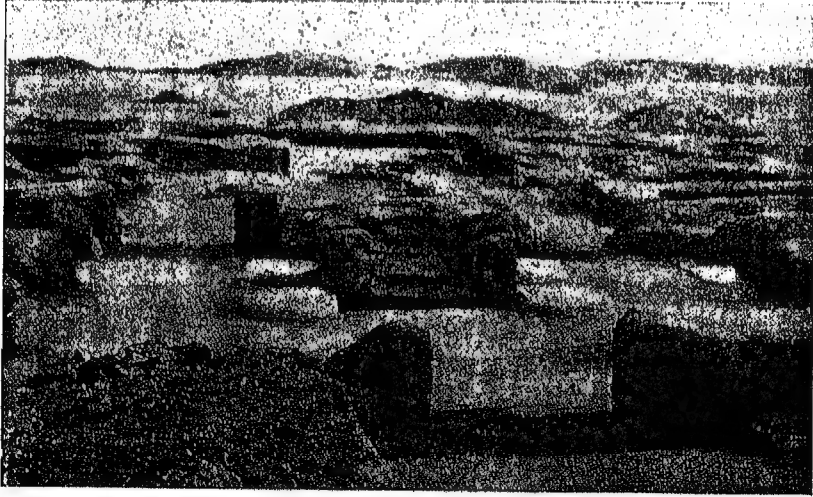


بيت في تل العمارنة كما كان أيام اخناتون



بيت نبيل في تل العمارنة ، وقد ظهرت فيه حديقة ومخازن غلاله

دقيقا ، فكان عددها ٧٢ منزلا ، كلها متشابهة تشابها يكاد يكون تاما وقائمة في شوارع مستقيمة .

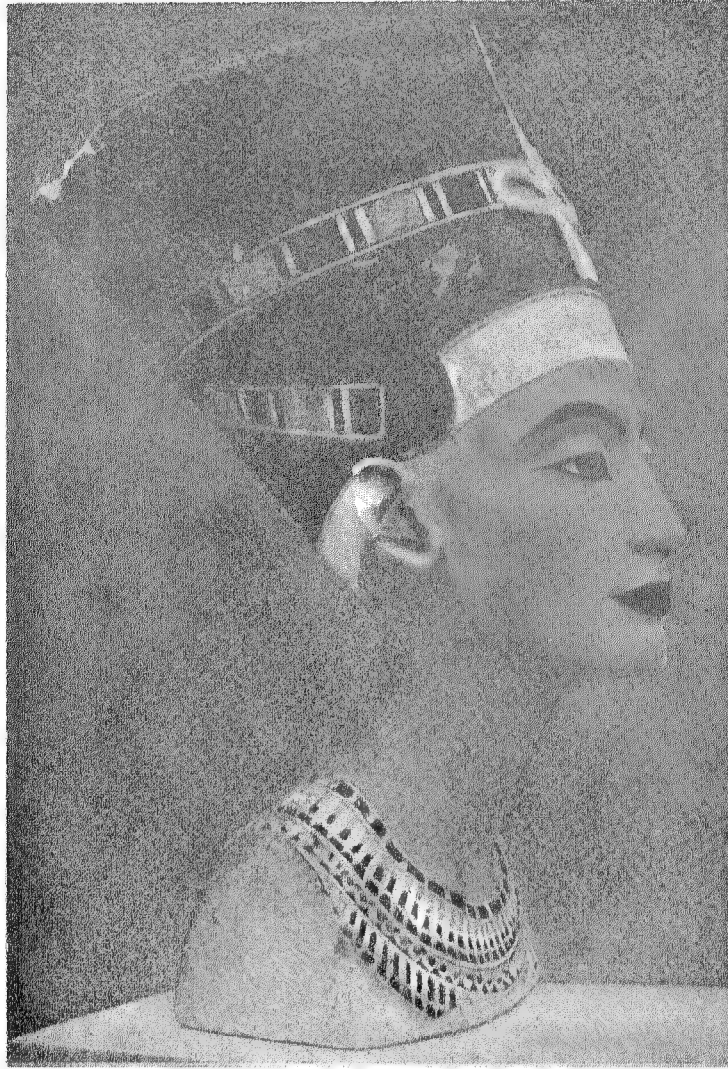


بقايا هو الاستقبال في قصر في تل العارنة

ولما بنيت العاصمة الجديدة ، أعلن أمنحتب الرابع أنه لن يتركها قط ، وأنه سيكرس نفسه لتعليم الديانة الجديدة للناس ، ولعبادة إله واحد، هو "آتون" . وذهب به تمسه إلى سن قوانين يحرم بها عبادة الآلهة القديمة في جميع أرجاء الإمبراطورية المصرية ، فحسر الكهنة بذلك مصدر ثروتهم ونفوذهم وأغلقت معابدهم .

تفكك الإمبراطورية المصرية :

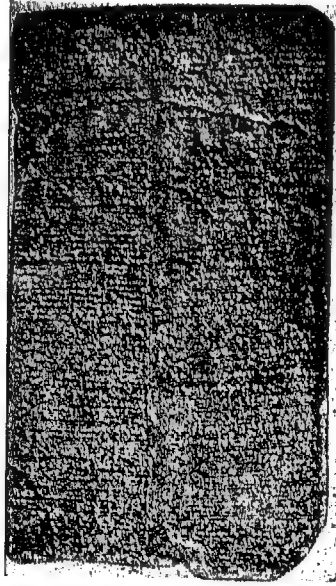
ولما أدرك سكان آسيا الصغرى والشام أن فرعون مصر قد أصبح معلما دينا ، لارجل حريبا ، قاموا بالثورات في بلادهم ، فبعث الاوفياء من حكامهم إلى إخناتون يطلبون النجدة ، لكنه اكتفى بالرد على رسائلهم دون أن يسعفهم بالمدد الحربي ، وكانت النتيجة أن خسرت مصر معظم أملاكها في آسيا ، كما فقدت الثروة الهائلة التي درتها عليها الجزية التي كانت ترد إليها بانتظام من أتباعها منذ سنوات .



نمات الملكة نفرتيتي

رسائل تل العمارنة :

وقد عثر ، في سنة ١٨٨٦ ، ببلدة تل العمارنة على كثير من هذه الرسائل ، وهي عبارة عن قوالب من الطين مكتوبة بالخط المسماري البابلي ^(١) .



نموذج من رسائل تل العمارنة

نفرتيتي والانقلاب الديني :

ولم يكن إخناتون وحده متحمسا لهذا الانقلاب الديني فقد ساعدته زوجته الملكة نفرتيتي ، وكانت أكثر منه ميلا للدين الجديد وأشد تعلقا به . والظاهر أن الملك ، في أواخر عهده ، ترك العقيدة الجديدة ، وحاول إرضاء كهنة آمون فغضبت لذلك زوجته نفرتيتي وهجرته ، وعاشت وحدها في قصر نخم ، قام في أقصى أطراف المدينة من جهة الشمال ، وأطلقت عليه اسم ” قصر آتون “ .

(١) كانت هذه المراسلات تنقش على قوالب من الطين بقلم من المعدن ، ذى قطاع مستطيل ، ثم تحرق القوالب ؛ وكانت الرسالة توضع داخل مظروف من الطين يحرق أيضا ، ولا بد من كسره قبل فض الرسالة .

خلفاء إخناتون

الملك توت عنخ آمون

توليته :

أشرك إخناتون معه في الحكم ، منذ هجرته نفرتيتي ، زوج ابنته الكبرى ،
إذ لم يكن له أولاد ذكور ، ثم مات إخناتون ، بعد ذلك بثلاث سنوات ، ولم
يعمر صهره ، خلفه توت عنخ آمون ، زوج ابنة إخناتون الثانية .

تركه ديانة آتون :

ظل توت عنخ آمون يسكن تل العمارنة ثلاث سنوات ، بقي مخلصا في أثنائها
للذهب الآتوني ، ثم ترك هذه المدينة بعد حادثة لا نعرفها ، ولعله لم يستطع
مقاومة كهنة آمون نظرا لصغر سنه ، وقصد طيبة ، حيث هجر ديانة آتون ،
وقدّم ولاءه لكهنة آمون ، ومنذ ذلك الوقت عُرف باسم توت عنخ آمون .

طيبة في عهده :

عاد إلى طيبة عنزها ورخاؤها بعودة الملك وحاشيته إليها ، ففتحت المعابد
وأصلحت .

حروبه :

أرسل توت عنخ آمون جيشا إلى فلسطين ليحارب أعداء مصر ويدرك عن بلاده
خطر الغزو الأجنبي .

مقبرة توت عنخ آمون :

ولما مات توت عنخ آمون دفن في مقبرة بوادى الملوك ، الواقع بين تلل
غربي النيل تجاه الأقصر ، وهو الوادى الذى اتخذهُ
ملوك مصر مقرا لمدافنهم مدى خمسةة عام ، وتمتد
هذه المقبرة مسافة ستة عشر مترا فى جوف الصخر ،
وتبلغ مساحتها ستة وتسعين مترا مربعا ، ونظرا لصغر
حجمها يرجح أن توت عنخ آمون مات فجأة ، قبل
أن تعدله مقبرة عظيمة كآسلافه ، فدفن فى المقبرة
الصغيرة التى يَحمَل أنها كانت معدة لرئيس وزرائه ،
الذى خلفه على العرش .



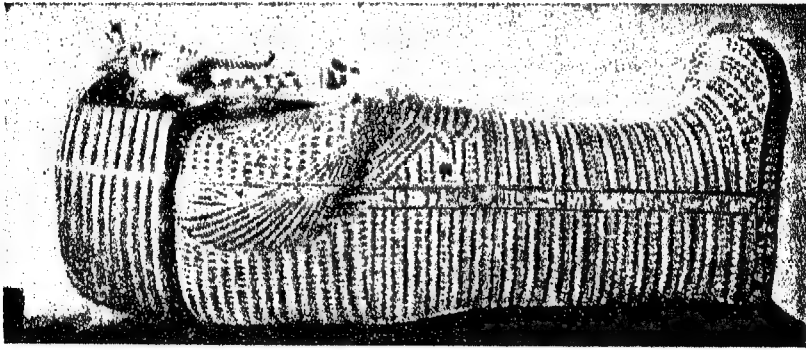
توت عنخ آمون

كشف المقبرة سنة ١٩٢٢ :

وقد كُشِف عن هذه المقبرة مستر هوارد كارتير ، فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ ،
بعد أن ظَلَّت مجهولة ٣٠٠٠ سنة ، ولوحظ أن الطريق المؤدى بين بابها الخارجى
وبابها الداخلى كان مسدودا بالأحجار ، حرصا عليها من عبث اللصوص بها ، إلا أن
اللصوص استطاعوا أن يَسلُوا إليها عن طريق فجوة حفروها خلال الأحجار
الموجودة بين البابين ، وبعد أن حملوا من الصناديق المحفوظة بالمقبرة بعض
كنوزها تركوا كل شىء مبعثرا ، إذ كشفت السرقة على الفور ، ودخل المقبرة خدم
فرعون وحاولوا أن يُرتَبِّوها من جديد ، وسدّوا الفجوات التى نقبها اللصوص
وردموا بابها وحاولوا إخفاءه ، واندثرت معالمه بمرور الزمن ، وبُنيت فوقه
أكواخ لعمال كانوا يشيدون مقبرة لفرعون آخر فنيا بعد .

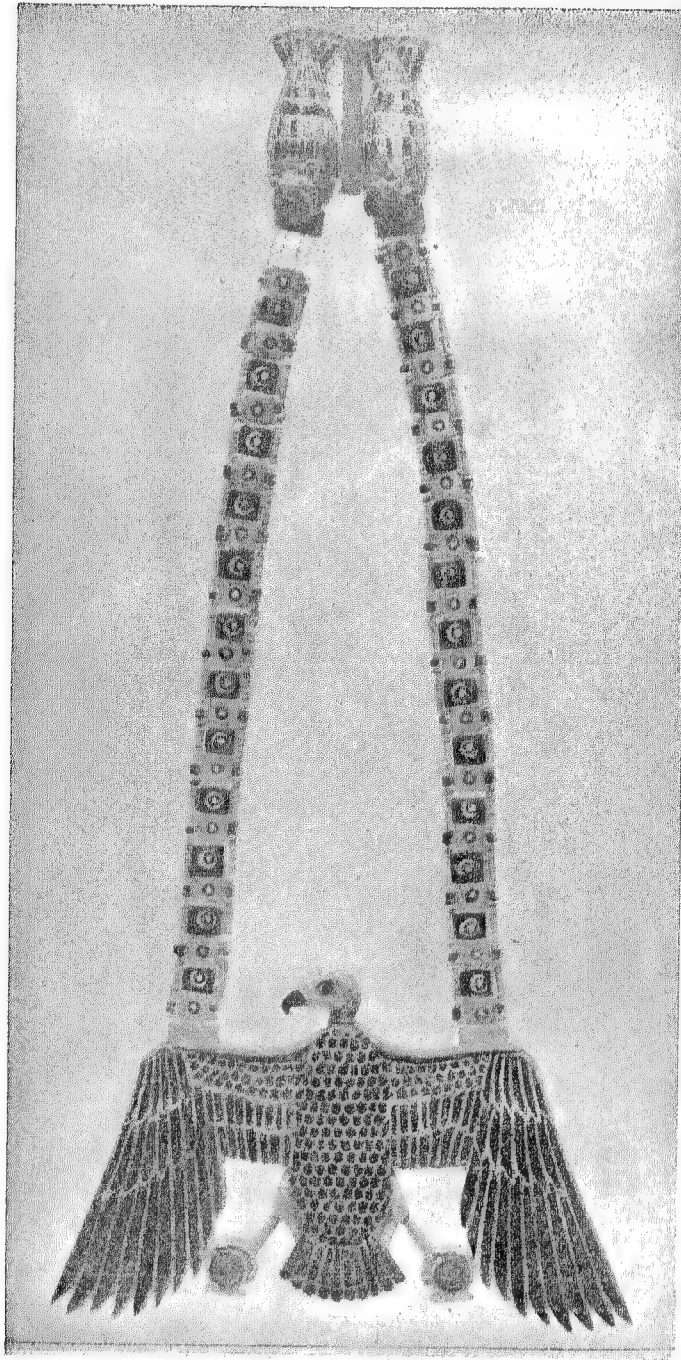
محتويات المقبرة :

وعند ما ألقى مستر هوارد كارتر ومموله اللورد كارنارفون النظرة الأولى على داخل المقبرة عرتهما الدهشة، لما كان بها من كنوز ثمينة ، ولكنهما وجدا السرر والعروش والمقاعد والصناديق والعجلات متراكمة جميعها في حجرة منحوتة من الصخر ، ولاحظا وجود بفتحة استتج منها أن اللصوص لا بد وأن يكونوا قد انسلوا منها إلى الحجرة الداخلية ، فلما ألقيا عليها شعاع النور الكهربائي رأيا كل شيء مبعثرا ، لأن اللصوص رموا بمحتويات الصناديق ، بينما كانوا يبحثون عن الحلوى وغيرها من الأشياء المصنوعة من الذهب والفضة مما يستلهم عليهم حمله .



ثاني التوابيت الثلاثة التي وضعت بها مومياء توت عنخ آمون

وقد عثر في المقبرة على تابوت من الذهب الصلب يحوى مومياء الملك ، وإذا صهر هذا التابوت وبيع فإن ثمنه يبلغ أن بعين ألف جنيه ، أما قيمته من الوجهة الأثرية فلا تقدر بمال ؛ وكان هذا التابوت الذهبي موضوعا داخل تابوت آخر من الخشب ، غطى سطحه بصفائح من الذهب وطُعم بزجاج متعدد الألوان ، ثم وضع الأخير بدوره داخل تابوت ثالث ، يشبه التابوت الذهبي ، لكنه صنع من الخشب وغطى بالذهب ؛ وقد وضعت هذه التوابيت الثلاثة المتداخلة على سرير من الخشب المذهب داخل تابوت من الحجر .



قلادة لملك توت عنخ آمون

وقد نقلت هذه التوابيت مع غيرها من الأشياء الكثيرة التي وجدت بالمقبرة إلى المتحف المصرى بالقاهرة. وتعطينا كلها فكرة واضحة عن ترف ملوك الأسرة الثامنة عشرة وأمرائها، كما تشهد دقة صناعتها وجمالها بمهارة صناع ذلك العصر.



بوق توت عنخ آمون
المصنوع من الفضة



بوق توت عنخ آمون
المصنوع من البرونز

الملك آى

تولى بعد موت عنخ آمون الملك الكاهن "آى" وحكم مدة قصيرة، لا تزيد على ثلاث سنوات.

حار محب

نشأته :

ينتسب حار محب إلى عائلة قديمة من الأشراف ، وكان في الأصل قائدا من قواد إخناتون ، أرسله في أواخر عهده إلى آسيا ، فاستطاع بمهارته وحذقه أن يحافظ على فلسطين لمصر ، ولا شك في أن شهرته الحربية أكسبته سلطة كبيرة في البلاد وأغدى عليه إخناتون وخلفاؤه الألقاب والمنح ، فكان الحاكم بأمره في عهد الملك آي ، وفضلا عن ذلك فاز حار محب بحجة كهنة آمون بطيبة ، لأنه أدرك خطر ديانة آتون على البلاد ، فتوَدّد إليهم وعمل على إرضائهم .



حار محب

توليته :

ولما مات آي الضعيف اعتلى عرش مصر بسهولة ، وتزوج من سيدة تنتمي إلى الأسرة المالكة ، كي يكسب توليته صبغة شرعية .

محو آثار ديانة آتون :

عزم حار محب على تنظيم بلاده ، فوجه عنايته أولا إلى محو كل آثار ديانة آتون ، فهدم هياكلها ، وأعاد اسم آمون إلى كل مكان . وليس من شك في أن اضطهاده للآتونية كان سببه سياسيا أكثر منه دينيا ، فلم تكن الدعوة إلى ديانة آمون سوى وسيلة يستعان بها على صرف النظر عن كونه ليس من دم فرعوى .

إصلاح الإدارة :

ولم يقتصر حار محب على هدم أعمال سلفه ، بل عمل على إصلاح الإدارة في البلاد ، بعد أن اعتورها الفساد منذ عهد إخناتون ، حين انتهز حكام الأقاليم انشغاله بأبحاثه الدينية فراحوا يبتزون الأموال من الفقراء ، وانتشرت الرشوة بينهم ، وفشا الاختلاس ، ف قضى حار محب على هذه المساوئ كلها ، وسن قانونا صارما لمعاقبة الموظفين المالين والإداريين ورجال القضاء الذين يخرجون عن سلطتهم ويضطهدون الشعب ، وطاف بنفسه في أنحاء الإمبراطورية حتى يتحقق من تطبيق هذا القانون ، وكانت تحدوه في كل ذلك الرغبة الصادقة لضمان رفاهية أهل مصر وسعادتهم .

والواقع أن الإصلاحات التي قام بها حار محب لترقية الإدارة لا تقل في أهميتها عن أعمال الفراعنة الفاتحين ، أمثال تحوتمس الثالث .

أهمية الأسرة الثامنة عشرة :

وبموت حار محب انهار صرح الأسرة الثامنة عشرة ، التي امتازت في العالم بعظمتها ومجدها ، وحكمت مصر قرنين ونصفا ، ويكفيها نفرا أنها بدأت عصرها بطرد الهكسوس ، وأسست أقدم امبراطورية شرقية عرفها التاريخ ، وأنتجت أفكارا دينية سامية ، وأحسنّت إدارة البلاد .

الفصل الرابع

الاسرة التاسعة عشرة — استئناف الفتح والاستعمار

١٣٢٠ — ١٢٠٠ ق.م

رمسيس الأول

توليته :

تولى رمسيس الأول الحكم بعد حارمب ، وأسس الأسرة التاسعة عشرة ، وكان رجلا طاعنا في السن ، فلم يدم حكمه سوى عامين . ولسنا نعرف بالضبط العلاقة بينه وبين حارمب ، ولكن يغلب على الظن أنه كان صاحب حق في وراثة العرش الفرعوني ، إذ لم يكن من السهل على شيخ مثله الاستيلاء على الملك بسهولة في تلك الأزمنة ، كذلك لم يقترن انتقال الحكم من أسرة إلى أخرى باضطراب ما . ويتنسب الملك الحديد إلى أسرة قوية من بلدة تانيس (صان الحجر ، مركز فاقوس مديرية الشرقية) .

تأسيسه هو الأعمدة بالكرنك :

لم يقم رمسيس الأول بشيء يستحق الذكر ، اللهم إلا أنه بدأ في تشييد بهو الأعمدة العظيم بالكرنك ، ولكن عاجلته المنية ، فأتمه خلفاؤه من بعده ، وكان أولهم ابنه سيتي الأول .

سيتي الأول

حروبه :

حكم سيتي الأول مصر أكثر من عشرين عاما ، حارب في أثناءها فلسطين والشام ، وزحف شمالا على الحيثيين ، وكان هذا أول التحام بينهم وبين مصر ، فهزم فرعون جيوشهم ، وعقد مع ملكهم معاهدة ودية . كذلك حمى سيتي الأول مصر من الليبيين الذين كانوا يغيرون على الدلتا .

عدله :

وعنى سيقى الأول مثل حارمب بالأصلاح الداخلى ، فذشر العدل بين الرعية ،
وعاقب الموظفين الذين أساءوا استعمال سلطتهم .

معبد أبيدوس :

ولسيتى الأول معبد عظيم فى أبيدوس (العرابة المدفونة ، مركز البلينا) ، دون
على جدرانہ أسماء الملوك ، الذين حكموا مصر قبله ، ابتداء من الأسرة الأولى .

بهو الأعمدة :

وبنى سيقى أيضا جزءا كبيرا فى بهو الأعمدة العظيم ، الذى أسسه أبوه فى الكرنك
ونقشه بالرسوم البديمة التى تمثله متحصرا فى حروبه ، ولكنه مات قبل أن يتمه .



حجرة التابوت فى مقبرة سيقى الأول بوادى الملوك

مقبرة سيتي الأول :

دفن سيتي الأول في مقبرة بوادي الملوك ، جدرانها مزخرفة بنقوش دقيقة بارزة ، ولها دهليز يؤدي إلى قاعة ذات أعمدة ، احتفظت نقوشها بالوانها الزاهية ، وفي وسطها مكان منخفض لوضع تابوت الملك ، وللقاعة قبة رُسم عليها بلون أزرق مصور للسماء والنجوم .

رمسيس الثاني

حكمه :

وتولى بعد سبتي الأول ابنه رمسيس الثاني ، ويعرف برمسيس الأكبر ، وكان آخر الفاتحين العظام ، حكم مصر مدة لا تقل عن سبعة وستين عاما .



رأس تمثال لرمسيس الثاني

حروبه مع الحيثيين :

رأى رمسيس أن الحيثيين أغاروا على معظم الشام ، وكان يطمع في إعادة الامبراطورية المصرية ، كما كانت في عهد تحوتمس الثالث ، فبدأ في السنة الرابعة من حكمه ، بإخضاع الساحل الفينيقي ، ليتخذ قاعدة حربية لحركاته المقبلة ، كما فعل تحوتمس الثالث من قبل ، ونقش على صخر يطل على نهر الكلب ، على مقربة

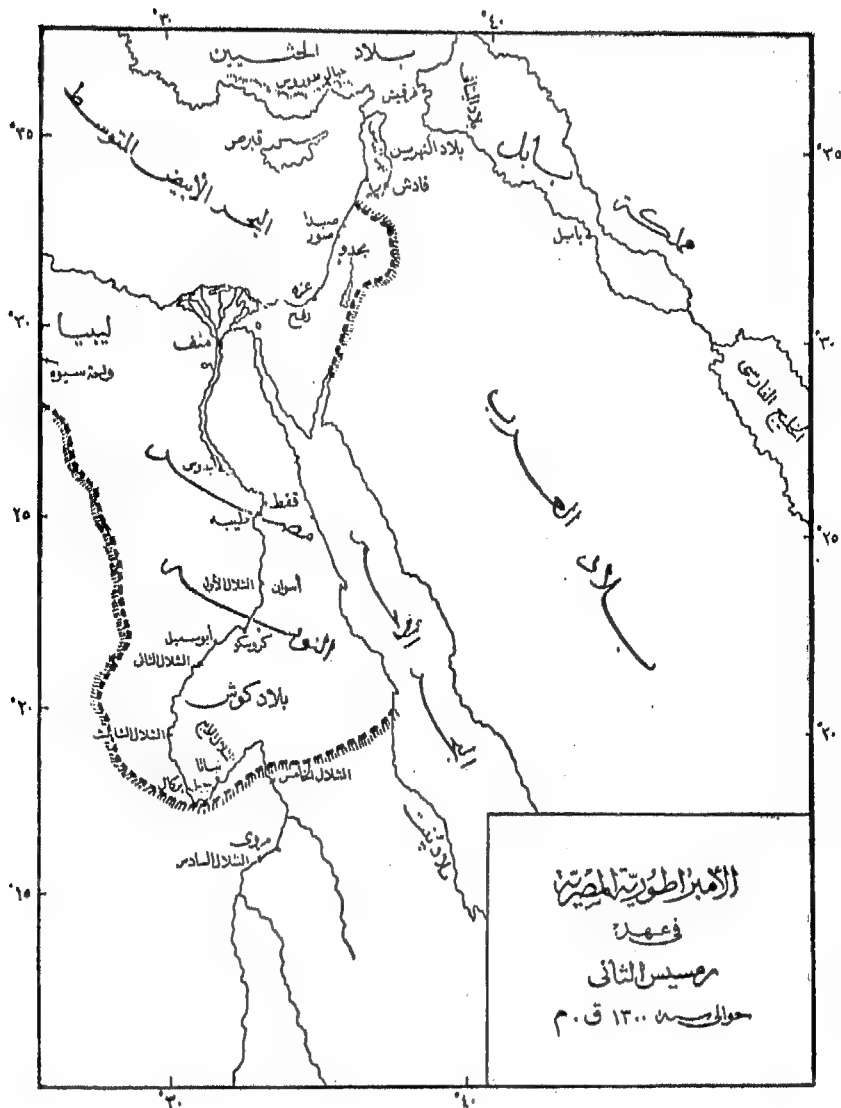
من بيروت ، ما يدل على وصوله إلى ذلك المكان ؛ ثم أُعد في السنة التالية حملة ضد ميتلا ، ملك الحيثيين ، فنقض بذلك المعاهدة التي عقدها سيتي مع الملك السابق ، منذ خمس عشرة سنة . على أن ملك الحيثيين كان قد استعد لهذا الهجوم ، فألف حلفاً قوياً ضد مصر استمال إليه أمراء الشام ، وجمع جيشاً كبيراً انخرط في سلكه كثير من المرتزقة من آسيا الصغرى وجزائر البحر المتوسط ، وتحصن في قادش المنيع .

معركة قادش :

خرج رمسيس قاصداً قادش بجيش مؤلف من أربعة أقسام ، سُمي كل واحد منها باسم إله من آلهة مصر : أمون ، ورع ، وبتاح ، وست ، وانضم إليه عدد من الجند المرتزقة ، وقاد رمسيس القسم الأول بنفسه ، وبعد شهر وصل إلى نهر الأورنط "العاصي" ، وعسكر فوق ربوة تشرف على الوادي الفسيح ، الذي تقع فيه مدينة قادش وعلى مسير يوم واحد منها ، وهناك وقع في مكيدة دبرها له العدو ، فقد ظهر في معسكره بعد وصوله بأيام بدويان ادعيا أنهما شردا من جيش الحيثيين ، وأوهماه أن الملك الحيثي أخذ يتقهقر شمالاً إلى حلب ، خوفاً من الجند المصريين ، وصدق رمسيس دعواهما فتقدم إلى الضفة الغربية للنهر ، ومعه خيرة جنوده وعجلاته ، ليلحق بالملك الحيثي ، تاركا وراءه الجزء الأكبر من جيشه ليتبعه ، ولكن ظهر أن البدويين غرّابا به ، إذ عبر ملك الحيثيين إلى الضفة الشرقية للنهر ، وزحف جنوباً إلى نقطة استطاع منها أن يرسل إلى الضفة الغربية فرقة هاجمت مؤخرة جيش رمسيس وانتصرت عليها انتصاراً باهراً ، فغضب فرعون لخدعة البدويين وأسأهما لرجاله ، فأزلاهما بهما سوء العقاب ، واعتلى رمسيس



رجال رمسيس يزلون بالبدوين العقاب



على الفور عجّلته ؛ وقاد بنفسه حرسه الخاص وبعض الضباط والجنود القريبين منه ؛ وصمّم على أن يلحق ببقية جنوده ، وأخذ يهاجم الحيثيين مرة بعد أخرى بشجاعة نادرة حتى أنزل في قلوبهم الرعب ، وردّهم إلى النهر ، وكان ملكهم ميتاً واقفاً على الشاطئ الشرقى ، فرأى بعينه غرق أخيه وكثيرين من حاشيته ، وكان من بينهم ملك حلب الذى أنقذه رجاله من الغرق .



رمسيس الثانى يهزم الحيثيين ، ويرى ملك حلب مقتولاً ، ويحاول رجاله تفريغ ما ابتلعه من الماء .
وطارد فرعون الحيثيين حتى مدينة قادش فاحتّموا فيها ، ويقال إنهم أرسلوا رسولا يطلب الصلح ، فوافق رمسيس على ذلك ، وعاد إلى مصر دون أن يستولى على قادش أو يحاول حصارها .

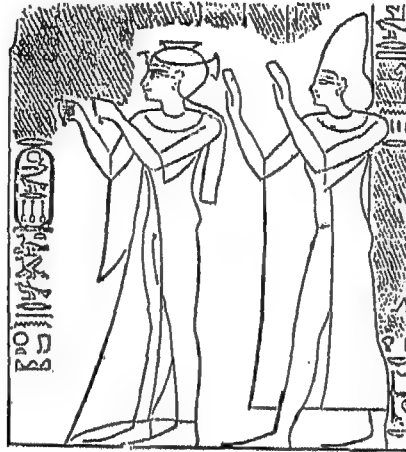
الحيثيون بعد قادش :

عاد الحيثيون يُشعلون نار الفتنة والثورة فى فلسطين ، ويبثون القلاقل فى مستعمرات مصر الآسيوية ، فاضطر رمسيس أن يقود حملة إلى فلسطين ، ولكنه لم يخضعها إلا بعد ثلاث سنوات ، واصل بعدها حربه ضد الحيثيين إلى أن مات ملكهم ميتاً ، وخلفه الملك خيتاسار .

الصالح بين رمسيس الثانى والحيثيين :

فاوض خيتاسار رمسيس فى الصالح ، وانتهى الأمر بإبرام معاهدة^(١) تحالف وصداقة بين الملكين سنة ١٢٧٨ ق.م. ، ودعاهما إلى ذلك : نمو دولة آشور فى شمالى العراق ، وخوفهما من مهاجمة الآشوريين لها إذا ما أضعفتها الحرب .

كتبت شروط هذه المعاهدة بالخط المسامرى البابلى ، وترجمت إلى اللغة المصرية ، وكتبت بالهيروغليفية ، ونقشها رمسيس على جدران معبد الكرنك ومعبد الرمسيوم ، وقد حافظ الملكان عليها ، ثم ازدادت العلاقات توثقا بعد إبرامها بثلاث عشرة سنة ، إذ تزوج رمسيس من ابنة ملك الحيثيين ، وأحضرها أبوها خيتاسار بنفسه إلى مصر ، وحضر الاحتفالات الفخمة التى أقيمت بهذه المناسبة ، وقد نقشت أخبار هذه الزيارة على مدخل معبد رمسيس بأبو سنبل ، بمركز الدر مديرية أسوان .

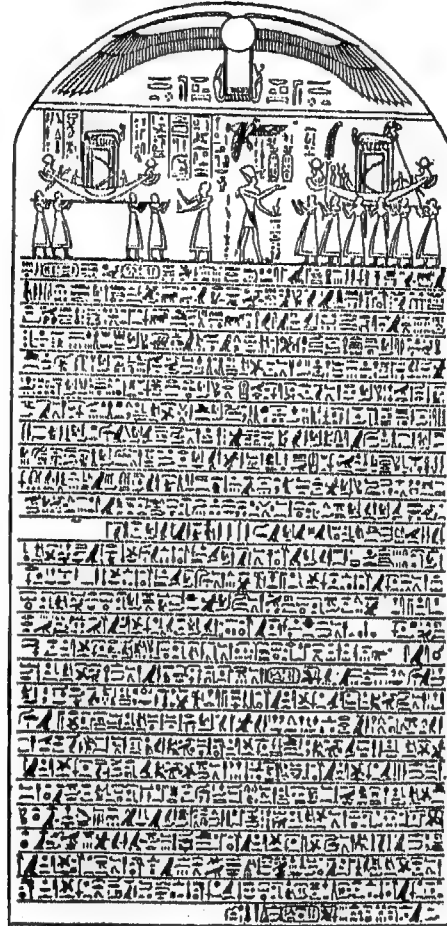


حضور الأميرة الحيثية مع أبيها إلى مصر

(١) عثر حديثا على نسخة من هذه المعاهدة فى أطلال بوزاز كوى ، عاصمة الحيثيين بآسيا الصغرى

قصة الأميرة الصغيرة :

نسخ الكهنة عن هذه المصاهرة قصة طريفة تداولها الناس جيلا بعد جيل ، ولكنها لم تنقش على الآثار إلا في عهد الرومان ؛ جاء في هذه القصة أن حما فرعون طلب إرسال تمثال المعبود خنسو ، إله القمر بطيبة ، إلى مدينة يخنن ، على مقربة من الفرات كي يطرد الأرواح الخبيثة التي حلت في بنته الصغرى أخت ملكة مصر ، وكان لإله القمر فيما يزعمون قدرة على طرد شياطين البر والبحر وقد أجاب رمسيس ملتمس صهره وأبلى الأميرة من مرضها بفضل التمثال !!



لوح عليه قصة الأميرة الصغيرة

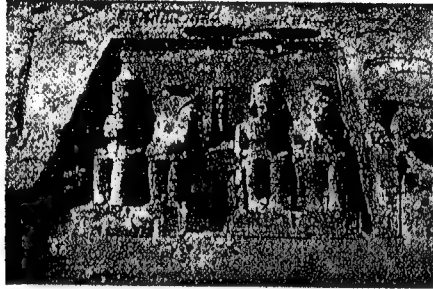
وعلى الرغم مما حوته هذه القصة من أشياء لا يقبلها العقل ، فإنها تدل على العلاقات الطيبة التي قامت بين مصر والحثيين ، بعد زواج رمسيس من الأميرة الحثية ، كما تبين بعض ما كان يعتقد المصريون القدماء .

ولع رمسيس بالعمارة :

فاق رمسيس الثانى امئحئب الئالئ فى ولعه بالعمارة ، حتى أنه محأ أسماء بعض الملوك الذين سبقوه من كئير من المبائى الئى شيدوها ونقش اسمه عليها ، رغبة فى الشهرة وطمعا فى ئخليد ذكراه .

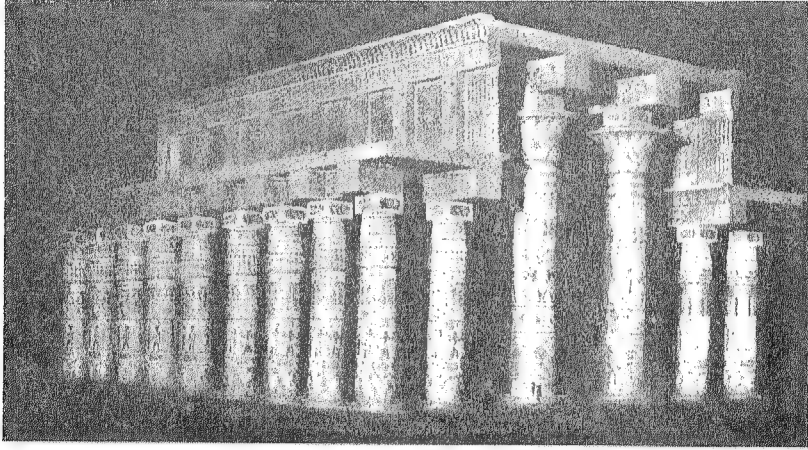
معبد أبو سنبل :

ومن أهم آثاره معبدان نُحُتَا فى الجبل عند ” أبو سنبل “ : أحدهما له ، والآئر لزوجه الملكة نفرترى ، وقد نقش رمسيس على هذا المعبد الأخير عبارة يقول فيها إنه ” للملكة الئى يحبها “ ، كما نقشئ الملكة على المعبد الأول عبارة مماثلة ذكرت فيها أنه ” لزوجهال الذى تحبه “ .



تمائيل رمسيس الئائ وزوجه — معبد أبو سنبل

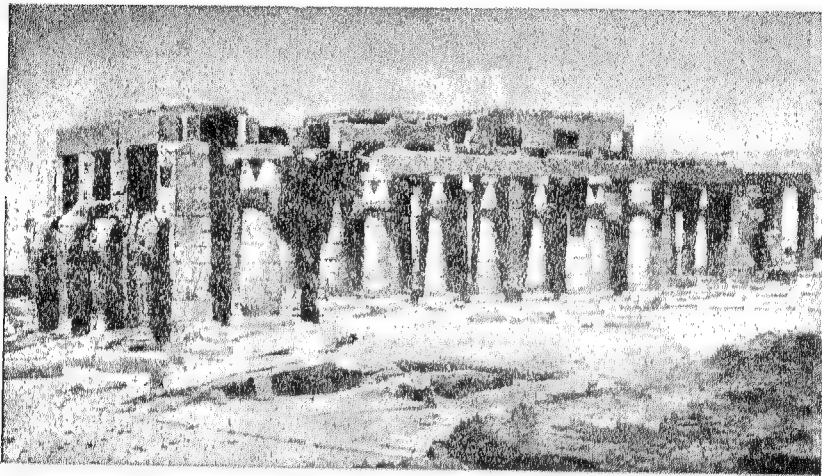
وأقيمت خارج المعبد الأكبر أربعة تمائيل ، يبلغ ارتفاع كل منها ٩٠ قدما ، ائئان منها يمثلائ الملك جالسا ، والآئرأان يمثلائ الملكة جالسة كذلك ، ولم يبق من هذه التمائيل الأربع فى حالة جيدة سوى تمائال واحد .



٢٠٠ الأعمدة بالكرك — كما كان أيام الأسرة التاسعة عشرة

٢٠١ بهو الأعمدة بالكرك :

ومن أهم أعمال رمسيس الثانى أنه أتم بهو الأعمدة العظيم ، الذى بدأه جده
رمسيس الأول بمعبد الكرك ، ويبلغ عدد أعمدة هذا بهو أربعة وثلاثين بعد
المائة ، وهى أضخم عمد بنيت من الحجر فى العالم أجمع .



معبد الرسيم

الرمسيوم :

بنى رمسيس معبد الرمسيوم الهائل على الشاطئ الغربى للنيل ، وكتب على جدرانته وصف حروبه مع الحيثيين ، وأقام أمامه تمثالا من الجرانيت يمثلُه جالسا ، وتبلغ زنته نحو ألف طن ، ولكنه سقط وتهشم بمرور الزمن ، ولا يزال باقيا على هذه الحال .

المسلّات :

كذلك شُغِفَ رمسيس الثانى بإقامة المسلات : فأقام فى تانيس "حصان الحجر" ما يزيد على أربع عشرة مسلة تهشمت كلها ؛ ومن مسلاته واحدة نقلت إلى باريس ، حيث تقوم اليوم فى ميدان الكونكوردي ، وهى إحدى المسلتين اللتين نصبهما فى معبد الأقصر ، ولا تزال الأخرى قائمة به إلى اليوم .



مسلة رمسيس الثانى الباقية بمعبد الأقصر

الفصل الخامس

اضمحلال الامبراطورية المصرية

١٢٣٢-١١٩٠ ق.م

هجرة الشعوب :

وفي أواخر عهد رمسيس الثاني ، حدثت في بلاد البلقان والبحر المتوسط حركة هجرة كبيرة امتد أثرها إلى بلاد الشرق الأدنى ، فتدفق سيل المهاجرين إلى آسيا الصغرى ، وجزائر بحر إيجه ، واليونان ، وليبيا ، ووفد الغزاة جماعات ، معهم نساؤهم وأطفالهم وأمتعتهم ، قاصدين بذلك الاستقرار في بلاد خصبة ، ولكن سيل الهجرة المتواصل كان دائما يدفعهم إلى التجول جنوبا ، وقد أغار المهاجرون على الحيثيين في آسيا ، وجرت بين الفريقين حروب حالت دون تقدم المهاجرين نحو الشام وفلسطين ، ولو أن رمسيس الثاني تدخل في هذا الظرف وقاد حملة حربية إلى آسيا لأبعد هذا التيار الجارف نهائيا عن مصر ، ولكنه كان قد بلغ الثمانين من عمره فلم يعد قادرا على ذلك .

منبتاح

اليبيون ومصر :

لما مات رمسيس ترك لابنه "منبتاح" حلا ثقيلا : ذلك أن سكان ليبيا أخذوا يتسربون إلى مصر ويسكنون على حافة وادي النيل ، عند ما هاجر إلى أراضيهم بعض شعوب البحر المتوسط كالشرادنة ، الذين سميت سردينية باسمهم ، وضائق بهم سبل العيش لقلة مواردهم ، واضطروا أن يحدوا لهم

مخرجاً ، كذلك بحث الغزاة أنفسهم عن موطن خصب يهرعون إليه ، ولم يكن أمام الجميع بلاد أغنى وأخصب من مصر .



منبتاح

منبتاح يصد الليبيين :

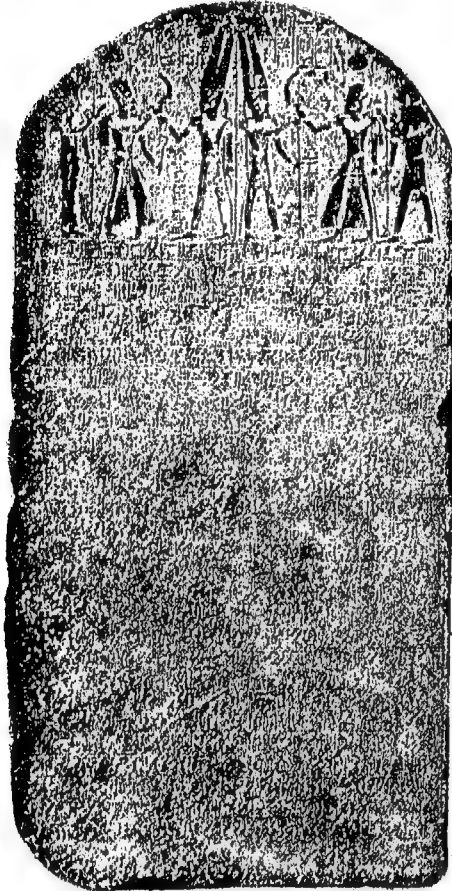
فلما كانت السنة الخامسة من حكم منبتاح ، أغارت هذه الجموع من الليبيين وشعوب البحر المتوسط على الدلتا ، وكان غرضهم فتح مصر للاستيطان بها ، كما فعل الهكسوس من قبل ، فأحضروا معهم زوجاتهم وأطفالهم وماشيهم وتوغلوا في الدلتا حتى وصلوا مكاناً يقع على حدود إقليم النطرون ، في الشمال الغربي من منف .

أدرك منبتاح خطورة الحال ، بجمع جيشه وسار به للملاقاة العدو ، ودارت بين الفريقين موقعة حامية دامت ست ساعات ، وانتهت بانتصار المصريين ، وولى الليبيون وخلفاؤهم الإذبار ، تاركين للمصريين غنائم كثيرة وعدداً كبيراً من الأسرى ، وعاد الجيش الظافر إلى قصر منبتاح يحمل الغنائم على الحمير ، وأطل الملك المسن من شرفة قصره واستعرضها وسط حماسة الجماهير .

لوح إسرائيل :

فرح المصريون بطرد الليبيين ، وأخذوا ينظمون الأناشيد ؛ وأقام الملك
الواحاً تذكارية لهذا النصر في معبد الكرنك وغيره من المعابد المصرية ؛ وقد عثر
على لوحين من هذه الألواح : أحدهما في أتريب ، بالقرب من بنها ، والآخر
في طيبة ؛ ولهذا اللوح الأخير أهمية خاصة ، فإنه ، فضلاً عن إشارته إلى إغارة
الليبيين ، يحوى معلومات عن الحالة في آسيا في عهد منبتاح ، وعن حملة منبتاح
على فلسطين .

وهو محفوظ الآن بالمتحف المصرى ، ويعرف بلوح إسرائيل .



لوح إسرائيل ، وعليه نشيد من الأناشيد التي نظمت فرحاً بانتصارات منبتاح

منبتاح فى آسفا :

وقد جاء فى هذا اللوح أن منبتاح ذهب الى آسفا ، وقهر من نخرجوا على سلطان مصر ومنهم بنو إسرائيل ، الذين أذهم فرعون ، أشار اللوح الى هذا الحادث بما يلى :

” لقد أبىدت إسرائيل واستؤصلت ، وأصبحت فلسطين أرملة لمصر (أى ضعيفة) ، واتحدت البلاد ، وخيم السلام على الجميع ، وأصبح الملك منبتاح يوثق بحباله كل من يثور على النظام “ .

نخرج بنى إسرائيل من مصر :

دعت هذه العبارة بعض المؤرخين الى نسبة نخرج بنى إسرائيل من مصر الى عصر منبتاح ، فقالوا إنه هو فرعون المذكور فى سفر النخرج ، والحقيقة أن هناك أربعة آراء عن نخرج بنى إسرائيل من مصر تتلخص فىما يلى :

(١) يذكر البعض أن بنى إسرائيل هم المكسوس ، الذين نخرجوا من مصر قبل قيام الأسرة الثامنة عشرة .

(ب) ويذكر آخرون أنهم نخرجوا أيام الأسرة الثامنة عشرة نفسها ، إذ أشارت رسائل تل العمارنة الى قوم يعرفون ببدو الخايرى ، أقلقوا الحكم المصرى فى فلسطين ، منذ منتصف حكم أمنحتب الثالث الى آخر حكم إخناتون ، ويرى هذا الفريق أن الخايرى ليسوا سوى قبائل العايرى وهم العبرانيون ، بنو إسرائيل ، ويقولون إن نخرج بنى إسرائيل حدث فى عهد أمنحتب الثانى .

(ج) ويرى فريق ثالث أنهم نخرجوا فى عصر رمسيس الثانى ومنبتاح ، أى أيام الأسرة التاسعة عشرة .

(د) ويؤخر البعض نخرجهم الى أيام الأسرة العشرين .

ولكل رأى من هذه الآراء حججه ، ولكن أكثر الحجج قوة هى الخاصة بالرأين الثانى والثالث .

منتاح يشوّه آثار أجداده :

لم يجد منتاح ، بعد حكم رمسيس الثانى الطويل الذى أنفق فى أثرائه أموالا طائلة على البناء ، ما يكفيه لإشباع رغبته فى هذه الناحية ، أضف إلى ذلك أنه كان مُسنّا لا يريد أن يضيع وقتا فى قطع الأحجار من المحاجر ونقلها إلى طيبة ، كما فعل أسلافه ، لهذا لجأ إلى آثار أجداده فهدهمها وأخذ منها ما يريد من أحجار لمبانيه ، ولم تسلم من ذلك آثار أبيه نفسه .

وفاته :

مات منتاح ، حوالى عام ١٩١٥ ق.م ، بعد حكم دام عشر سنوات ، ودفن فى وادى الملوك بطيبة ، وجثته محفوظة الآن فى المتحف المصرى .

(الأسرة العشرون ١٢٠٠ - ١٠٨٥ ق.م)

حال مصر بعد موت منتاح .

تلت موت منتاح فترة اضطراب ، انقسمت فيها مصر إلى أقسام أو ولايات استقل بكل منها أمير ، وشجع هذا الانقسام الأجانب على غزو مصر ، فد أمير سورى نفوذه على الولايات المصرية واحدة بعد أخرى ، حتى شمل جميع البلاد تقريبا ، ثم هبت روح الوطنية من رقادها ، ورأت مصر العار كل العار فى أن يحكمها أجنبي ، فقامت وخلعت عنها نير هذا الحكم ، بزعامة أمير من نسل الرامسة ، هو ست نخت أوست المتصر ، الذى أسس الأسرة العشرين ، ولكنه لم يحكم سوى سنتين ، ثم خلفه ابنه رمسيس الثالث .

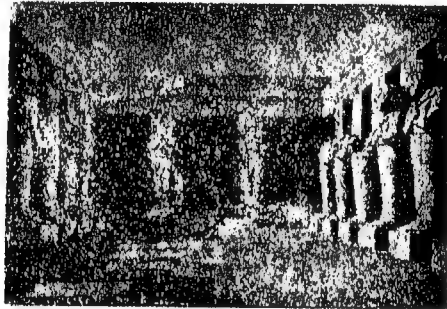
رمسيس الثالث

سياسته :

ورث رمسيس الثالث عن أبيه "ست نخت" نشاطه ، وكان عهده الطويل آخر عهد مجيد في الإمبراطورية المصرية ، وقد وجه عنايته نحو إصلاح الإدارة وتنظيم الجيش حتى يعيد لمصر ما كان لها من نفوذ عظيم في العالم الشرقى ، وينقذها من الخطرين العظيمين اللذين هداها في ذلك الوقت وهما : خطر الليبيين من الغرب ، وشعوب البحر من الشرق .

انتصاره على الليبيين .

أخذ الليبيون ينظمون أنفسهم ، منذ هزيمتهم على يد منبتاح ، ويتطلعون إلى إعادة الكرة على مصر ، فلما كانت السنة الخامسة من حكم رمسيس ، تقدموا نحو الدلتا وتجمعوا عند مكان قريب من الفرع الكانوبى للنيل ، ومن هناك عزموا على أن يواصلوا زحفهم نحو مصر ، ولكن رمسيس خيب آمالهم ، وهزمهم ، وانتقم المصريون لأنفسهم ، فقتلوا كثيرين منهم ، حتى تراكت جثث القتلى بعضها فوق بعض ، ومرت عليها العجلات وداستها الخيل ، وأسر المصريون



ساحة معبد رمسيس الثالث بالكرنك ، وقد ظهر فيها

الملك على هيئة الآلهة أوزيريس

كثيرين استخدموهم بحارة في الأسطول المصرى ، أو حراسا في الحصون المصرية واتخذوا نساءهم وأطفالهم أرقاء لهم ، واستولى رمسيس على ماشيتهم وأهداها إلى كهنة آمون بطيبة .

وقد حاول الليبيون الإغارة على مصر مرة أخرى ، ولكن رمسيس ردّهم ، ولم يجرؤوا بعد ذلك على دخولها بالقوة .

انتصاره على شعوب البحر :

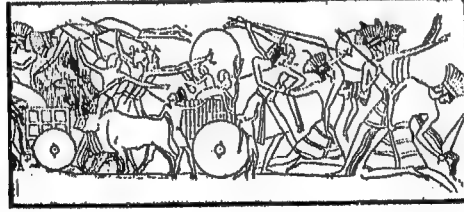
وبعد إغارة الليبيين الأولى بثلاث سنوات ، عاد نشاط شعوب البحر المتوسط فتقدموا إلى آسيا الصغرى ومعهم نساؤهم وأطفالهم ، تحملهم عجلات تجرها الثيران ، واخترقوا ممرات جبال طوروس ، وأغاروا على أملاك الحيثيين ، ولم يستطع هؤلاء صدّهم هذه المرة ، فانهار بذلك آخر حاجز كان يحمى الشام وفلسطين . وانتشر الغزاة في الشام يسلبون وينهبون ، وزحفوا على فلسطين . وكان بينهم شعب الشرادنة ، والبلست المعروفين عند اليهود بالفلسطينيين ، وهم من الشعوب التى هددت مصر برا ، والغالب أنهم من نسل الكريتيين الذين استوطنوا آسيا الصغرى ، وكان لباس رأسهم المصنوع من الريش لا يختلف كثيرا عن اللباس الذى يضعه الهنود الحمر بأمريكا الشمالية .

وفي الوقت نفسه سارت سفنهم حذاء ساحل الشام ، وهكذا تقدم الغزاة نحو مصر متوقعين فتحها بسهولة ، ولكن رمسيس بدد آمالهم ، فحصن حدوده



فلسطينى من شعوب البحر

في الشام ، وأقام الحاميات عند مصبات النيل ، وسار لملاقاتهم ، وهزم قواتهم عند رفح على الحدود المصرية وعند الفرما (بيلوز) ، الواقعة على بعد إثنين وثلاثين كيلو مترا جنوب شرق مدينة بورسعيد ، والفرما ، وانتصر الأسطول المصري على سفنهم في معركة حامية ، قرب مصب النيل الغربي ، وأسركثيرين منهم .



المصريون يهزمون الفلسطينيين

هكذا أنقذ رمسيس الثالث البلاد من إغارة لم يقل خطرها عن إغارة الهكسوس ، إذتقو أن شعوب البحر نجحوا في الاستيلاء على مصر لما كان غريبا أن تحتفى من التاريخ ، كما زالت إمبراطورية الحيثيين بعد ذلك ببضع سنين (١)



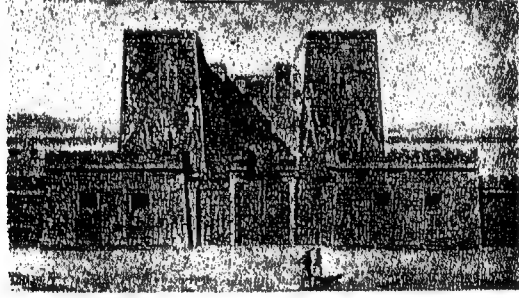
المعركة البحرية — هزيمة الفلسطينيين

معبد مدينة هابو :

بنى رمسيس الثالث في طيبة معبدا جنازيا ، يعرف بمعبد مدينة هابو ، لا يزال جزءه الأمامي في حالة جيدة ، أما الجزء الداخلي فقد اندثر اندثارا تاما . وقد دؤن رمسيس على جدران معبده هذا رسوما بارزة تمثل حروبه ، من بينها نقش

(١) بعد محاولة غزو مصر سنوات قليلة بدأت شعوب البحر تنشر الغارة على مدينة تروادة ، الواقعة في الشمال الغربي من آسيا الصغرى ، وهذه هي الحرب التي خلدتها الشاعر هوميروس اليوناني بقصائده .

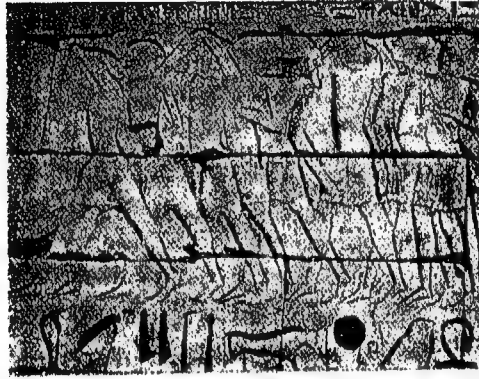
يوضح المعركة البحرية مع شعوب البحر ، وآخر يمثل الأسرى الفلسطينيين وهم
يسرون مكتوفى الأيدى .



معبد مدينة ها بو بطية

ورقة بردى هرس :

وقد ورد ذكر أعمال رمسيس الثالث فى ورقة بردى تعرف بورقة هرس
طولها ١٣٠ قدما ، وهى أكبر وثيقة وصلتنا من الشرق القديم ، وقد كتبت فى عهد
رمسيس الرابع ابن رمسيس الثالث .

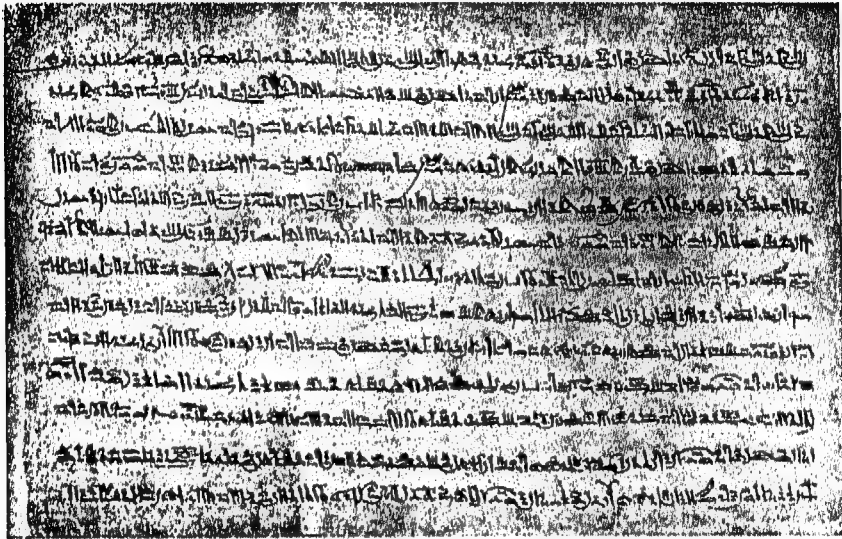


الأسرى الفلسطينيون يسرون مكتوفى الأيدى

أسباب اضمحلال مصر بعد الأسرة العشرين

١ - ازدياد نفوذ الكهنة :

وعلى الرغم من أن رمسيس الثالث أنقذ مصر من الأخطار الخارجية ، فإنه عجز عن مقاومة ذلك الخطر الذي هتدها من الداخل ، ونعني به سلطة الكهنة التي ظلت تزداد يوما بعد يوم ، ولم ير رمسيس بُدًا من أن يسير على نهج سلفه ، فأغدق عليهم الخيرات ، ويتضح ، من ورقة بردى هَرس السالفة الذكر ، أن مُسَبِّح الأراضي الصالحة للزراعة تقريبا كانت ملكا لهم ، وكانت أملاكهم كلها معفاة من الضرائب ، في حين كان العمال المساكين يطالبون بدفعها من أجورهم اليسيرة ، بحجة أن الدولة في حاجة إلى المال ، مما ألجأهم إلى الإضراب عن العمل في كثير من الأحيان .



صفحة من ورقة بردى هَرس المحفوظة بالمتحف البريطاني ، وهي تصف أعمال رمسيس الثالث

٢ — استخدام الجند المرتزقة :

وفضلا عن ازدياد نفوذ الكهنة وما صحبه من إفساد للنظام ، فقد اعتمد رمسيس الثالث على الجند الأجانب ، من متطوعين وأسرى ، ومنهم تكون الجزء



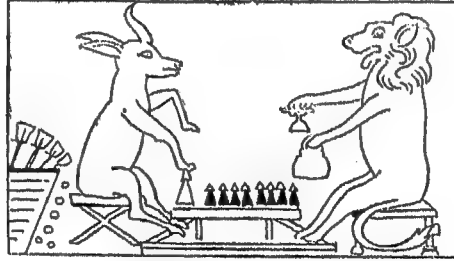
اثنان من الجند المرتزقة الشردانة

الأكبر من الجيش ، كذلك أحاط رمسيس نفسه بحرس من الأرقاء الأجانب من الشام وآسيا الصغرى وليبيا ، واستطاع هؤلاء أن يرتقوا في مناصب الدولة ، كما حدث فيما بعد في تاريخ مصر في العصور الوسطى ، حين استخدم السلاطين عددا من الممالك كان لهم عليهم نفوذ كبير .

٣ — فساد المجتمع المصرى :

من ذلك نرى أن عوامل الانحلال قد أخذت تنخر في جسم الحكومة المصرية ، فهناك كهنة أثرياء ، وجيش من الجند المرتزقة على استعداد لخدمة من يصدق عليهم الأموال ، وحرس من الأرقاء الأجانب لا يتورعون عن القيام بأى عمل لمصلحتهم الخاصة ؛ أضف الى ذلك انحلالا عاما في المجتمع المصرى : ظهر في انتشار جماعات اللصوص لسرقة المقابر الملكية ، وفي استهزاء الناس بفرعون ، حتى مثلوه في رسوم مجونية بعيدة عن الأدب ؛ وفي كثرة الدسائس والمؤامرات ،

التي لم يسلم منها الملك نفسه، إذ تأمرت إحدى زوجاته على قتله، ولكن المؤامرة كُشِفَتْ وحوكم المتآمرون وعوقبوا عقاباً صارماً .



رسم مجولى للملك رمسيس الثالث على شكل أسد يلعب الشطرنج

وفاة رمسيس الثالث :

لم يعيش رمسيس الثالث طويلاً بعد هذه المؤامرة ، وكانت مدّة حكمه إحدى وثلاثين سنة .

الفصل السادس

كهنة طيبة وأمراء تانيس

ضعف خلفاء رمسيس الثالث :

كان ملوك الأسرة العشرين، الذين خلفوا رمسيس الثالث، ضعافاً، فانتَهَزَ كهنة آمون هذه الفرصة وزادوا من نفوذهم، حتى استفحل أمرهم إلى أن استقلوا بالملك .

اضمحلال طيبة :

اتخذ ملوك الأسرة العشرين عاصمتهم في تانيس بالدلتا ، كما فعل أسلافهم ملوك الأسرة التاسعة عشرة، فضعف شأن مدينة طيبة، التي مضى على هجر الفراعنة لها مائتا سنة ، ولكنها مع هذا ظلت مدفنًا للملوك والأمراء وأقاربهم ، فظلوا ينحتون مقابرهم في صميم الصحور الجيرية ، وراء السهل الغربى .

سرقة المقابر الملكية :

ولما ضعف ملوك الأسرة العشرين وعجزوا عن صيانة الأمن ، انتهز لصوص المقابر الفرصة وأخذوا في نهبها وسلبها ، وقد كشفت هذه السرقة في السنة السادسة عشرة من حكم رمسيس التاسع (١١١٥ ق . م) ، وعوقب المجرمون عقابا صارما .

ومع ذلك لم يمض جيل واحد بعد رمسيس التاسع حتى نهب اللصوص جثث فراعنة مصر العظام مرة أخرى .

انفصال الوجه البحرى :

وبلما كانت مقابر الفراعنة تنهب بلا شفقة ولا احترام ، كانت حكومة مصر الامبراطورية تتصدع فى الداخل والخارج ، ففى الداخل قام فى عهد رمسيس الثانى عشر أمير من تانيس ، (صان الحجر) ، يعرف عند اليونان باسم سمنديس^(١) ، واستولى على الدلتا ، وجعل نفسه ملكا عليها .

وكان لانفصال الوجه البحرى عن الوجه القبلى أثر سىء فى طيبة نفسها ، فزاد من عوامل اضمحلالها ، لأن قيام مملكة مستقلة فى الدلتا قطعها عن الاتصال بالبحر المتوسط وتجارة آسيا وأوربا .

نفوذ الكهنة فى الوجه القبلى :

لم يجد رمسيس الثانى عشر بدا من التدهور الى طيبة والاحتفاظ بالوجه القبلى والنوبة ، على أن نفوذه فى تلك الجهات كان اسميا ، وكانت السلطة الفعلية فى يد حرجور ، رئيس كهنة آمون بطيبة .

(١) اسمه المصرى نسر بلدد وقد آثرنا استعمال الاسم اليونانى لمهولته .

ضباع نفوذ مصر في الشام وفينيقيا :

أما في الخارج فقد زال نفوذ مصر في الشام وفينيقيا ، ولم يبق لها في فلسطين سوى نفوذ اسمي ، وليس أدل على ذلك من قصة "وينامون" الذي بعثه حرحور في عهد رمسيس الثاني عشر ، إلى مدينة بيلوس (جبيل) بفينيقيا ، ليحضر خشب الأرز لبناء سفينة آمون المقدسة ، وقد ترك وينامون تقريراً وصف فيه رحلته وما صادفه فيها من أخطار ومشاق .

قصة وينامون ومخاطراته :

خرج وينامون من مصر ، بعد أن زوّده حرحور بقليل من المال لشراء الخشب اللازم وأعطاه تمثالا للمعبود آمون علّه يؤثر به في حاكم بيلوس (جبيل) ويوهبه بأنه يطيل عمره ويهبه الصحة والعافية ، فيتغاضي بذلك عن قلة المال ، ويمدّه بالأخشاب اللازمة ، وأوصاه أن يذكره بما كان لمصر من مجد سالف وعزّ غابر ، فلما وصل وينامون إلى إحدى مدن الشام ، فوجئ بسرقة ما معه من مال قليل ، وراح يروي قصته على حاكم تلك المدينة ، وطلب مساعدته ، فرفض لإجابة رجائه ، وبعد أن قضى تسعة أيام فيها ، سار إلى بيلوس (جبيل) ماراً بمدينة صور ، واستطاع في أثناء طريقه أن يستولى على مبلغ من المال أخذه عنوة من بعض الناس ، ليعوض به خسارته ، ولم يكد يظا أرض بيلوس حتى أمره حاكمها بتركها ورفض مقابله ، وهم وينامون بالعودة إلى مصر ، ولكن توسط له موظف كبير في بيلوس فاستدعاه الحاكم وسأله عن بعثته ، فأخبره أنه جاء يطلب منه خشباً لبناء سفينة آمون العظيمة ، ثم ذكره أن أجداده لبوا هذا الطلب قديماً ، فقال الأمير إنهم فعلوا ذلك حقيقة ، ولكنه يرفض الاقتداء بهم ما لم يعطه أجراً ، لأنه لم يعد يعترف لحاكم مصر بالسيادة والسلطان !

حاول وينامون إقناع الحاكم بأن تمثال الإله آمون الذي يحمله معه سوف يطيل عمره ويهبه الصحة ، إن هو أجاب ملتمسه ، ولكن الحاكم ألح في طلب المال ، واضطر وينامون أن يبعث ببعض الرسل إلى مصر لتحقيق طلبه ، وعادوا معهم بعض أوان من الذهب والفضة ، وأقمشة جميلة من الكتان

وقراطيس من البردى ، وبعض الجلود والحبال ، وغيرها من متجبات مصر ، وقدموها لحاكم ببلوس ، فأمر رجاله بقطع الأخشاب اللازمة لفرعون ، وهكذا أصبحت مصر تستجدي من الشام خشب الأرز وتدفع له ثمنها ، بعد أن كانت تأخذه بخزية ، أيام تحوتمس الثالث ورسيس الثاني ، عندما كانت جيوشها الظافرة تدخل الرعب في نفوس السوريين فيسارع الأمراء بتقديم فروض الطاعة والولاء لفرعون !

ولم تنته قصة وينامون ومخاطراته عند ذلك ، فإنه لم يكد يخرج بسفنه وينجو من إحدى عشر سفينة أرادت اعتراضه والقبض عليه ، لسلبه نقود بعض الناس في أثناء طريقه بين صور و ببلوس (كما ذكرنا) ، حتى هبت عليه عاصفة أضلته الطريق ، وقذفت به إلى ساحل جزيرة قبرص ، فقبض عليه أهلها ، وهموا بقتله في قصر ملكتهم ، ولكن حدث لحسن حظه أن رأى وينامون الملكة خارجة من القصر في طريقها إلى قصر آخر ، فاعترضها ، ووجد بين حاشيتها رجلا يتكلم المصرية فتوصل إليه أن يشرح أمره لها لتنقذه — ثم قال إن بحارته هم بحارة حاكم ببلوس ، فإذا تعرض سكان قبرص لهم فسوف ينتقم لهم حاكمهم من أهالي قبرص أشد انتقام ، وهكذا استطاع وينامون بتوسله تارة ، وبتهديده بسطوة حاكم ببلوس تارة أخرى ، أن ينجو هو ورجاله . ويلاحظ أنه لم يلجأ إلى التهديد بقوة فرعون ، لأن هذه أصبحت لا قيمة لها في تلك الجهات ، على الرغم من أنه لم يمض سوى أربعين سنة منذ هزم رمسيس الثالث أساطيل شعوب البحر في معركة بحرية فاصلة .

الملك جرحور

ازدياد نفوذه :

وكما تدل قصة وينامون على ضعف نفوذ مصر في الخارج ، فهي تبين أيضا ازدياد سلطة الكهنة ، فان وينامون ذهب إلى فيثيقيا موفدا من قبل رئيس الكهنة ، جرحور ، لا من قبل فرعون ، كما كانت العادة قديما ، والحقيقة أن جرحور قبض على ناصية السلطة في طيبة ، وأخذ يتلقب باللقاب الفراعنة ، وينقش اسمه على الآثار داخل مستطيلات ، كما فعلوا .

تتويجه :

ثم أقيمت في طيبة حفلة ديدية تسلم فيها حرجور تاج مصر، وبقى رمسيس الثانى عشر بلا حول ولا قوة حتى مات ، وتمادى حرجور فى ادعائه ، فسمى نفسه سيد الأرضين ، فى حين أنه لم تكن له سلطة ما فى الدلتا التى كان يحكمها إذ ذاك سمنديس (كما أسلفنا) .

الأسرة الحادية والعشرون

تأسيسها :

وبعد موت حرجور لم يستطع ابنه الاحتفاظ باستقلاله فى طيبة ، فبسط سمنديس ، ملك الدلتا ، نفوذه على الصعيد ، وأسس الأسرة الحادية والعشرين ، وبعد موته تعاهدت الأسرتان ، أسرة تانيس وأسرة طيبة ، فارتبطتا برباط متين .

إهمال ملوكها شئون البلاد :

ظل ملوك الأسرة الحادية والعشرين يحكون مصر من عاصمتهم فى الدلتا مدة قرن ونصف ، ولم يظهروا ميلا إلى ترقية البلاد ، فاضمحلت مصر فى عهدهم من الناحية الاقتصادية والصناعية ، ولم يقيموا فى عاصمتهم مبانى تستحق الذكر ، فأخذت تانيس فى التدهور ، وأهملوا شأن طيبة فزاد اضمحلالها أيضا .

محافظةهم على جثث الفراعنة :

على أنهم احتراموا ذكرى أجدادهم العظام وتباروا مع رؤساء كهنة آمون فى حفظ جثثهم عن عبث اللصوص ، فكانوا ينقلونها من نجبا إلى آخر خوفا عليها ، إلى أن نقلها آخر ملوك هذه الأسرة إلى مقبرة قريبة من الدير البحرى ، وهكذا بقيت جثث أولئك الملوك بعيدة عن أيدي اللصوص ثلاثة آلاف سنة ، إلى أن هب لصوص طيبة فى أواخر القرن الماضى (١٨٧١) واهتدوا إلى مكانها ، وبدأوا فى نهبها ، فألقت الحكومة القبض عليهم ، وأزلت بهم العقاب ، كما عوقب زملاؤهم قديما ، وقامت مصلحة الآثار المصرية بنقل تلك الجثث إلى المتحف المصرى بالقاهرة ولها فيه قاعة خاصة .

الفصل السابع

الليبيون - الأسرة الثانية والعشرون

استخدام الليبيين في الجيش :

أخذ حماس المصريين لخوض غمار الحرب يقل ، بعد أن انقضى قرن ونصف على قيام امبراطوريتهم ، فبدأ يحل محلهم في الجيش جنود مرتزقة من الأجانب وخاصة من شعوب البحر المتوسط وجزائره ، ومن الليبيين جيرانهم الغربيين ، وكان من هؤلاء حاميات المدن الهامة في الدلتا ، وأصبحوا عنصرا هاما في الجيش أيام الأسرة الحادية والعشرين ، وصار منهم قواد ورؤساء حربيون .

هجرة الليبيين إلى مصر :

وفي الوقت نفسه أخذت جموع الليبيين تهاجر شيئا فشيئا إلى مصر ، بعد ما رأوا عبث الاستيلاء عليها بالقوة ، منذ هزمهم رمسيس الثالث .

ازدياد نفوذهم :

هكذا كثر الليبيون في مصر ، من جند مرتزقة ومهاجرين ، ووجدوا فيها بلادا غنية ، حباها الله بنيل كريم وأرض خصبة ، فابتاع رؤسائهم الضياع واستقروا . وقوى نفوذهم فيها .

الملك شيشنق ٩٥٠ - ٩٢٩ ق.م

توليته :

وأخيرا استطاع أحد أمراءهم ، واسمه شيشنق ، أن يتولى حكم مصر ، سنة ٩٥٠ ق م ، إما لضعف آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، أو لوفاته وانقراض ذريته . وأسس شيشنق الأسرة الثانية والعشرين ، أى أن الليبيين استولوا على عرش مصر بلا جهد ولا حاجة إلى امتشاق الحسام ، بعد مضي قرنين

منذ موت رمسيس الثالث ، وظلوا يحكمونها مدة قرنين ، وتطبعوا بالطباع المصرية ، وحافظوا على العادات والألقاب الفرعونية ، وعبدوا معبودات المصريين وقدموا لها القرابين .

شيشنق والملوك سليمان :

وكان شيشنق يعاصر الملك رحبعام في فلسطين ، اتى أغار عليها وعاد بغنائم كثيرة (١) ، وأرسلت فلسطين والنوبة الجزية إلى مصر ، وشيد شيشنق المعابد في الكرنك بختد بذلك عهد فراعنة مصر الأقدمين .

كشف مقابر تانيس " صان الحجر " :

ظلت مقابر ملوك الأسرة الحادية والعشرين والأسرة الثانية والعشرين مجهولة حتى وفق العلامة الفرنسي موتيه إلى العثور على بعضها خلال سنة ١٩٣٩ وكانت أول مقبرة كشفها ، لملك اسمه شيشنق ، فظن البعض خطأ ، أنها لشيشنق الذي تحدثنا عنه ، والحقيقة أنها لملك بالاسم نفسه ، لم يعثر على أى أثر له من قبل ، ويغلب على الظن ، أنه ابن شيشنق السالف الذكر ، إذ وجد اسمه منقوشا على بعض حلى صاحب هذه المقبرة ، وقد عثر العلامة الفرنسي نفسه ، في سنة ١٩٤٠ ، على مقبرتي بسوسنس الأول وابنه ، من ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، والأمل كبير في أن يوفق إلى كشف بقية مقابر الأسرتين .



تابوت شيشنق

(١) حكم فلسطين قبل رحبعام الملك سليمان وقد ورد في التوراة أنه تزوج من ابنة فرعون الذي كان يحكم مصر قبل شيشنق .

وصف المقبرة الأولى :

أما المقبرة الأولى التي كشفها الأستاذ مونتيه فقد وجد فيها مومياء الملك المسمى شيشنق محفوظة داخل تابوت من الفضة على شكل آدمي ، رأسه على شكل رأس الباز ، والمومياء نفسها سليمة ، وقد لُفّت في أستار القماش المصرى القديم ، الذى لا يعرف البلى إليه سبيلا ، وأحيطت بلائى من الزجاج ، وشُدَّ الوسط بحزام من الذهب ، ووضع على رأسها قناع من الذهب كذلك .

ولم توجد مع مومياء هذا الملك وتابوتها عجلات أو سرر وعروش ، كالتى وجدت مع مومياء توت عنخ آمون ، وكل ما وجد معها آنية يحفظ فيها الطعام ، وأخرى تحفظ فيها بعض أحشاء الملك ، وعدد وفير من التماثيل الصغيرة المصنوعة من الفخار الأخضر ، والمعروفة باسم ” أوشبتي “ أى المحبيات ، لأنها كانت توضع فى القبر لتقوم بخدمة الميت فى الدار الآخرة وتجيبه إلى ما يطلب ، وذلك وفق معتقدات المصرى القديم .

اضمحلال مصر أيام الليبيين :

وقعت مصر فى فوضى شديدة فى عهد الأسرة الثانية والعشرين ، فانقسمت إلى عدة ولايات حربية صغيرة ، دب بين أمراءها الشقاق ؛ ودامت هذه الحال إلى أن انقضت أيام الأسرتين الثالثة والعشرين ، والرابعة والعشرين ، وانتهى الحكم الليبى الذى تقهقرت فيه مصر واضمحلت .

الفصل الثامن

النوبيون والأشوريون

نفوذ كهنة آمون في النوبة

لما أغار الليبيون على مصر وعجز نسل الملوك الكهنة ، الذين خلفوا حرجور في طيبة ، عن مقاومة دسائسهم وكبح جماحهم ، تركوهم مسيطرين على البلاد وتراجعوا جنوبا إلى النوبة ، وأقاموا فيها مملكة مستقلة ، عاصمتها نباتا ، وتقع عند الشلال الرابع . وكانت النوبة قد تمصرت تحت حكم الفراعنة تمصرا يكاد يكون تاما ، وانتشرت فيها العبادات المصرية ، وصار لكهنة آمون بوجه خاص نفوذ كبير فيها .

الملك بعنخي

استيلاؤه على مصر ٧٣٠ ق.م :

فلما وضع للنوبيين انقسام الأمراء الليبيين على أنفسهم ، اعتموا ، تحت تأثير كهنتهم ، نشر سلطانهم على مصر ، وتقدموا بأسطوهم وجيشهم ، يقودهم ملكهم بعنخي ، وكان هذا قائدا رجيا يجرى في عروقه دم الفراعنة ، لذلك يخطئ من يرى في إغارة النوبيين تغلب الزنوج الإفريقيين على مصر ، فالنوبة بلد مصرى من قديم الزمان .

استولى بعنخي على مصر سنة ٧٣٠ ق.م^(١) ، وأسس فيها امبراطورية حكمها خلفاؤه ، ملوك الأسرة الخامسة والعشرين ، إلى سنة ٦٦٣ ق.م ، ومن أهمهم شباكه وطهرقه .

(١) وصف بعنخي حملته على مصر في نقوش هيرغليفية دونها على لوح خضف عمر عليه بين بقايا معبد ، الذى أقامه في جبل بركال عند الشلال الرابع ، واللوح محفوظ اليوم بالمتحف المصرى .

إغارة الآشوريين على مصر

أسبابها :

حاول كل من شباكه وطهراقه إثارة فلسطين وسوريا ضد دولة آشور ، التي أصبحت حينئذ أقوى إمبراطورية في آسيا ، حيث مدت نفوذها على جزئها الغربي بأكمله ، وأصبحت مصر في خطر منها .

استيلاء الآشوريين على الوجه البحرى :

حقق الآشوريون على مصر هذا التدخل ، وزحفوا عليها ، بقيادة ملكهم اسرحدون (آشور أنخ الدين) ، فاستولوا على منف ، وتنازل لهم طهراقه عن الوجه البحرى ، فولى عليه الملك الآشورى أمراء من قبله ، كان أعظمهم نحاو أمير مدينة سايس (صا الحجر ، بمركز كفر الزيات ، بمديرية الغربية) ، ولكنه ما كاد يعود إلى عاصمته نينوى حتى تأمر الأمراء ضده ، فبدأ يعدّ العدة من جديد لقمع الثورة التي أشعلوها ، ولكنه مات سنة ٦٦٨ ق.م . ، قبل أن يصل جيشه إلى مصر .

تدمير طيبة :

فلما تولى بعده آشور بانينال أرسل جنوده إلى الوجه البحرى فاستولوا عليه ثانية ، في عهد الملك النوبى تانوت آمون ، وطاردوا النوبيين إلى طيبة ، ودخلوها وقتلوا وأسروا كثيرا من أبنائها ، ثم نهبها وأتوا على ما في معابدها من تماثيل بديعة وأثاث جميل وأدوات ظالية ، ونقلوا جزءا كبيرا من هذه الكنوز إلى عاصمتهم نينوى .

الباب الخامس عشر

العصر الصاوي

الفصل الأول

عصر النهضة المصرية الأسرة السادسة والعشرون

پسمتيك الأول ٦٦٣-٦٠٩ ق.م

سوء حال مصر :

بعد أن تم للأشوريين الاستيلاء على مصر أقام ملكهم، آشور بانيبال، الأمير پسمتيك بن نخاو حاكما على سايس (صا الحجر)، وأضاف إليه إقليم منف، وظلت بقية الدلتا مقسمة بين الأمراء الحربيين، إذ حرص الأشوريون على أن تبقى مصر مسرحا للنزاعات حتى تظل ضعيفة في قبضة يدهم.

استقلال پسمتيك بالملك :

ولكن پسمتيك تألم لحال مصر وعسف الأشوريين بها، وعزم على التخلص من نيرهم والاستقلال بملكها، فلما رأى أن دولتهم قد دب فيها الضعف، وشغلت عنه بإخماد الثورات التي شبت في أملاكها الأسيوية، والدفاع عن حدودها الأصلية ضد إغارات البابليين وحلفائهم الميديين، قام وطردها من البلاد وطاردهم إلى فلسطين، كما فعل أحسن مع الهكسوس من قبل، ثم انتصر على زملائه الأمراء، وتولى عرش مصر وحده، وهكذا جمع السلطة كلها في يده.

قصة يونانية قديمة عن پسمتيك :

وقد روى اليونان قصصا كثيرة عن اعتلاء پسمتيك عرش مصر، وهى تحوى شيئا كثيرا من الحقيقة. ومن تلك القصص، التى ذاعت بين أهالى سايس (صا الحجر) فى القرن الخامس ق.م.، قصة ملخصها أن مصر كانت مقسمة فى أيام پسمتيك بين اثنى عشر أميرا عاشوا فى صفاء وهناء إلى أن أخبرهم أحد كهنة الإله بتاح، إله مدينة منف، أن الأمير الذى سيقدم الشراب لتمثال هذا المعبود فى قدح من البرونز، سيتولى حكم مصر بأسرها، فدب الحسد بين الأمراء وأخذ كل منهم يراقب الآخر، كلما اجتمعوا للقيام بهذا الواجب الدينى فى معبد منف.

وفى ذات يوم اجتمع الأمراء فى المعبد كعادتهم، ووزع عليهم رئيس الكهنة الأقداح الذهبية التى اعتادوا استعمالها، ثم تبين أنه لم يحضر سوى أحد عشر قدحا، وأن پسمتيك هو الذى لم يأخذ قدحه، فنزع الأمير على الفور خوذته المصنوعة من البرونز، وقدم فيها الشراب لتمثال الإله، وحينئذ تذكر رفقاؤه ما أخبرهم به الكاهن، وخشوا أن يستبد پسمتيك بالملك وحده، فنفقوه إلى المستنقعات الواقعة على ساحل البحر المتوسط، وأمروه ألا يفارقها، ورضخ پسمتيك للأمر، وفى ذات يوم سأل أحد الكهنة أن يخبره بمصيره، فطمأنه وقال له إنه سيتنصر على رفقاؤه بمساعدة رجال من البرونز يقدمون عليه من جهة البحر.

ولم تمض سوى بضعة أيام حتى أتى پسمتيك واحد من خدمه، وذكر له أنه شاهد رجالا من البرونز قد خرجوا من البحر ونزلوا إلى البلد ينهبونها، وظن الأمير فى أول الأمر أن خادمه قد مسه الجنون، ولكنه عاد فتذكر ما قاله الكاهن وأسرع لمقابلة الوافدين، فألفاهم ملاحين يونانيين قد تدرعوا بدرع من البرونز وتسليحوا بأسلحة حديدية.

أكرم پسمتيك هؤلاء الأجانب وأدخلهم فى خدمته، واستعان بهم على أقرانه الأمراء الأحد عشر، وظفر بعرش مصر لنفسه، فألقدها من الفوضى الشديدة التى وقعت فيها من حكم الأمراء وأتباعهم الحرييين، الذين جروا عليها الذل والهوان مدة أربعائة سنة تقريبا.

إنشاء جيش من الجند المرتزقة :

أدرك پسمتيك فضل القوة في تحقيق أغراضه ، فعنى بإنشاء جيش قوى لمصر جعل معظمه من الأجانب المأجورين : من يونانيين ، وسوريين ، وليبيين ، وغيرهم .

ونزل الجند الأجانب في معسكرات خاصة بهم أقيمت في مدينة ماريا (جنوب رشيد) وفي مدينة دلفنه ، (ومكانها اليوم تل دلفنه غربى محطة القنطرة : بمركز فاقوس) ، وفي جزيرة الفيل عند أسوان ، كى تسمى مصر من الشمال ومن الشرق ومن الجنوب على التوالى .

ترقية الإدارة والتجارة :

تطلب الاحتفاظ بهذه القوة ترقية مالية مصر وزيادة إيرادها ، واستلزم هذا الأمر إدارة حازمة وتجارة نافقة ، فأحسن پسمتيك إدارة البلاد ، وعمل على ترقية تجارة مصر البحرية ، فتقاطرت إليها السفن الفينيقية ، كما شجع النازحين من اليونان على الاستيطان بالوجه البحرى والاشتغال بالتجارة ، فنزل عدد وفير منهم فى سائير ومنف ، وكسب اليونان كثيرا من اختلاطهم بحضارة القطر المصرى ماد وأدبيا ؛ أما المصريون فلم يميلوا إلى مخالطتهم ، حتى كانوا لا يأكلون ولا يشربون معهم ، ولعل سر ذلك أنهم شعروا بأنهم أقدم حضارة منهم ، ولأن هؤلاء التجار أصبحوا أغنياء بسرعة .

إحياء حضارة الدولة القديمة :

ومهما يكن من شئ فقد عمل پسمتيك طول مدة حكمه على إعادة مجد البلاد التالذ فدبت فيها روح جديدة لإحياء آداب الدولة القديمة وفنونها وحضارتها ، وهكذا بنيت المعابد على طراز معابد الدولة القديمة ، وأخذ الناس يعبدون آلهتها ، وقلد النحاتون والفنانون نماذجها ، فكان تقليدهم صادقا ، حتى أنه يتعذر على غير الاختصاصيين أحيانا أن يفرقوا بين مشاهد من الدولة القديمة وما وجد من آثار الأسرة السادسة والعشرين ، ومن أجل ذلك عرف عصرها بعصر النهضة المصرية ، أو العصر

الصاوى ، نسبة إلى عاصمتها "صا الحجر" ، التى كانت مركزا لهذه النهضة ، والتى قامت بها المباني الجميلة ، واتخذ فيها پسمتيك لنفسه قصرا فخما ، ولكنه مع هذا لم يأل جهدا فى ترميم آثار المدن الأخرى ، سواء فى الصعيد أو الدلتا ، حتى كانت البلاد فى عهده أشبه بمصنع كبير ، يواصل العمل فيه البناء والنحاتون والنجارون وغيرهم ، فانتعشت مصر انتعاشا لم تره منذ عهد رمسيس الثالث ، أى منذ خمسة مئة سنة تقريبا .



تمثال من العصر الصاوى كثير الشبه
بتمائيل الدولة القديمة

مصر حليفة لآشور :

وقد بلغ من قوة پسمتيك أن بلّات إليه آشور فى ساعة محنتها ، وتحالفت معه ضد هجمات أعدائها الآسيويين : من ميديين و بابلين ، وقاد پسمتيك جيوشه إلى الفرات لمساعدة حليفته ، وانتهاز الفرصة واستولى على بعض جهات فلسطين .

الفصل الثانى

نحّاو الثانى وخلفاؤه

نحّاو الثانى ٦٠٩ — ٥٩٤ ق م

هزيمة البابليين له :

ولما مات پسمتيك ، خلفه ابنه نحّاو ، فقاد حملة أخرى لمساعدة الآشوريين ، ولكن ملك بابل هزمه عند قرقيش ، وأجبره على عقد معاهدة صلح اعترف فيها باستيلاء البابليين على الشام وفلسطين ، وصمم نحّاو بعد ذلك على الاحتفاظ بمملكته وخصص جهوده للإصلاح الداخلى .

ترقية التجارة — مشروع القناة بين النيل والبحر الأحمر :

كان نخاو شديد الرغبة في ترقية التجارة المصرية ، لهذا فكر في إيصال النيل
بالبحر الأحمر بقناة ، حتى تزداد المعاملات مع بلاد العرب وغيرها من الممالك .

وقديما اتصل النيل بالبحر الأحمر بترعة من هذا النوع ، ولكنها كانت قد
أهملت وامتلاأت بالرمال ، وقد رأينا أنها كانت ذات فائدة عظيمة في عهد
الإمبراطورية المصرية ، إذ عن طريقها أرسلت الملكة حاتشيسوت أسطولها من
مدينة طيبة إلى بلاد بنت " الصومال " ، فعاد محملا بخيبرات تلك البلاد .

والغريب أن تلك القناة القديمة أتت لمسافة معينة نفس الطريق الذي تسير
فيه قناة السويس الحالية ، فقد وصلت البحر الأحمر بالبحيرات المرة ، ولكن
بدلا من اتجاهها شمالا نحو البحر المتوسط ، اتجهت إلى الغرب مخترقة واديا بين
تلال جيرية ، يعرف جزء منه باسم وادى طميلات ، واتصلت بفرع شرقى لنهر
النيل فى الدلتا ، وكان اتساعها يسع سفينتين .

فشل مشروع القناة :

ويذكر هيرودوت أن طول القناة التى أراد نخاو لإنشاءها كان مساويا لمسير
أربعة أيام ، وأنه شرع فى حفرها فى ذلك الجزء من سهل مصر القريب من بلاد
العرب ، وأنه استخدم عددا كبيرا من الفلاحين ، هلك منهم نيف ومائة وعشرون
ألفا ، ولعل هذه الخسارة كانت نتيجة نكبة هائلة حدثت ولم يحدثنا عنها أحد —
ومن الجائز أنه نتيجة لخطأ هندسى غرق الكثيرون منهم بالفيضان .

ويقول هيرودوت إن نخاو أوقف العمل بخافة ، لأن أحد كهنته وافاه بنبوءة
مفادها أنه إنما يشتغل لمصلحة غيره ، وأن فائدة القناة ستعود على الأجانب
لا على مصر !

ويروى ديودور الصقلى أن المهندسين أشاروا بالكف عن حفر القناة خوفا من
غرق مصر ، إذ قالوا إن مستوى مياه البحر الأحمر مرتفع عن سطح الدلتا ،

وظاهر من هذا أنهم كانوا أقل مهارة من زملائهم الذين اختطوا القناة القديمة ،
وسواء أكان السبب هو هذا أم ذاك ، فقد أوقف نخاو المشروع ، وفقد كل أمل
في إيصال النيل بالبحر الأحمر .

نخاو والطرق البحرية القديمة :

وجه نخاو عنايته بعد ذلك إلى ترقية التجارة بواسطة الطرق البحرية الموجودة
من قديم ، فبنى أساطيل لتتخذ الممرات المتوسطة والأحمر ، ولما كان الطريق البري
الذي يخترق فلسطين قد سدّه البابليون في وجه تجارِهِ ، أو أنهم على الأقل جعلوه
شاقاً خطراً ، فقد بعث بسفنه من ساحل الدلتا إلى الشام رأساً .

نخاو والفينيقيون :

استخدم نخاو كثيرين من الفينيقيين لقيادة سفنه ، لأنهم كانوا أمهر ملاحى
العالم وقتئذ ، وأكثر جرأة من الملاحين المصريين ، وكان لهم على الملاحة فضل
عظيم ، إذ كان الملاحون في الأزمنة القديمة يجوبون البحار على مقربة من
الشواطئ ، فكانت المسافة التي يقطعونها بين مكان وآخر أطول مما لو شقوا عباب
البحر ، كما أنهم كانوا يسرون نهاراً فقط ، فاذا ما أقبل الليل أرسلوا سفنهم
في ميناء أمين . أما الفينيقيون فقد شقوا البحار ليلاً ونهاراً ، وكانوا يهتدون
في مسيرهم ليلاً بالنجوم ، ولذا أطلق اليونانيون اسم "الفينيقي" على القطب الشمالى
الثابت دائماً في مكانه ، لأن الملاحين الفينيقيين اتخذوه مرشداً لهم في أسفارهم .

بعثة نخاو حول أفريقيا :

فكر نخاو في تشجيع التجارة بإرسال السفن جنوباً من البحر الأحمر على طول
الساحل الأفريقى ، ولما كان المصريون يعتقدون أن الأرض يحيط بها المحيط من
جميع الجهات ، فقد أراد نخاو أن يكشف ذلك الجزء الذى يحيط بالساحل
الأفريقى ، ولعله كان يأمل من وراء ذلك أن يصل إلى مملكة تدر عليه الخير العميم ،
وشجّع على المضى في ذلك السبيل ما علمه من أن السفن المصرية في عهد
الأمباطورية قامت برحلات طويلة من البحر الأحمر نحو الجنوب .

ويذكر هيرودوت أنه كان لنخاو أسطول عظيم بقيادة الفينيقيين ، وكانت قاعدته في ميناء على البحر الأحمر ، وأن نخاو أصدر أمره إلى أسطوله هذا بالسفر حول إفريقيا والعودة عن طريق بوغاز جبل طارق ، الذي كان يسميه القدماء "عمود هرقل" .

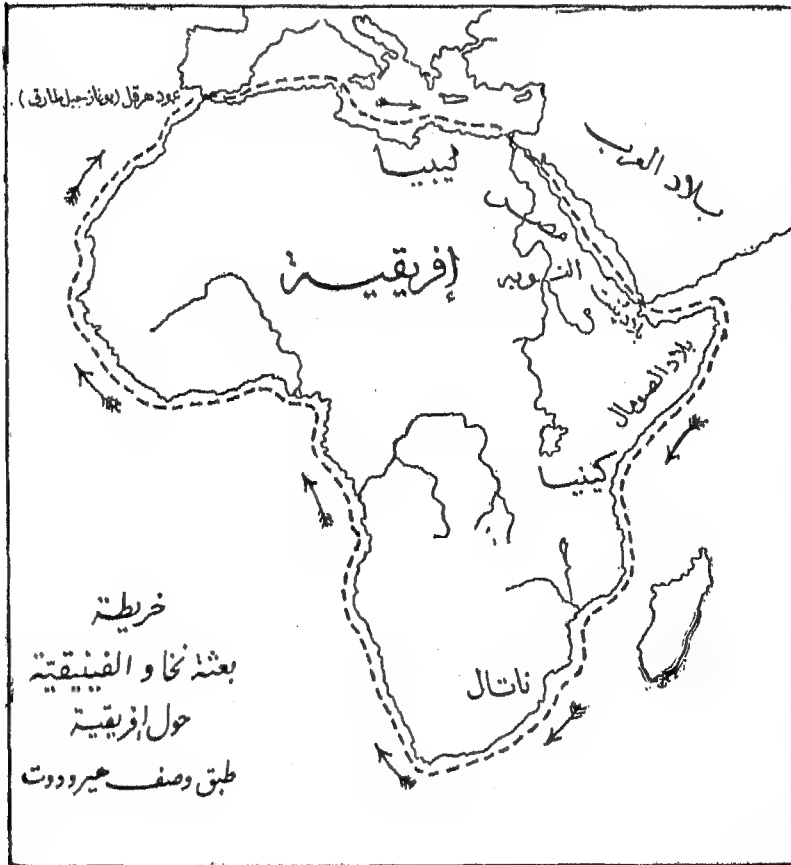
وأبحر الفينيقيون ، وساروا جنوبا ، مارين ببلاد الصومال وكنيا ، إلى ساحل ناتال الحالية ؛ ثم أقلعوا إلى رأس الرجا الصالح ، وساروا حول الساحل الجنوبي ، وواصلوا سبيل العودة متجهين شمالا في محاذة ساحل إفريقيا الغربي حتى مضيق جبل طارق ، ومن ثم ساروا في البحر الأبيض المتوسط ، في محاذة الساحل الأفريقي ، حتى وصلوا إلى الدلتا .

البعثة تستغرق ثلاث سنوات :

وقد استغرقت هذه الرحلة الطويلة نحو ثلاث سنوات ، ويروى أن الملاحين بعد أن اتجهوا جنوبا وقطعوا مسافة طويلة من البحر الأحمر ، نفذت مؤوتهم ، فنزل الفينيقيون على الساحل الأفريقي وحرثوا الأرض وبذروا الحب وانتظروا حتى حصدوا محصوله ؛ ثم أقلعوا وواصلوا سيرهم حتى نفذت مؤوتهم مرة أخرى ، فأعادوا الكرة ، وهكذا لا بد وأنهم حصدوا ثلاثة محاصيل في أثناء رحلتهم ؛ وفضلا عن زراعتهم القمح اللازم لحبزهم فقد اشتغلوا أيضا بصيد كثير من الأسماك والحيوان ، وليس هناك ما يدل على حدوث قتال بينهم وبين أهالي تلك البلاد ، بل يحتمل أنهم صادقوهم ومنحوهم هدايا ، وذلك لما هو معروف عن الفينيقيين من معاملة الشعوب الغريبة عنهم بالكرم والحسن .

طريقة البعثة في البيع والشراء :

ويذكر هيرودوت كيف كان فينيقيو قرطاجه يتعاملون مع أهالي الساحل الغربي لإفريقية ، فيقول إنهم كانوا عند وصولهم إلى تلك البلاد ينزلون إلى البر ، ويضعون بضاعتهم على الشاطئ ؛ ثم يوقدون نارا يتصاعد دخانها ، ويعودون إلى سفنهم ، فعندما يرى الأهالي الدخان المتصاعد يسرعون نحو الشاطئ ويفحصون



ما عليه من بضاعة، ويضعون بجانبها ما تساويه في نظرهم من الذهب، ويتراجعون إلى مسافة بعيدة .

عندئذ ينزل الفينيقيون إلى البرمرة أخرى ، فإذا راقهم ما تركه الأهالي من ذهب ورأوا أنه يكفي كضمن لبضاعتهم أخذوه ورحلوا ، أما إذا رغبوا ثمنا أعلى رفضوا أخذه ، وعادوا إلى سفنهم ثانية ، وانتظروا صابرين ، فيعود الوطنيون ويزيدون على الذهب ثم ينسحبون حتى يتأكدوا من رضاء التجار .

ويقول هيرودوت إن الفريقين من فينيين وأفريقين سلكوا الأمانة في معاملتهم ، فكان الملاحون لا يمسون الذهب حتى يساوى ثمن بضاعتهم ، وكان الأهالي لا يقربون البضائع حتى يؤخذ ثمنها .

ولا شك أنه ، بعد انتهاء هذه البعثة ، تجمع لدى الضباط الفينيقيين كثير من القصص الممتعة عن مخاطرهم أخذوا يروونها على الملك نخاو وعلى أمراء البلاد .

پسمتيك الثانى ٥٩٤ - ٥٨٨ ق.م

حملته إلى النوبة :

خلف نخاو ابنه پسمتيك الثانى ، فأرسل حملة إلى النوبة بلغت الشلال الثانى وخلدت ذكراها نقوش باللغة اليونانية ، دقنها واحد من ضباطه اليونان على أحد تماثيل رمسيس الثانى فى أبى سنبل ، ولا تزال ظاهرة إلى اليوم ، وهى من أقدم النقوش اليونانية المعروفة فى مصر .

ΒΑΣΙΛΕΥΣ ΕΛΘΟΝΤΟΣ ΕΣΣΕΛΕΦΑΝΤΙΝΑΝ ΨΑΜΑΤΙΧΟ
ΤΑΝΤΑΣ ΠΡΑΨΑΝΤΟΙΣ ΝΥΝ ΨΑΜΜΑΤΙΧΟΙ ΤΟΙΘΕΟΚΛΟΣ
ΕΠΛΕΘΝ ΒΛΘΘΟΝ ΔΕ ΚΕΡΚΙΟΣ ΚΑΤΥΠΕΘΕΝΙΣ ΟΓΟΤΑΜΟΣ
ΑΝΙΒΑΠΟΛΟΣΟΣΟΘΧΕΠΟΤΑΣΙΜΤΟΔΙΓΥΝΠΤΙΟΣ ΔΡΑΜΑΣΙΣ
ΕΛΡΑΦΕΔΑΜΕΔΡΤΟΝΑΜΟΙΒΙΤΟΚΑΙΠΕΛΕΦΟΣΟΝΔΑΜΟ

نقوش يونانية عن حملة پسمتيك الثانى على النوبة

فينيقيا :

كذلك قام پسمتيك برحلة إلى فيليقيا ، ورافقه عدد من الكهنة يحملون هدايا للعباد المصرية القائمة هناك .

الملك أبريس (٥٨٨ - ٥٦٨ ق.م)

نزاعه مع ملك بابل :

حكم بسمتيك الثانى سبع سنوات ، ثم خلفه ابنه أبريس ، وكانت له آمال عظيمة فى استرجاع فلسطين والشام من الدولة البابلية ، فشجع صدقيا ، ملك اليهود ، على الثورة ضدّ بختنصر ، ملك بابل ، وأرسل إلى الشام جيشا بطريق البحر ، وبعد أن انتصر فى معركة بحرية ، استولى على صيدا ، وخضعت له صور ، فأصبحت لبنان وفينيقيّا تحت حكم فرعون مرة أخرى ، ولكن لم يدم ذلك طويلا ، فقد أسرع ملك بابل إلى فلسطين ، وحاصر بيت المقدس ، فسقطت فى يده ونحرّها ، وأخذ ملكها أسيرا ، ولجأ كثير من اليهود إلى مصر ، فأقطعهم أبريس أراضى عند أسوان ونقل بختنصر من بقى منهم إلى بابل ، فبقوا فيها سنوات عدة .

ثورة المصريين ضد أبريس :

لما اعتلى أبريس عرش مصر كان اليونان يزدادون عددا وقوة فى الدلتا ، وكان كثيرون منهم تجارا أو جندا فى الجيش المصرى ، وكان الملك أبريس شديد الميل إليهم مما أدى إلى قيام الثورة بين وحدات الجيش ، فأرسل الملك أحد أقاربه ، المدعو أحس ، لقمعها . وكان أحس ، المعروف باليونانية باسم أمازيس ، سياسيا محنكا ^(١) ، فلما طلبت إليه الفرق الثائرة أن يولى نفسه ملكا عليهم قيلَ لهذا المركز الرفيع ، وحكم هو وأبريس حوالى ثلاث سنوات ، ثم تنازعا الحكم ، فألف أبريس جيشا من اليونانيين ، ووضع أمازيس نفسه على رأس جيش من المصريين ، والتقى الجيشان عند مدينة صا الحجر ، فانهزمت الجنود الأجنبية ، وسقط أبريس فى قبضة خصمه ، ولكن أمازيس أحسن معاملته وأكرم مثواه ، ثم قبض المصريون عليه وقتلوه ، وانفرد أمازيس بالحكم .

(١) آثرنا استعمال اسم أمازيس حتى لا يخلطه القارىء بأحس الذى طرد الهكسوس .

أمازيس ٥٦٨ - ٥٢٥ ق.م

معاملته لليونانيين :

هكذا تولى أمازيس الحكم بإثارة الشعور الوطنى العام ضد اليونانيين ، وعلق عليه المصريون آمالا كبارا، والحقيقة أنه كان يتظاهر بإخضاع اليونانيين ، ولكنه كان يعطيهم فى الواقع كل ما يلزمهم ، مثال ذلك : أنه أصدر أمره إليهم ألا يُنزلوا بضاعتهم فى أية جهة يرغبون فيها من الوجه البحرى ، بل عين لهم جهة هى مدينة نقراتيس فى غربى الدلتا - ومحلها الآن كوم جعيف ، بمركز ايتاى البارود مديرية البحيرة - ومنحهم فيها امتيازات كثيرة ، فشيدت فيها المصانع ، ونشط فيها التجار والصناع ، وتقدمت المدينة وأثرت ، طول حكم أمازيس ، الذى دام أربعة وأربعين عاما ، ونافست منف ، وصارت من أهم المراكز التجارية فى البحر المتوسط ، وكانت صبغتها يونانية فى كل شئ ، حتى أن حكومتها كانت مستقلة فى شؤونها الداخلية عن الحكومة المصرية ، ومرتبطة بالمدن الإغريقية ، يدلنا على ذلك أن أهلها لما أرادوا إقامة معابد خاصة لهم بها ، سارعت تلك المدن فى تقديم معوتها إليهم .

ليس غريبا بعد هذا أن يكون أمازيس محبوبا من اليونانيين ببلاد اليونان ومن إخوانهم النازلين فى نقراتيس .

قوة أسطوله :

أراد أمازيس ، كأسلافه من ملوك الفراعنة ، أن يستولى على جزء من فلسطين والشام ، ولكن البابليين لم يمكنوه من ذلك ، على أنه استطاع بقوة أسطوله العظيم أن يُشرف على التجارة البحرية ، وأن يخضع جزيرة قبرص ويلزمها دفع الجزية . وهنا يجب أن نلاحظ أن قوته البحرية كانت نواة قوة مصر البحرية فى عهد البطالمة ، حين سيطرت مصر على سواحل البحر المتوسط .

تنقيحه القوانين المصرية :

ومن أعمال أمازيس أنه نقح القوانين المصرية ، وحتم على كل ساكن أن يخبر حاكم مدينته كل عام بموارد الثروة التي يعيش منها . فلما زار مصر في تلك الأيام المشرع اليوناني سولون ، أخذ هذه المادة عن المصريين ونقذها في أثينا عند عودته .

تطلع الفرس إلى فتح مصر :

ولما تقدم أمازيس في السن ، هدد مصر من حدودها الشرقية خطر جديد ، ولم يكن مصدر هذا الخطر سوى دولة فارس العظيمة ، التي كانت في أول أمرها إمارة صغيرة تابعة لليديين ، ثم تغلبت عليهم ، بفضل ملكها كورش ، وتطلعت إلى فتح مصر ، ونجحت في مشروعها هذا ، في عهد خليفته قمبيز ، فقضت بذلك على الأسرة السادسة والعشرين ، كما سنرى في الفصل التالي .

الفصل الثالث

الفرس وفتح مصر

ظهور الدولة الفارسية

أصل الفرس :

ينتسب الفرس إلى المجموعة الآرية ، التي ينتسب إليها أغلب الشعوب الأوروبية ، وقد نزحوا من موطنهم الأصلي في جهات التركستان ، في القرن السابع ق . م . ونزلوا في إقليم إنشان ، في الجزء الجنوبي من هضبة إيران ، وكان قد سبقهم إليها زملاؤهم الميديون ، الذين فاقوهم في الحضارة ، وكونوا لهم إمبراطورية قوية امتدت من الخليج الفارسي إلى البحر الأسود .

اتساع ملكهم :

وفي منتصف القرن السادس ق . م . ، استطاع كورش ملك إثنان أن يسقط الأسرة المالكة في ميديا ، ويعزل ملكها ويوحد الميديين والفرس تحت سلطانه ويستولى على الجزء الشرقى من إمبراطورية آشور القديمة .

أمازيس والخطر الفارسى :

دب الذعر في الأمم الأخرى إزاء هذه الانتصارات التي أحرزها كورش ، وأدرك أمازيس خطره على مصر وكافة أمم الغرب ، فألف حلفا مع ليديا ، وهي مملكة إغريقية على ساحل آسيا الصغرى ، وكان ملكها حينئذ قارون ، الذي ضُربت بثروته الأمثال ، وانضم الأسبرطيون وملك بابل إلى هذا التحالف ، وجعلوا غرضهم مقاومة كورش ، ولكنه أثبت أنه أقوى من أعدائه ، فغزا آسيا الصغرى وهزم ملك ليديا ، وأخذه أسيرا ، وضم بلاده إلى الإمبراطورية الفارسية ؛ وبعد ذلك بسنوات قليلة أرسل جيشا إلى مملكة بابل ، فاستولى على مدينة بابل وخضع لحكم فارس الجزء الغربى من إمبراطورية بابل في الشام وفلسطين ، فأعاد كورش اليهود إلى فلسطين ، بعد أن قضوا في بابل مدة طويلة .

الملك قمبيز

طمعه في غزو مصر :

تولى بعد كورش ابنه قمبيز ، وكان يطمح في الاستيلاء على مصر ، فأخذ يتحين الفرص لإثارة نزاع مع ملكها أمازيس ، وكان له ما أراد ، وبدأ يُعدُّ العدة لغزو مصر بجيش فارسى قوى ، وفي أثناء ذلك مات أمازيس ، خلفه بهمتيك الثالث

قمبيز ملك مصر ، ٥٢٥ ق.م :

حكم بسمتيك الثالث بضعة شهور فقط ، ولم يحاول خلال هذه المدة القصيرة أن يوحد مملكته ضد الفرس ، لأن المصريين أنفسهم كانوا يكرهون اليونانيين .

تقدم قمبيز بجيشه وعبر صحراء سيناء ، ثم دخل مصر ، بخيانة ضابط يوناني دله على أحسن طريقة لفتحها ، فقابله جيش من المصريين واليونانيين وغيرهم من الجند المرتزقة من آسيا الصغرى ، والتقى الجيشان في موقعة عند الفرما ، واستمات المصريون واليونان في القتال ، ولكنهم لم يقووا على الفرس فتراجعوا إلى منف .

فر بسمتيك الثالث مع فلول جيشه إلى منف ، ولكن سرعان ما استولى الفرس عليها ، وقبل قمبيز أن يحكم بسمتيك مصر من قبله ، فلما بلغه أنه أُلّف عصبة ضده أمر بقتله وأعدم .

وأعلن قمبيز نفسه ملكا على مصر ، وأخضع البلاد جنوبا حتى طيبة — وقد ذكر الكتاب اليونانيون أنه أرسل جيشا ليحتل الواحة الخارجة ، ولكنه هلك في عاصفة من الرمال ولم يسمع عنه شيء .

دارا الأول

إصلاحاته بمصر :

تولى عرش الفرس بعد قمبيز الإمبراطور دارا ، فاهتم بمصر ، وعمل على ترقية تجارتها ، فحفر القناة التي يئس من شقها نخاو ، وتغلب مهندسوه على الصعاب التي واجهت نخاو ، ودخلت السفن الآتية من البحر المتوسط في النيل ، وسارت في القناة إلى البحر الأحمر .

حرص المصريين على الاحتفاظ باستقلالهم

قيام المصريين بالثورة :

سقطت مصر في أيدي الفرس وأصبحت جزءاً من إمبراطوريتهم ، وحاول ملوكهم تقليد الفراعنة ، فتلقبوا بألقابهم ، وكتبوا أسماءهم على الآثار داخل مستطيلات ، كما فعلوا ، وعبدوا الآلهة المصرية ، وقدموا لها الضحايا في المعابد ، ولكن على الرغم من كل هذا لم يكسبوا قلوب رعاياهم ، فقد كان المصريون طول تاريخهم شديدي الشعور بقوميتهم ، حريصين على الاحتفاظ باستقلالهم ، فقاموا بالثورات مرارا محاولين رد هذه الحرية المسلوبة (١) .

طرد الفرس :

أنحد الفرس الثورات الأولى ، ولكن ، في عهد دارا الثاني ، نجح المصريون في طردهم ، وأحلوا محل الأسرة السابعة والعشرين الفارسية أسرات وطنية ، أولها الأسرة الثامنة والعشرون ، وأصلها من سايس "صا الحجر ، مركز كفر الزيات مديرية الغربية" ، ثم الأسرة التاسعة والعشرون من منديس "في ناحية تمي الأמיד بمديرية الدقهلية" ، فالأسرة الثلاثون التي أسسها نختنبو الأول ، أمير سمنود .

إعادة فتح الفرس لمصر ، ٣٤٢ ق.م :

ثم حاول الفرس إعادة فتح مصر ، فقابلهم المصريون بمساعدة الجند المرتقة من اليونان ، وجاهدوا في سبيل الدفاع عن استقلالهم جهاد الأبطال ، ولكنهم هُزموا أمام جموع الفرس الجرارة ، سنة ٣٤٢ ق.م ، وفر نختنبو الثاني إلى النوبة ،

(١) زار مصر ، حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، المؤرخ اليوناني هيرودوت فأعجب بآثارها ، وكتب تاريخها في مؤلف رائع وصف فيه رحلاته .

وبفراره سقطت آخر أسرة فرعونية حكمت مصر ؛ وظل الفرس يحكمونها حتى
قضى الإسكندر الأكبر على أمباطوريتهم سنة ٣٣٣ ق . م ، ودخلت مصر
في دولته .



هيرودوت المؤرخ اليوناني

الباب الثاني عشر

الحضارة المصرية القديمة

الفصل الأول

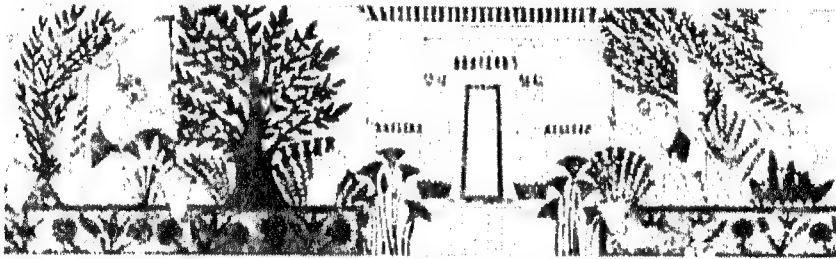
الحياة الاقتصادية

الزراعة

للمدنية المصرية القديمة طابع نبيل زراعى عملى ، نجده ممثلا فى عقائد المصريين وفى فنهم ، وفى لغتهم ، وفى كل مظاهر حضارتهم ؛ وسيتضح كل ذلك فيما يلى :

فضل المصريين على الزراعة :

كانت الزراعة أهم ما اشتغل به المصريون القدماء ، ولهم عليها فضل كبير ، فقد كانوا أول أمة زراعية عظيمة فى العالم ، وكان فلاحهم أول من اخترع الفأس لحفر الأرض ، والمحراث الخشبي لحرثها ، وأول من استعمل الشادوف لريها ، كما كانت حكومتهم أول حكومة عُنيت بالرى ونظامه ، لأن حياة مصر وسعادتها



مصريان يستعملان الدالية (الشادوف)

تتوقفان على النيل ، الذى يفيض كل عام جالباً معه الغرين فيزيد الأراضى خصوبة ونماء ، ثم يأخذ فى الانخفاض فيصعب الري ، ويتطلب هذا من الحكومة أن تتعاون مع الفلاحين لتوزيع الماء عليهم توزيعاً عادلاً ، لذلك عنيت حكومة الفراغة — كما تعنى حكومتنا اليوم — بحفر الترعى والقنوات والإشراف عليها ، حتى ينتج الفلاحون محصولاً وافراً ، ويستطيع كل منهم دفع ما يفرض عليه من ضرائب .

طريقة الزراعة :

وكانت طرق زراعة الحبوب غاية فى البساطة : فعند انخفاض النيل يحرث الفلاح الأرض بحارث من الخشب تجرها الثيران ؛ ثم يبذر الحبوب ، وتدوسها الغنم أو الخنازيركى تغمسها فى الأرض ؛ ويلي ذلك أسابيع يقضيها الفلاح فى تعهد زراعته ؛ ثم يحصدنها ؛ وينقل حزم القمح إلى الجرن ، حيث تدوسها الحجير والماشية ؛ ثم يذريها فى الهواء بمذراة من الخشب ، فينفصل التبن عن الحب ؛ ويوضع القمح فى الزكائب ، وينقل إلى مخازن خاصة ، هى بناء من اللبن فى أعلاه فتحة صغيرة يصب القمح فيها ، وفى أسفله باب لسحب الغلال منه ، حسب الحاجة وكان الكاتب يشرف على هذه العملية ، فيدوّن فى لفائف من ورق البردى ما يدخل المخازن من زكائب الغلال وما يخرج منها .



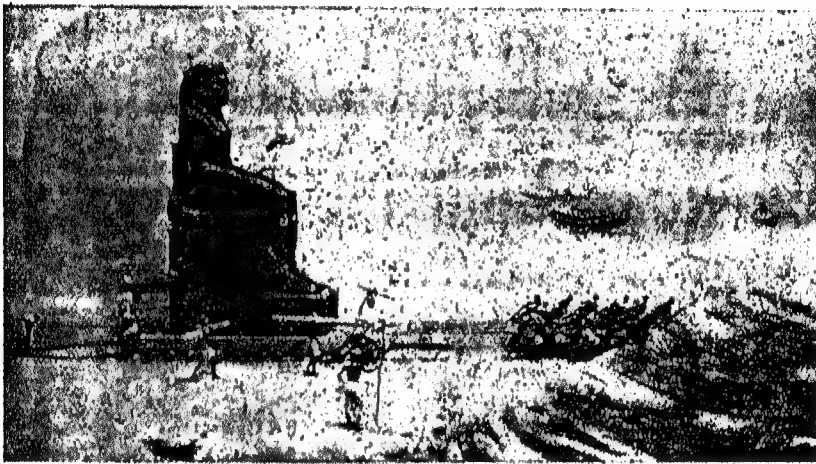
نموذجان للمخازن التى كان يحفظ فيها الفلاح المصرى غلاله
النموذج الأيسر ، وهو من الأسرة الأولى ، يتألف من قدور من الفخار
والأيمن ، وهو من الأسرة السادسة يتفق والكلام المذكور فى المتن .

حيوان المصرى القديم وطيوره :

وكان الفلاح المصرى القديم يعنى بحيوانه ويتفنن فى تدليله ، وأهم هذا الحيوان : البقر ، والغنم ، والحمير ، والكلاب ؛ أما الحصان فلم يعرفه المصريون إلا بعد الهكسوس ، كذلك ظل الجمل مجهولا حتى عهد اليونان . وولع الفلاح بصيد السمك والطيور ، وكانت برك الدلتا ملاءى بالبط بأنواعه ، أما الدجاج فلم يعرفه المصريون حتى عهد الدولة الحديثة ، حين عادت إحدى حملات تحوتمس الثالث من الشام تحمل أشياء كثيرة ومخلوقات عجيبة ، من بينها طيور "تبيض كل يوم بيضه".

حال الفلاح المصرى القديم :

وكان الفلاح المصرى القديم مرتبطاً بالأرض ؛ ينتقل معها من مالك الى آخر كأنه جزء منها ، وإذا قصر بفزاؤه الجسد ؛ وعليه إذا جاء الفيضان وأصبح العمل فى الحقل مستحيلا ، أن يقوم بعمل آخر فى خدمة فرعون أو حاكم الولاية التى ينتمى إليها ، فينقل الأحجار التى يقطعها العمال من المحاجر ، الى حيث يريد كل منهما أن يبنى مقبرته أو معابد آلهته .



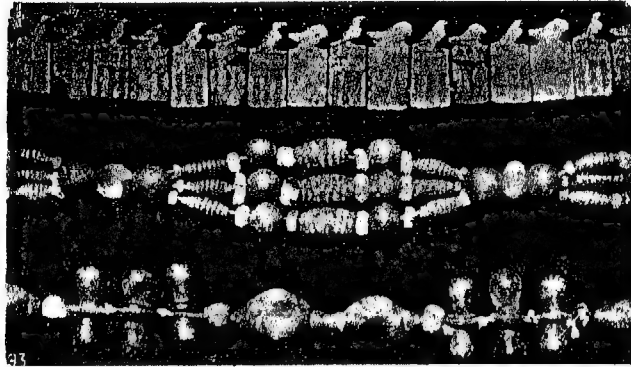
صورة تكويينة لفلاحين يجرون تمثال أميرهم (الدولة الوسطى)

الصناعة

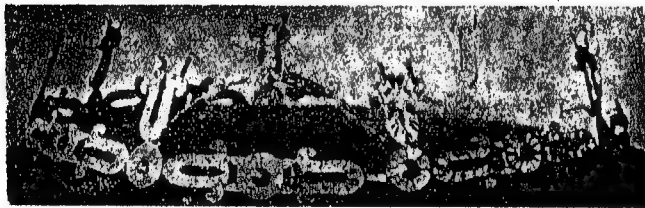
تحتوى متاحف العالم الشهيرة عدداً عظيماً من عجائب المصنوعات المصرية القديمة ، التى تدهش أهل العصر الحاضر بجمالها ودقتها ، وتشهد بمهارة قدماء المصريين فى مختلف العصور .

الحلى :

برع المصريون إبان عهد الأسرات فى استعمال الذهب والأحجار الكريمة المختلفة ، كالزمررد والفسبار واللازورد ، فى صناعة الحلى الكثيرة التى تزينوا بها رجالاً ونساءً ، ومن أقدم تلك الحلى أساور عثر عليها فى مقبرة أحد ملوك الأسرة الأولى .

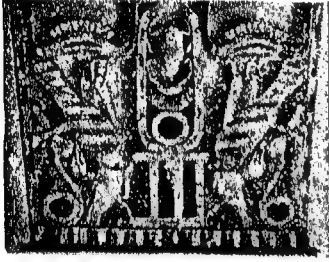


أساور من الأسرة الأولى



تاج من الذهب مطعم بالأحجار الكريمة لإحدى أميرات الأسرة الثانية عشرة

ومن أجمل الحلى شكلاً وأتقنها صنعاً ، تلك التى وجدت بجهة دهشور ،



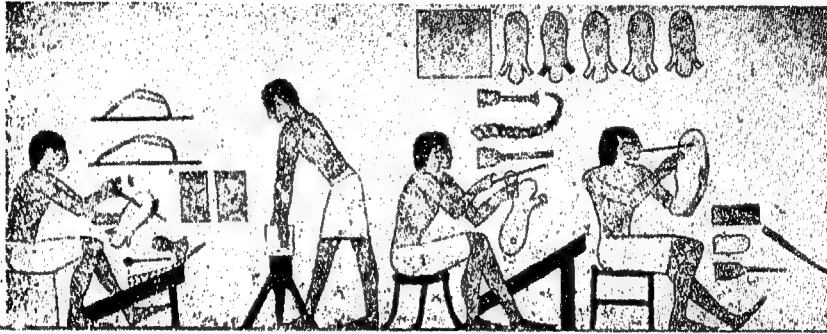
وهى لإحدى أميرات الأسرة الثانية عشرة ، ويتجلى حسن الذوق فى تطعيمها بالأحجار الكريمة ، ويصعب على أمهر صاغة العصر الحاضر أن يصنعوا أحسن منها .

صدرية لسنوسرت الثانى من حل الدولة الوسطى

ويمثل كمال الصياغة فى عهد الأسرة الثامنة عشرة فى الصدرىات والأساور والقلائد والخواتم المطعمة بالأحجار الكريمة ، التى عثر عليها فى مقبرة توت عنخ آمون ، وكلها محفوظة فى خزانات خاصة بالمتحف المصرى .

الورق وصناعات أخرى :

كان المصريون القدماء أول من صنعوا الورق فى العالم ، وصدّروه إلى الشام وغيرها من البلاد المجاورة ، فكان مورد ثروة كبيرة لهم ، ومما ساعدهم على ذلك وفرة نبات البردى ، الذى استخدموه فى تلك الصناعة ، ومن هذا النبات أيضاً صنع المصريون أشياء أخرى كثيرة ، مثل : السلال ، والنعال ، والحبال ، وخفاف القوارب .



صناعة الأحذية

النسيج :

ولقد امتاز النساء بإتقان صناعة النسيج ، فأخرج النول المصرى القديم نسيجاً رقيقاً جداً يحكي أحسن أنواع الحرير فى الوقت الحالى ، وعلى النول صنع المصريون نوعاً جميلاً من السجاجيد ، تعلق على جدران القصور ، وتفرش فوق أرضها .

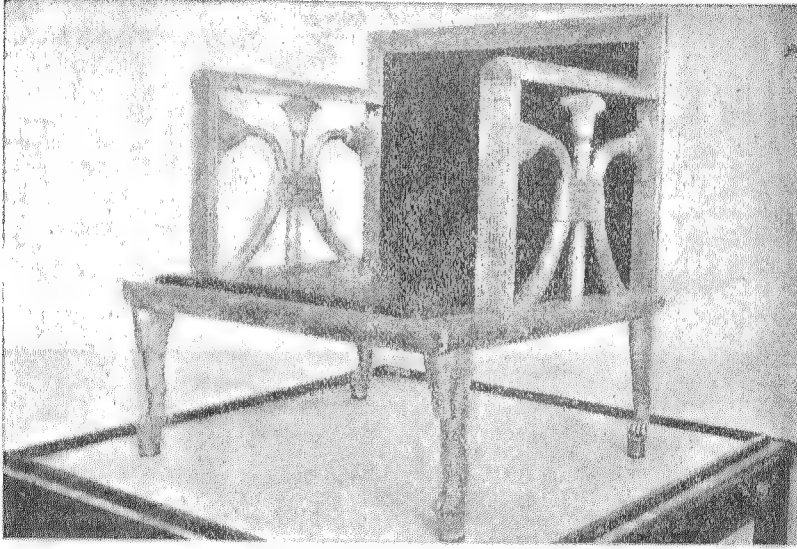


سيدات ينزلن وينسجن

الأثاث وبناء السفن :

ومن خشب الجيز الذى ينمو بمصر ، وخشب الارز الذى يرد من الشام ، صنع المصريون القدماء توابيت الموتى والأثاث ، من أَسِرَّة ومقاعد وكراسى وغيرها ، وكسوها قشرة من الذهب ، وطعموها بالعاج والأبنوس ، وفرشوها بوسائد من الجلد الناعم أتقنوا ديبه وصباغته ، ومن أجل أنواع الأثاث ذلك الذى عثر عليه فى مقبرة توت عنخ آمون ، من عصر الدولة الحديثة ، حين كان الترف مضرب الأمثال .

ومن خشب الأرز أيضاً صنع المصريون سفنهم اللازمة لأسطولهم أو لنقل متاجرهم .

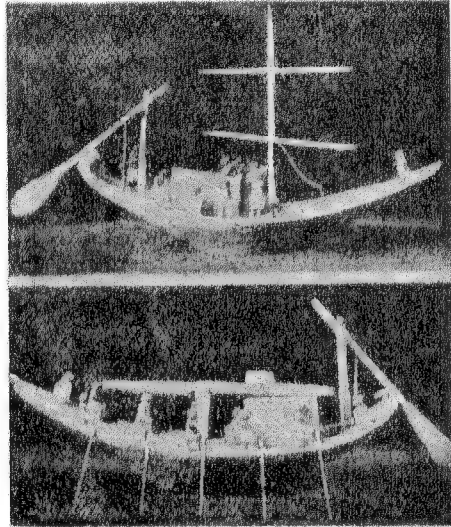


كرسى من الدولة القديمة

التجارة

التجارة الداخلية :

اشتغل المصريون بالتجارة من أقدم العصور ، فكان النيل والترع — وهى أهم طرق النقل الداخلية عندهم — غاصة بالقوارب والسفن ، التى تنقل البضائع والسلع إلى الأسواق .



نماذج لقوارب مصرية قديمة

المقايضة :

وكانت المقايضة أساس التبادل بينهم ، وكثيرا ما نشاهد بين النقوش الظاهرة على جدران آثارهم ، رسوما تمثل هذا النوع من المعاملة .



منظر لسوق مصرى قديم

ترى فى الجزء العلوى إلى اليسار زوجة التجار تعرض على بائع السمك صندوقا خشبيا صغيرا مقابل سمكة تود أن يتباعها ، فى حين تتفاوض زوجة صانع الفخار مع بائع العطور على أن تشتري شيئا من بضاعته وتعطيه آيتين من الفخار

أول عملة فى العالم :

ومع أن المقايضة كانت الطريقة الغالبة فى التجارة ، إلا أن المصريين استعملوا حلقات من الذهب والنحاس ذات وزن ثابت ، فكانت أول عملة عرفها التاريخ . كما أنهم استعملوا أوزانا من الحجر ، وعرفوا كل مستلزمات التجارة والمعاملات ، من دفاتر الحساب والعقود ، واحتاجوا بذلك إلى طائفة من الكتاب حذقوا الكتابة وبرعوا فى المحاسبة .

التجارة الخارجية :

وكان المصريون ملاحين مهرة ، جالوا في البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وكانت سفنهم تخرج إلى الشام محملة بمحصولات مصر ، ولا سيما ورق البردى والكثبان ، وتعود منها بخشب الأرز والنحاس ، وكذلك تاجر المصريون مع رودس وقبرص وكريت .

وأرسل الفراعنة البعوث من وقت لآخر إلى بلاد پنت (الصومال) ، لجلب أشجار المر ، وأنواع الصمغ العطرية ، والبخور اللازم لمعابدهم . وكانت هذه البعوث ، في عهد الدولة القديمة ، تخترق طريق القوافل ، فتجتاز الصحراء مبتدئة من قفط ، مارة بوادي الحمامات ، الغنى بالذهب وحجر البازلت ، حتى تصل إلى القيصير ، على البحر الأحمر ، فتأخذ السفن منها إلى بلاد پنت . فلما وصل ملوك الدولة الوسطى النيل بالبحر الأحمر ، بترعة اخترقت وادي طميلات ، أخذت السفن تسير فيها من الدلتا إلى بلاد پنت ، وهذا هو الطريق الذي سلكته بعثة حاتشپسوت .

احتكار الحكومة للتجارة الخارجية :

وكانت التجارة الخارجية من أعمال الحكومة وحدها ، فلم يقيم بها الشعب شركات وأفرادا ، كما هو الحال في عصرنا الحالى ، ولعل السر في ذلك أن الحكومة كانت محتكرة تجارة الخشب مع الشام ، وبذا احتكرت السفن الكبيرة الصالحة للسير في البحار .

الفصل الثانى

الفنون

العوامل التى أثرت فى الفن :

كانت مصر مهد الفنون ، وقد تأثر الفن المصرى القديم باعتبارين هامين هما :
العقيدة الدينية ، والبيئة التى أحاطت بسكان البلاد .

١ — العقيدة الدينية :

اعتقد المصرى القديم أن الحياة ستعود إلى الجسم بعد الموت ، فحرص على تخنيط جثث موتاه فى مدافن منيعة ، زين جدرانها بكتابات ونقوش تمثل مناظر مختلفة لليت ، وهو يراقب الخدم فى أثناء قيامهم بخدمته والمحافظة على روحه بعد موته ؛ ووضع التماثيل فى المقابر ، حتى إذا لحق الجنة العطب حلت الروح فى التمثال ، وإلى هذا الاعتقاد يرجع الفضل فى وجود العدد العظيم من التماثيل المصرية القديمة ، التى يعتبر بعضها أبجل أمثلة النحت فى العالم كله .

كذلك حرص المصرى على إرضاء آلهته ، فبنى لها المعابد الضخمة من الحجر الصلد واهتم بتنميقها وزخرفة جدرانها .

٢ — البيئة :

ولقد تأثر المصرى فى كل ذلك بالبيئة التى أحاطت به ، فالشمس ، التى تشرق عليه بأشعتها الساطعة طوال أيام السنة ، دعت به أن يجعل جدران معابده خالية من النوافذ ، واكتفى بالضوء الذى يتفد إليها من مداخلها المفتوحة ، أو من طاقات صغيرة فى السقف ، أو من ثقوب فى أعلى الجدران ؛ وعلى هذه الجدران الصماء رسم نقوشاً دقيقة قليلة البروز تمثل معتقداته الدينية وأعماله فى الحياة ، ولاحظ أن النقوش الداخلية لا تظهر واضحة فى الضوء المعتم ، فعمد إلى توضيحها بالألوان .

واتخذ المصري القديم نماذجها كلها من مظاهر الطبيعة كما رآها ، فأقام أسقف مبانيه مثلاً على أعمدة شبيهة بالنخيل الباسقة الأغصان ، أو بسيقان اللوتس المنتهية أعاليها براعم ذلك النبات ، كما جعل أساس زخرفته زهرة اللوتس وزهرة البردى فأوجد منهما مئات الأشكال الزخرفية المشجرة التي حلّ بها آثاره .

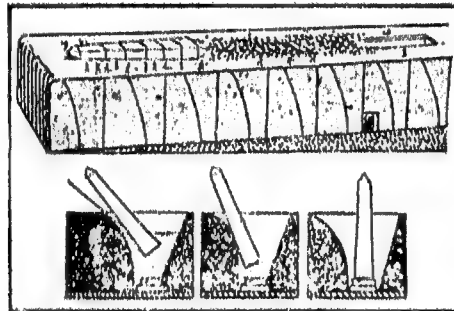
وسنلخص فيما يلي التطورات التي لحقت أهم الفنون في عصور المدينة المصرية القديمة :

العمارة :

تجلت دقة العمارة ومئاتها ، في عهد الدولة القديمة ، في آثار سقارة ، وأهرام الجيزة ومعابدها ، كذلك في المصاطب الحجرية الضخمة التي بناها الأشراف لأنفسهم حول أهرام ملوكهم .

فلما كانت الدولة الوسطى بنى الملوك أهرامهم من الآلئين ، لأنهم أدركوا أن استخدام عدد كبير من الأيدي العاملة في بناء أهرام ضخمة ليس من الأمور الاقتصادية التي تعود على البلاد بالخير . وأقلع أمراء هذا العصر عن إقامة المصاطب الحجرية حول أهرام ملوكهم ، وحفروا مقابرهم في الصخور ، كما أسلفنا .

وفي عهد الدولة الحديثة كثرت المسلات والمعابد ، وأصبحت هذه تبني على مساحة أوسع مما كانت عليه في أي فترة أخرى ، وذلك لأن الأموال تدفقت إلى مصر من البلاد التي خضعت لها ، وتعتبر معابد طيبة خير مثل لذلك .

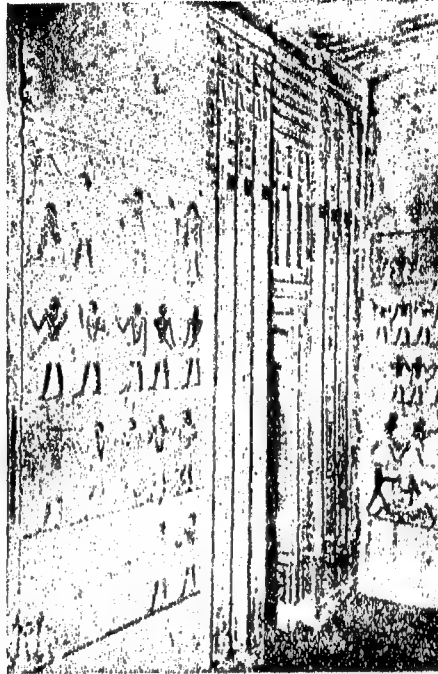


كيف كان المصريون القدماء يقيمون مسلاتهم

النقش والرسم والتصوير :

وكما امتاز عصر الدولة القديمة بضخامة مبانيه ومتانتها ، امتاز كذلك بجمال رسومه ، كما يتبين من النقوش البارزة الظاهرة على جدران مقابر الأسرتين الخامسة والسادسة ، ولاسيما مصطبة الوزير بتاح حتب ، ومصطبة الأمير قى فى سقارة ، فتشاهد فى الأخيرة رسوم تمثل خدم الأمير يحرقون الأرض ويبذرون الحب ويجمعون المحصول ويتعهدون الماشية والطيور ، كما تمثل النجارين والحداين فى عملهم ، والأمير واقفا فى قاربه يصطاد أو يتقبل الهدايا .

ويلاحظ على فن الرسم فى هذا العصر أن قواعد المنظور تكاد تكون معدومة فيه ، فإذا أراد الفنان أن يرسم شيئا وراء شيء آخر فما عليه إلا أن يضعه فوقه ، كما كان يرسم الإنسان جانبيًا ، ولكنه يجعل كتفيه كأنهما ينظر إليهما من الأمام ، وعلى كل حال ، فقد برع المصريون فى الرسم والتصوير



نقوش على جدران مصطبة بتاح حتب بسقارة

كما تدل على ذلك اللوحات الفنية الرائعة الجمال التي تنسب الى الدولة القديمة ،
ومنها لوحة عثر عليها في إحدى مصاطب ميدوم ، وهي تمثل منظرأ بديعاً ملوناً لـِست
أوزات تبحث عن غذائها ، ولا تزال ألوانها محتفظة برونقها القديم .



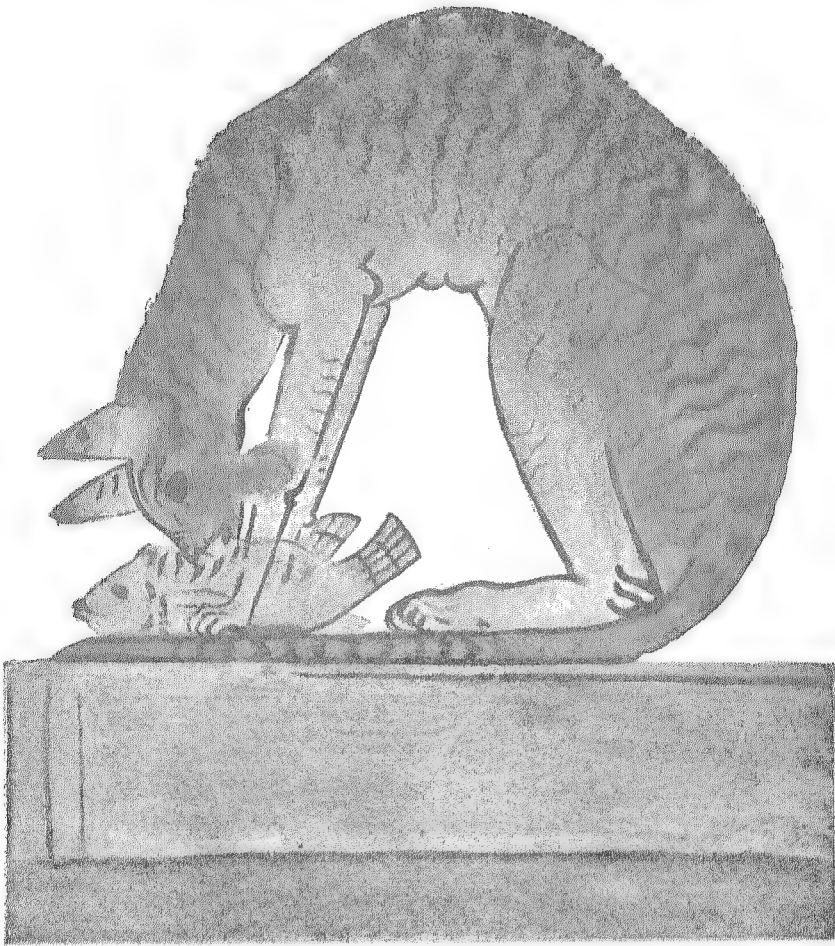
نقوش على جدران مصطبة "ق" بمقارة وترى النجارين يقومون ببناء قوارب



وحة عثر عليها في إحدى مقابر الأسرة الرابعة بميدوم ، وتمثل ست أوزات تبحث عن غذائها
(المتحف المصرى)

ولقد استعاض أمراء الدولة الوسطى بالتصوير عن النقوش البارزة فأكثروا
منه على جدران مقابرهم المحفورة فى الصخور ، وتتحصر أهمية هذا التصوير
فى أنه يمثل الحياة فى ذلك العصر تمثيلاً صادقاً .

وفى عصر الدولة الحديثة تسابق الفنانون المصريون فى إتقان أعمالهم
وإجادتها ، فشاع نقش الجدران وتحليتها بالرسوم ، ونقش فراغة الدولة الحديثة
جدران معابدهم نقوشاً بارزة تمثل حياتهم وحروبهم وانتصاراتهم فى البر والبحر .



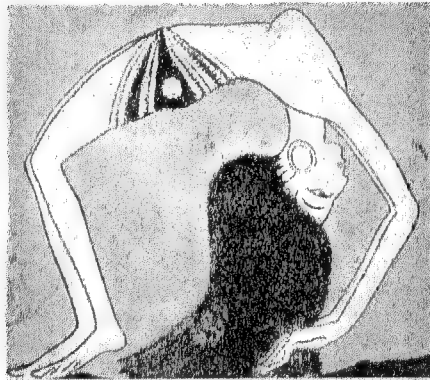
قطه تاكل سمكة
(رسم باحدى مقابر طيبة)

ولم يقتصر الأمر على جدران المعابد ؛ بل شمل جدران القصور وأرضها ،
فكانت قصور امنحتب الثالث وإخناتون محلاة بالنقوش الجميلة الزاهية ، من
أزهار وطيور وحيوانات ، كل في بيئته الطبيعية .



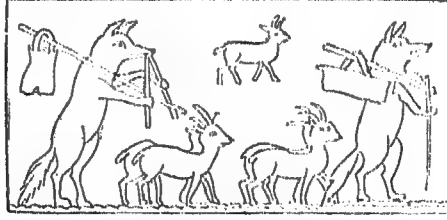
نقوش قصر أخناتون

ومن القطع الفنية الجميلة ، التي تدل على مهارة الفنان في عصر الدولة الحديثة
وعلى أخذه نماذجه من الحياة مباشرة ؛ رسم لفتاة تقوم بألعاب بهلوانية ، وآخر
لقطة تأكل سمكة .



فتاة تلعب ألعابا بهلوانية (الأسرة التاسعة عشرة)

ولقد وجد المصريون في التصوير مجالا واسعا للتعبير عن روح الفكاهة ، التي امتازوا بها ، ومن هذا النوع : رسم مجوف ، ورد على ورقة بردى محفوظة في المتحف البريطاني بلندن ، يمثل حيوانات تقوم ببعض أعمال الإنسان ، وهو يدل على روح المصريين المرحه ، التي مازالت قوية فينا !



رسم مجوف من عهد رمسيس الثالث

النحت :



تمثال الأميرة نفرت



تمثال الأمير رع حتب

نحت المصريون ، في عهد الدولة القديمة ، تماثيل كثيرة من الحجر الجيري الملون ، وصنعوا بعضها من الخشب وحجر الجرانيت . ومن أهم تماثيل هذه الفترة : تمثال الملك خفرع ، المصنوع من حجر الديوريت الأخضر (ص ٣٨) وتمثالان عثر عليهما في ميدوم ، أحدهما للأميرة نفرت ، والآخر لزوجها الأمير رع حتب الذي كان قائدا ورئيسا للكهنة في هليوبوليس "عين شمس" ، وتمثال شيخ البلد^(١) وكلها محفوظة بالمتحف المصري ، كذا تمثال الكاتب الجالس القرفصاء المحفوظ بمتحف اللوفر في باريس .



شيخ البلد — تمثال من الخشب



تمثال الكاتب — متحف اللوفر

أما تماثيل الدولة الوسطى فهي أقل إتقاناً من تماثيل الدولة القديمة ، لكنها لم تخل من مزايا فنية ، كما هو ظاهر في تمثال رأس اممحييت الثالث

(١) أطلق على التمثال هذا الإسم عمال بلدة سقارة الذين هُربوا إليه في القرن الماضي لأنهم رأوا فيه شها كبيرا لشيخ بلدهم وقتئذ ، ولعله لأحد رؤساء العمال الذين اشتركوا في بناء أهرام الجيزة .

المصنوع من الزجاج الطبيعي ، الذى يدل على مقدرة الفنان فى إظهار ملامح الوجه بوضوح ، على الرغم من صلابة المادة التى صنع منها (شكل ص ٦٧) .

ومن التماثيل الجميلة التى تنتمى إلى الدولة الوسطى تلك التى عثر عليها فى معبد سنوسرت الأول الواقع إلى الشرق من هرمه باللشت ، وهى منحوتة من الحجر الجيرى ، وتمثل الملك جالساً .

وصل فن النحت فى ذلك العصر إلى مرتبة عظيمة ، تتجلى فى تمثال الملكة تفرتيق زوجة إخناتون ، وفى تماثيل أخرى صغيرة ، منها تمثال خادم يحمل فوق ظهره حرة ثقيلة .



خادم يحمل جرة (الأسرة التاسعة عشرة)

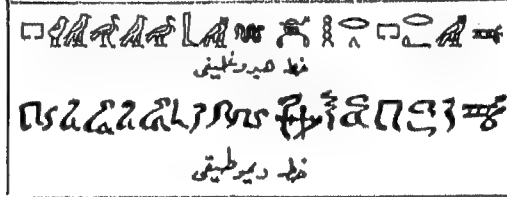
الفصل الثالث

العلوم والآداب

الكتابة

المصريون وفن الكتابة :

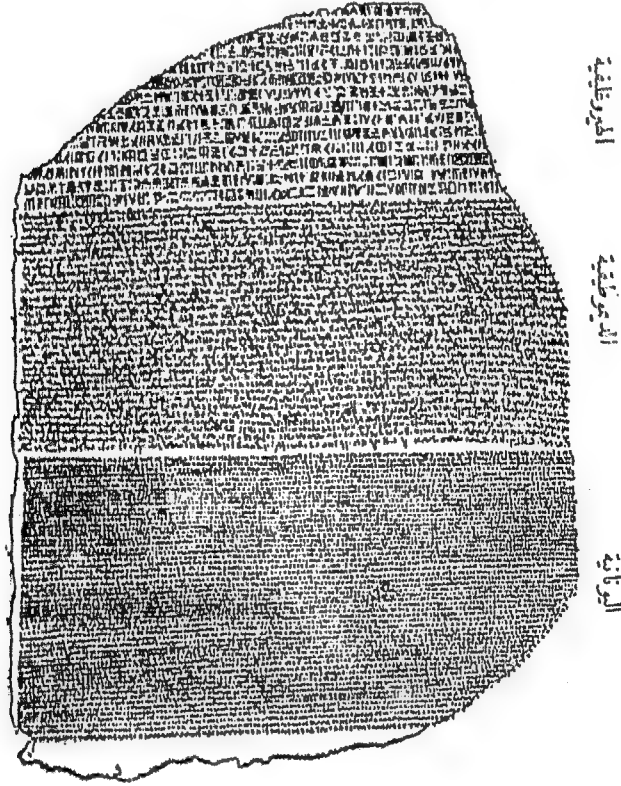
للمصريين القدماء فضل عظيم على العلم ، إذ كانوا أول من عرفوا فن الكتابة واستعملوا صور الحيوانات والأزهار والطيور وغيرها لتدل على الكلمات ، ثم اختصروا هذه الصور إلى عدد معين تكوّن منه حروفهم الهجائية ، وتعرف هذه الكتابة بالهيرغليفية أى "الحروف المقدسة" ، وكانت تكتب من اليمين إلى اليسار ، أو من اليسار إلى اليمين ، أو من أعلى إلى أسفل ، ولما كانت هذه الكتابة صعبة الاستعمال فى الأعمال العادية فقد اخترها المصريون القدماء إلى كتابة أبسط منها تعرف بالهيراطيقية ، تكتب من اليمين إلى اليسار ، وبها دُوّنَت أغلب الأدبيات المصرية القديمة . وفى القرن السابع ق . م . اخترلت هذه الكتابة إلى نوع أبسط منها يعرف بالديموطيقية ، التى حلّت محلها الكتابة القبطية ، حوالى القرن الثالث بعد الميلاد .



وعن الديموطيقية أخذ الفينيقيون كتابتهم وجعلوها مكونة من اثنين وعشرين حرفاً ساكناً ومتحرّكا ، أخذها عنهم اليونان ، ومن اليونان تعلّمها الرومان ، وبذلك تكون الكتابة المصرية القديمة أساس كتابة جميع الأمم المتمدينة فى الوقت الحاضر .

حجر رشيد :

وقد ظل مدلول الكتابة المصرية القديمة مجهولاً إلى الربع الأول من القرن الماضي ، ثم حدث في أثناء احتلال الفرنسيين مصر ، في آخر القرن الثامن عشر ، أن عثر أحد ضباط نابليون ، بالقرب من رشيد ، على حجر أسود غير منتظم الشكل ،



حجر رشيد

طوله يزيد على المتر قليلا ، وعرضه سبعون سنتيمترا ، وعلى سطحه الأملس كتابات هيرغليفية وديموطيقية ويونانية ، فلما أجلى البريطانيون الفرنسيين عن مصر ، استولوا على هذا الحجر ، وأودعوه المتحف البريطاني بلندن ، وتبين من ترجمة الكتابة اليونانية أنها تتضمن مديحا كتبه الكهنة المصريون للملكهم بطليموس الخامس ، اعترافا بفضلته ^(١) وقد عكف بعض العلماء على فك رموز الكتابتين

(١) حكم البطالة مصر من ٣٢٣ — ٣٠ ق م .

المجهولتين (الهيروغليفية والديموطيقية) مسترشدين بالكتابة الثالثة التي يعرفونها ، ولكنهم لم يتقدموا في ذلك كثيرا . وفي سنة ١٨٢٢ وفق إلى حل تلك الرموز العلامة الفرنسي شامبلون ، وذلك بمقارنة أسماء الأعلام في الكتابات الثلاث .

وعندئذ تسابق العلماء الأجانب في كشف كثير من نواحي المدنية المصرية القديمة ، وأخذت الجامعات الأوروبية والأمريكية توفد بعوثها عاما بعد عام ، لتقوم على دراسة آثار مصر العظيمة ، وتنظم أعمال الحفر والبحث عنها ، وفي جامعتنا اليوم معهد للآثار يعني بهذه الأعمال .

العلوم العملية

اتضح من دراسة أوراق البردي القديمة أن المصريين القدماء أخذوا بنسب وافر من الحساب والهندسة والفلك ، كما كان لهم شأن خاص في الطب .

الحساب :

ففي الحساب عرف المصريون الرموز العددية حتى المليون ، وكان يرمز إلى الآحاد بخطوط حتى رقم تسعة ، ويرمز للعشرات بحلقات مفتوحة من أسفل ، من العشرة الأولى إلى العشرة التاسعة ، وللثلاث بحلزون من المائة الأولى إلى المائة التاسعة أيضا . وعلى هذا كان الضرب في عشرة عملية سهلة ، إذ ما على المرء إلا أن يحول الخطوط ، إلى حلقات أو الحلقات إلى حلزونات ، كذلك استعمل المصريون القدماء الكسور .

الهندسة :

ولم يقل تقدم المصريين في الهندسة عن تقدمهم في الحساب ، فعرفوا بالضبط مساحة المربع والمستطيل والمثلث ، ووصلوا إلى مساحة الدائرة بالتقريب ، وذلك بتربيع $\frac{1}{4}$ قطرها ، وقدرها حجم متوازي المستطيلات وحجم الهرم الناقص تقديرا صحيحا ، وهذا مما يدعو إلى الإعجاب .

الفلك :

نبغ المصريون في الفلك ، وكانوا أول أمة في العالم ابتكرت التقويم السنوى ، فقد لاحظ سكان الدلتا ، الذين عاشوا في عصر ما قبل الأسرات ، ظهور نجم الشعري اليمانية ^(١) في الأفق الشرقى ، وقت شروق الشمس في يوم معين من السنة ، ثم حسبوا الفترة بين ظهوره كذلك مرتين ، فوجدوها ٣٦٥ يوماً ، فقالوا إن السنة تتكون من ٣٦٥ يوماً ، وقسموها إلى ثلاثة فصول ، كل منها أربعة أشهر : أولها الفيضان ، وثانيها البذر ، أى الشتاء ، وثالثها الحصاد ، أى الصيف ، وقسموا كل شهر من الاثنى عشر شهراً إلى ثلاثين يوماً ، حفظاً للنظام وتسهيلاً للدواول ، ثم جعلوا الأيام الخمسة الباقية فترة عطلة وأعياد . وقد دلت الأبحاث الفلكية الحديثة على أن هذا العمل العظيم تم في عام ٤٢٣٦ ق.م .

المصريون القدماء لم يعرفوا السنة الكبيسة :

ويظهر من هذا أن المصريين ، في ذلك الزمن البعيد جداً ، لم يعرفوا السنة الكبيسة ، فكانت سنتهم تنقص كل عام ربع يوم ، وبمرور الزمن ارتبك نظام الفصول في التقويم ، فلم تعد توافق الفصول الحقيقية إلا بعد مرور ١٤٦٠ سنة ، ثم ارتبك النظام مرة أخرى ، وهكذا . ومن الملاحظات الطريفة في هذا الموضوع ما جاء في كراسة تلميذ عاش أيام الأسرة التاسعة عشرة ، إذ كتب عبارة نقلها عن أديب قال فيها : ” هَلُمَّ إِلَى يَا إلهى آمون ، وأنقذنى من السنة التى اختل نظامها ، فلم تعد الشمس تشرق بأشعة متوهجة ، حتى حلَّ الشتاء محل الصيف وتراجعت الشهور ! “ .

التقويم المصرى القديم أصل التقويم الحالى :

ومهما يكن من شيء ، فالمهم أن نلاحظ أن التقويم المصرى القديم ، الذى اخترع في القرن الثالث والأربعين ق.م . ، هو التقويم الحالى الذى ورثه العالم بعد سنة آلاف سنة ، مع تعديل طفيف .

(١) كان لهذا النجم شأن خاص عند المصريين القدماء عموماً ، فقد كان ظهوره عندهم يدل على قرب فيضان النيل ، ولذا اتخذوه أساساً للتقويم .

أقدم ساعات العالم — المزولة :

ولقياس الزمن ، اخترع المصريون القدماء المزاول لمعرفة الوقت نهائياً ،
والساعات المائية لمعرفة ليلاً . ويتكوّن أبسط أنواع المزاول من قضيب خشبي

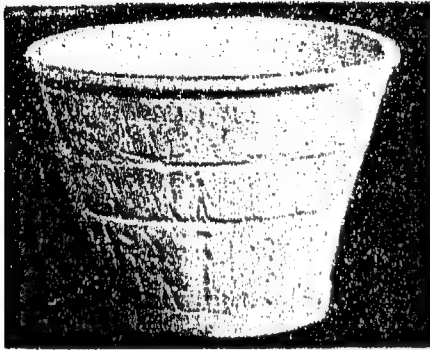


المزولة المصرية القديمة

عليه خطوط تدل على الساعات ، وفي أحد طرفيه كتلة خشبية يعرف الوقت
بسقوط ظلها على خطوط القضيب ، ولذلك توضع بحيث تكون في الشرق صباحاً
وفي الغرب مساء .

الساعة المائية :

وتتكوّن الساعة المائية من إناء يُملأ إلى حافته بالماء ، ويتقطر الماء ببطء من



ساعات مائية من الأسرة الثامنة عشرة

ثقب صغير في أحد جوانب
القاعدة ، فينخفض سطحه إلى
العلامات المنقوشة بداخل الإناء ،
فتدل تلك العلامات على الساعات
في مختلف الشهور . وفي المتحف
المصري ساعة من هذا الطراز ،
مصنوعة من المرمر ، عثر عليها
في الكرنك ، وتنسب إلى

عصر أمنحتب الثالث ، من الأسرة الثامنة عشرة ، وقد ظل هذا النوع من
الساعات مستعملاً في المعابد المصرية إلى ما بعد عهد الإسكندر الأكبر بزمان طويل .

الطب — الوصفات والتعاويذ السحرية :

كان الطب المصرى القديم — كما هو ثابت مما عثر عليه من أوراق البردى المختلفة — مجموعة من الوصفات والتعاويذ السحرية ، ومن هذه الوصفات التى عرفها المصرى القديم أدوية بسيطة لا يزال استعمالها شائعاً حتى اليوم : فزيت الخروع مثلاً من المسهلات التى أشار بها المصريون واستعملوها . وقد تأثرت فائدة هذه "الأدوية" باعتبارين غريبين : أولهما ، الاعتقاد الخرافى بأن الدواء لا يكون فعالاً إلا إذا حوى مادة قذرة ، كروث البهائم ، وثانيهما ، الاعتقاد الراسخ فى السحر ، فكان كل دواء تقريباً يقترن تناوله بتعاويذ سحرية .

مؤلف مصرى قديم فى الجراحة :

ومع كل هذا فقد ترك المصريون القدماء مؤلفاً هاماً فى الجراحة ، كتبوه على أساس علمى صحيح . والظاهر أنه كان من الكتب المستعملة فى مدارس الطب عندهم ، وهويل على أن الجراحين المصريين شخصوا كثيراً من الحالات تشخيصاً صحيحاً وعرفوا طريقة علاجها ، ومن المحتمل أن يكون لقدماء المصريين فضل السبق على اليونان فى هذا الميدان .

التحنيط :

ولقد برع المصريون فى فن التحنيط ، حتى أصبح فى عصر الدولة الحديثة ميسوراً للفقراء ، ووصل تحنيط جثث الفراعنة إلى أعلى درجة من الإتقان فى عهد الأسرة الحادية والعشرين . وكانت أحشاء الميت تتمتع عند تحنيط جثته ، وتحفظ فى قدر خاص عليه غطاء يمثل رأس أحد الآلهة .



رأس سيقى الأول مخططة

وليس أدل على مقدرة المصريين القدماء فى هذا الفن ، من موميات (١) الملوك والأمراء

(١) الجثث المخططة .

التي أُنحِرت من قبورها وما زالت تحتفظ بشكلها البشرى احتفاظاً مدهشاً بعد
آلاف الأعوام ، حتى أن
الإنسان يرى الاظافر وشعر
الجلد والراس باقية كما كانت
في اثناء الحياة ! وقد حاول
العلماء أن يكشفوا سر هذا
الفن العجيب ، ولكنهم
أخفقوا .



قدور كانت تحتفظ فيها أحشاء الميت

الأدب

موضوعه :

ترك المصريون القدماء تراثاً أدبياً مجيداً ، نقشوه على الأحجار ودونوه على أوراق
البردى ، عالجوا فيه موضوعات دينية ودنيوية ، فمن شرح عقائد قديمة ، إلى حكم
خالدة ، وأمثلة رائعة ، إلى قصص بعضها حقيقى وقع للكُتاب أو لمعاصريهم ،
وبعضها خرافى ينم عن خيال خصب ، وتصوير بعيد المدى ، إلى أناشيد رصينة
الأساليب . وكان تلاميذ المدارس يحفظون كثيراً من هذه الأدبيات عن ظهر
قلب ، وينسخونها مراراً في كراساتهم المصنوعة من ورق البردى ، ليجيدوا
صناعة الكتابة والإنشاء ، ولهذه الكراسات الفضل فى الاحتفاظ بأحسن أنواع
الأدب المصرى القديم ، لأن أغلب أوراق البردى التى عثر عليها هى من تلك
الكراسات نفسها .

١ - الأدب الدينى

نصوص الأهرام :

وأقدم ما جاء فى الأدب الدينى هى تلك النقوش الميروغليفية الظاهرة على
جدران الأهرام فى سقارة ودهشور والتى تعرف بنصوص الأهرام .
وقد رأينا أن الملك أوناس ، احد ملوك الأسرة الخامسة ، كان اول من
دون هذه النصوص على هرمه القائم بسقارة ، وعرفنا الغرض منها وفق معتقدات
المصرى القديم (ص ٤٨) .

أغنية أخناتون :

ومن أحدث ما تركه المصريون من هذا النوع من الأدب ، الأغنية التي وضعها
إخناتون لإلهه "آتون" ، وفيها يتحدث عن العبد وإخلاصه لإلهه القوى الواحد ،
وقد مرّ بنا بعض هذه الأغنية في الكلام عن ثورة أخناتون الدينية (ص ٩٤) .

كتاب الموتى :

على أننا نجد أعظم ثروة أدبية دينية للمصريين القدماء في كتاب الموتى ، وهو
يتكوّن من لفائف من ورق البردي كانت توضع في التابوت إلى جانب الميت
وتحوى تعاويذ سحرية اعتقد المصري القديم أنها تحفظ الروح من الأخطار التي
تهدها في الدار الآخرة ، فتمنع عنها نهش الثعابين والأخطار السامة ، وتقيها شر
الأرواح الشريرة ، عند ما تزور الجنة في القبر . ويصحب معظم هذه التعاويذ رسوم
جميلة ملونة ذات قيمة فنية كبيرة .



من كتاب الموتى — زيارة الروح للجنة

٢ — الأدب الدنيوى

نصائح بتاح حتب :

أما الأدب الدنيوى فأقدم ما ورد فيه نصائح للحكيم بتاح حتب ، وزير الملك
إسيسى من ملوك الأسرة الخامسة ، وقد ذكرنا بعض أمثلة منها (ص ٤٧)

وصايا آنى :

ومن أحدث ما كتب فى هذا النوع من أدب السلوك وصايا ، يرجع عهدها إلى الدولة الحديثة ، تركها حكيم ، اسمه آنى ، لابنه — وإليك أمثلة منها :

”لا تجلس وغريك واقف ، ولا سيما إذا كان أكبر منك سناً ، ولو كنت أرفع منه منزلة ومقاماً . هلاك المرء فى لسانه فاحذر أن تضر نفسك . لا تردّ على رجل وهو غاضب ، بل ابتعد عنه . وتكلم بلطف مع من خاطبك بالفاظ جارحة ، فالكلمات الرقيقة تهدئ حدّته “ .

قصة سنوهى :

وتحوى لفائف البردى قصصاً طريفة عن الأسفار والرحلات فى عهد الدولة الوسطى ، نذكر منها قصة الأمير سنوهى ، الذى فرّ إلى سوريا بعد وفاة الملك أمنمحيث الأول (ص ٦٣) ، وفى سوريا تزوج سنوهى من ابنة رئيس إحدى قبائل الشام ، فمنحه أرضاً خصبة ، وقطيعاً كبيراً من الماشية . ومضت سنوات عدة وهو بعيد عن وطنه ، فحنّ إلى العودة إلى مصر ، وخاف أن يدركه الموت وهو غريب عنها ، فكتب إلى سنوسرت يطلب عفوّه ويستأذنه فى العودة إلى بلاده فمفعا عنه فرعون وسمح له بالرجوع ، وما كان أشدّ دهشة الملك حين رآه وقد تغير شكله وأطال لحيته ، على غرار ما كان يفعله أهل سوريا ، فرحب به وعينه موظفاً فى بلاطه ، ولم يفت سنوسرت أن يرسله إلى الحلاق ، فأزال لحيته ووضع سنوهى على رأسه شعراً مستعاراً ، كما كان يفعل الأمراء المصريون القدماء .

قصة البحار الغريق :

ولم تكن قصص الأسفار كلها من هذا النوع الذى تناول الأحداث التاريخية بل كانت هناك قصص أخرى خرافية ، نذكر منها قصة البحار الغريق ، وملخصها أن بحاراً ركب سفينة كبيرة فيها مائة وخمسون ملاحاً من نخبة المصريين ، الذين لهم قلب جسور كقلب الأسد ، وبينما كانوا مجتدين فى الاقتراب من البر ،

اشتدت الرياح، وهاجت الأمواج، ففرقت السفينة ، وهلك من فيها ، أما هو فألقته موجة على جزيرة وجد فيها ما يقتات به ، ثم سمع صوتاً كصوت الرعد، ولمح ثعباناً هائلاً يقترب منه ، وبعد محادثة قص فيها البحرى قصته ، أقام مدة مع الثعبان ضيفاً مكرماً ، ثم أتت سفينة حماته إلى بلاده ، واستحالت الجزيرة عند مغادرته إياها إلى بلحة من الماء .

وهذه القصة تشبه قصة السندباد البحرى الواردة بين أساطير ألف ليلة وليلة ، وتشبه أيضاً قصة روبنسون كروزو الشهيرة فى الإنجليزية . ومع أن حكاية البحار الغريق هى قصة خرافية بحته ، إلا أن مؤلفها صوّر حياة الملاحين والملاحه فى البحر الأحمر ، أيام الدولة الوسطى ، تصويراً صادقاً دقيقاً .

قصة القائد تحوتى :

وفى عهد الدولة الحديثة أنتجت الحروب الأسبوية قصصاً رائعة عن انتصارات الفراعنة وقوادهم ، نذكر منها قصة قائد ماكر من قواد تحوتمس الثالث اسمه تحوتى ، ويروى عنه أنه لما أراد أن يستولى على مدينة يافا ، خدع حاكمها بأن أدخل جنده إليها مخبئين فى زلع محمولة على حمير ، وهذه قصة شبيهة بقصة على بابا والأربعين لصاً ، الواردة بين أساطير ألف ليلة وليلة .

الشعر :

أما فى ميدان الشعر فقد نظم الشعراء القصائد الرائعة فى وصف انتصارات المصريين ، وأجادوا بصفة خاصة وصف معركة قادش ، وامتدحوا الشجاعة النادرة المثل التى أبدأها رمسيس الثانى فيها .

وقد نُقِشت هذه القصائد الخاصة بمعركة قادش على كثير من جدران معابد رمسيس ، وعثروا على قصائد أخرى نسخها على قرطاس بردى كاتب مصرى قديم ، يُدعى بنبأور ، فظن البعض أنها من نظمه ، والحقيقة أنه نسخها بحسب .

الفصل الرابع

المعتقدات الدينية

المصريون قوم يخافون الله :

كان المصري القديم يعتقد اعتقاداً راسخاً في وجود إله يشرف على أعماله وأفكاره ويحاسبه عليها ، ولم يكن يقوم بأى عمل دون أن يذكر اسمه ، أو يتوسل إليه أن يرشده إلى الطريق القويم ليسلكه ، لذلك عاش عيشة صالحة ، وكانت تعاليمه من أنبل التعاليم وأطهرها ، وهذا ما دعا هيرودوت إلى قوله المأثور ” المصريون قوم يخافون الله “ .

تعدد الآلهة :

وأهم ما نلاحظه على ديانة المصريين القدماء هو تعدد آلهتهم ، إذ كان لكل بلد إلهها الخاص الذى يحميها من الشر ، وكان يحدث بين حين وآخر أن تنتشر عبادة إله من هذه الآلهة المحلية ، عند ما يعظم شأن البلد التى يعبد فيها ، مثال ذلك : ما حدث فى أوائل الدولة القديمة ، حين انتشرت عبادة رع ، إله عين شمس ، وفى أيام الدولة الحديثة ، حين سادت عبادة آمون ، إله طيبة .



آمون

بيد أن تعدد الآلهة اختفى مدة قصيرة أيام الأسرة الثامنة عشرة ، حين تمس أخناتون للنشر ديانة آتون (قرص الشمس) التى كانت وحدانية خالصة كما رأينا (ص ٩٢-٩٤) .

آلهة في شكل حيوان :

اعتقد المصريون القدماء أن الآلهة كانت تزور الأرض دائماً لتراقب أعمال



حتمور في شكل سيدة
برأس بقره



أنوبيس

الإنسان ، فتسكن أجسام حيوانات شتى ، وبذا أصبحت أغلب الحيوانات مقدسة في نظر المصريين : فابن آوى مثلاً يمثل أنوبيس ، إله التحنيط ، والبقره ، أقدم الحيوانات ، تمثل الإلهة حتمور ، إلهة النساء والجمال والحب والموسيقى . كذلك كان للعجل ، المعروف بالعجل أيس ، مركز خاص في العبادة ، وكانوا يختارونه من بين مواليد البقر ، باجتماع عدة أوصاف فيه : كسواد جلده ، ووجود شامة بيضاء مثلثة

الشكل على جبهته ، وأخرى على جانبيه الأيمن في شكل هلال . وكان يوم الاهتداء إليه يوم سرور عام ، كما كان يوم موته ابتداء حزن شامل ، يستمر حتى يعثر القوم على عجل آخر تتوافر فيه جميع الصفات المطلوبة . وكانوا يحتفلون بدفن العجل أيس احتفالاً رهيباً في مقبرة عظيمة منحوتة في الصخر ، في سقارة ، تعرف بالسرايوم . ولا يزال بها عدد من توابيت العجول ، مصنوعة من الجرانيت والبازلت ، يرجع أقدمها إلى عهد الأسرة السادسة والعشرين .



مدفن العجول بسقارة

حيوانات نجسة :

وكانت هناك بضعة حيوانات اعتبرها المصري نجسة ، كالخنزير ، لايمسها أحد سوى رعاتها ، فإذا لمس أى رجل ، ولو بطرف قميصه ، خنزيراً ، وهو فى طريقه ، أسرع على الفور إلى النهر ليغتسل ، فينزل فيه بملابسه حتى يُطهر نفسه مما لحقه من رجس .

وكانت الثعابين والأفاعى تعتبر بصفة عامة آفات يجب القضاء عليها ، وكان بعضها مُقدَّساً ، كالحية ، التى كانت تنقش صورتها على أبواب معظم المعابد المصرية ، كما كانت تزين تاج فرعون .

طيور مقدسة :



كذلك كانت هناك طيور قدَّسها المصريون ، من أهمها :
الصقر (الباشق) ، وأبو منجل (إيبس) ؛ وكان الصقر رمزاً للإله حوريس ، وأبو منجل رمزاً لتحت ، وهو إله العلم والحكمة^(١) الذى اخترع الكتابة ووضع اللغة والأدب ، وذلك وفق عقيدة المصري القديم ، وكان تحت فى الأصل إله مدينة الأشمونين (مركز ملوى بمديرية أسيوط) ، وهى التى سماها اليونان "هرموبوليس" ومعناها مدينة الإله هرميس ، إله الفن والعلم عند اليونان والرومان .

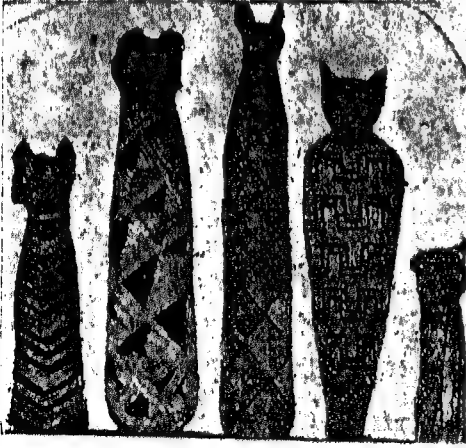
وقد ظل الاعتقاد بقدسية الحيوانات سائداً إلى آخر التاريخ المصري القديم . وكان قتل كل حيوان مقدس جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، فإذا حدث القتل عفواً ، جاز أن يُكتفى بفرض غرامة على القاتل .

ويجب أن نلاحظ أن هذه الحيوانات لم تعبد لذاتها كآلهة ، إلا فى آخر التاريخ المصري ، حين دخلت البلاد فى دور انحطاطها .

(١) اتخذت جامعة فؤاد الأول رسم تحت المرسوم هنا إشارة لها .

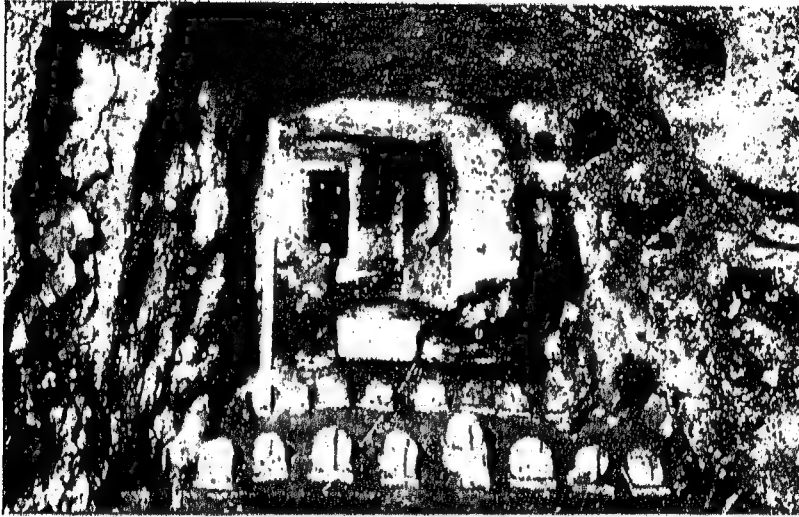
مدافن المعبودات :

وكان لهذه الحيوانات حُرَّاس يقومون على خدمتها و يُقدِّمون لها الطعام ، الذي يأتي به الناس ، فإذا ماتت دفنت بعد تحنيطها باحتفال رهيب ، في مقر عبادتها



الرئيسي . فمثلاً كان العجل أبيس يدفن في السرابيوم بسقارة ، والقطط في مقبرة خاصة بمدينة بوسطة (بحوار الزقازيق) والطيور والقردة المقدسة ، التي ترمز للإله تحوت ، في القسم الغربي من هرم موبوليس (تونة الجبل) ، كما كشفت عن ذلك أخيراً بعثة جامعة فؤاد الأول للبحث عن الآثار .

قطط مسمنة



مدافن الطيور والقردة المقدسة التي ترمز للإله تحوت بتونة الجبل مركز ملوى

رع وأوزيريس :

وكان أعظم الآلهة المصرية شأنًا وأوسعها عبادة إلهان هما : ”رع“ ، إله الشمس التي تسطع بأشعتها المنيرة في سماء مصر الصافية ، ”وأوزيريس“ إله الموتى ، الذي يحاسب الناس على أعمالهم يوم ينتقلون من الدار الفانية إلى الدار الباقية .



أوزيريس

رع

أسطورة أوزيريس :

ولقد نسج المصريون حول أوزيريس أسطورة من أطراف الأساطير المصرية

القديمة ، فقالوا إن أوزيريس نزل من السماء على هيئة إنسان ، كي يعلم الناس السلام ، ويرشدهم إلى الحياة معاً في مودة وصفاء ، فأحبوه حتى حقد عليه أخوه سيت ، وأخذ يدبر له مكيده يتخلص بها منه . فصنع تابوتاً يسعه تمغماً ، وزخرفه بالجواهر والأحجار الكريمة ، ودعاه إلى وليمة كبيرة حضرها كثيرون ، وأعان أنه سيمنع هذا التابوت لمن يكون على قدمه ، فقام كل من المدعوين يحرب خطه ، ولكن على غير جدوى ، ثم قام أوزيريس ودخل الصندوق ، ولم يكدهم جسمه فيه حتى أسرع المتآمرون وأغلقوه عليه ، ثم ألغوا به في النيل ، فحمله التيار إلى البحر المتوسط ، وما زالت الأمواج تتلقفه حتى ألقت به عند مدينة ببلوس (جبيل) بفينيقيا^(١) . فلما علمت زوجته إيزيس بما حدث له ، حزنت عليه وبكته بكاء مرا ، وجدت في البحث عنه حتى وجدت التابوت ، وعادت به إلى الدلتا ، ولكن قبل أن تتمكن من فتحه فاجأه ”سيت“ وقطع جسم أخيه قطعا عددها

(١) ورود اسم ببلوس في أسطورة اوزيريس يدل على قدم علاقة المصريين بفينيقيا .

الثنان وسبعون ، ثم ألقى بكل منها في مقاطعة من مقاطعات مصر ، التي بلغ عددها إذ ذاك مثل هذا العدد تماماً .

لم يفت ذلك في عَصِيد إزيس ، وركبت قارباً لتجمع تلك الأشلاء ، وعاونها في جمعها تحوت ، إله العلم والحكمة ، وأختها نفتيس ، زوجة ست ، وأنوبيس ، إله التحنيط ، ولما جُمِعت الأشلاء كلها قرأت عليها بعض التعاويذ السحرية ، فدبت الحياة فيها من جديد ، إلا أن أُرريس رفض أن يعود إلى حكم هذا العالم ، وَفَضَّلَ أن يبقى في العالم الآخر (مملكة الأموات) . ونظراً لما قاساه وما لحقه من آلام ، اختارته الآلهة الأخرى ليكون قاضى الموتى ، فأصبحت مهمته :



نفتيس

محاسبة أهل الدنيا ، ووزن أعمالهم ، وإصدار الأمر لهم أو عليهم بالنعيم أو الجحيم . وكان لازريس من إزيس ابن ، اسمه حوريس ، قام ليتأرلأبيه ، فحارب عمه ست وانتصر عليه ، فكان بذلك منقذ الإنسانية .

الأسطورة وتعليل فيضان النيل :



إزيس ترضع حوريس

ومما هو طريف في هذه الأسطورة ما جاء فيها من أن إزيس ، في أثناء بكائها حزناً على ما حدث لزوجها ، سقطت من عينيها دمة فوق نهر النيل ، ففاض على الفور ، وظلَّ يفيض عاماً بعد عام ، وهكذا فسّر المصريون القدماء هذه الظاهرة الجغرافية التي نشاهدها اليوم ^(١)

(١) جاء التفسير العلمى لفيضان النيل في وثيقة واحدة ، دُرِّت في السنة السادسة من حكم الملك النوبى طهرافة ، الذى حكم من سنة ٦٩٠ إلى سنة ٦٦٤ ق م . ، حيث ذكر أن النيل فاض ، وأن فيضانه كان نتيجة سقوط أمطار غزيرة على بلاد النوبة .

أبيدوس مقر أوزيريس :

وكان المصريون القدماء يحتفلون بدفن أوزيريس في فصل الخريف ، حين تبذر الحبوب في جوف الأرض ، ثم يحتفلون بعودته إلى الحياة في فصل الربيع حين تورق الأشجار وتخضر .

وتخيلوا مقبرته في أبيدوس ، المعروفة بالعراة المدفونة (مركز البلينا ، مديرية جرجا) ، وكان لازماً على كل مصرى أن ينجح إلى هذا القبر مرة في حياته على الأقل ، وتطلع كل فرد أن يشيد قبره على مقربة منه ، ولهذا زادت المقابر في أبيدوس زيادة كبيرة ، ولا سيما منذ ابتداء الدولة الوسطى ، حين شاعت عقيدة أوزيريس ، وكان كل من يعجز عن بناء مقبرته في أبيدوس يكتفى بإقامة شاهد له هناك ينقش عليه اسمه تبركاً بهذا الإله .



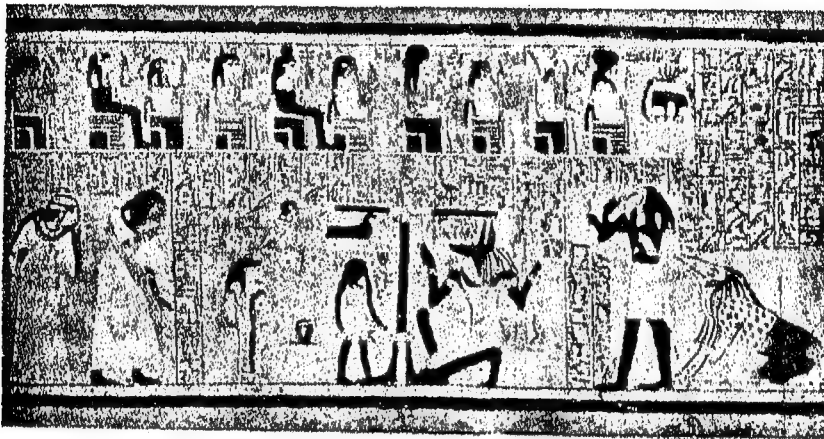
أنموذج لقارب من القوارب التي استعملت لنقل الموتى إلى أبيدوس

أثر أسطورة أوزيريس :

جعلت هذه الأسطورة المصرى القديم يعتقد أن كل من يحسن فى دنياه ويلقى المتاعب ويتحمل الآلام ، مثل أوزيريس ، يعود إلى الحياة مرة أخرى ويتمتع بالنعيم ، وهذا هو أصل العقيدة فى خلود الروح ، وفى أن هناك حياة أخرى يجازى فيها المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته .

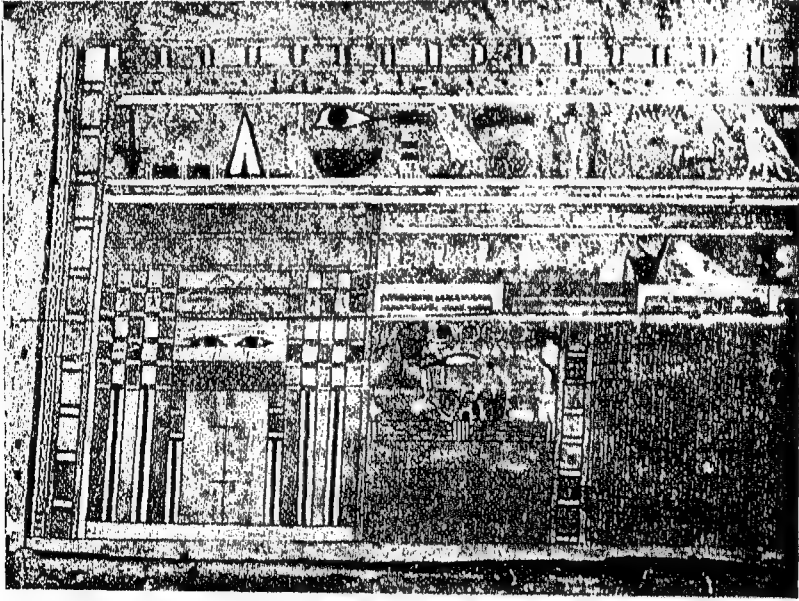
محكمة أوزيريس و يوم الحساب :

اعتقد المصرى القديم أن أوزيريس هو إله الموتى الذى سيحاسبه على ما أناه من أعمال فى حياته ، وقد تصوّر هذا الحساب فى محكمة قوامها اثنان وأربعون قاضيا ، يرأسهم أوزيريس ، يسأل كل منهم الميّت عن الآثام التى ارتكبها فى دنياه : كالسرقة والقتل والكذب ، فيتبرأ من كل منها على التوالى ، وللتأكد من صدق الميّت ، يوضع قلبه فى كفة ميزان ، ويوضع فى الكفة المقابلة ريشة تمثّل الصدق ، فإن رجحت كفة الريشة ، كان ذلك دليلاً على أن الرجل



يوم الحساب وفق عقيدة المصرى القديم : وترى الإله انوريس يشرف على الميزان والإله تحوت راقفاً يدون النتيجة

من البررة الأطهار ، فيسير إلى النعيم الأبدى الذى سَمَّاهُ المصريون "حقول السلام"
وإن ثقلت كفة القلب ، كان ذلك برهاناً على أن الرجل من الأشرار ، فينْقَضُ
عليه وحش يكون متربصاً أمام الميزان ، فيغتاله ، ويُلْقِي به فى هوة سحيقة .



تعاريد لحماية الميت مرسومة على داخل تابوت

الديانة والسحر :

ومن الغريب أن المصريين ، على الرغم من إيمانهم بعدالة هذا الحساب ، اعتقدوا
أن تلاوة التعاويذ وتدوينها على تابوت الميت ، أو على جدران قبره ، أو على
لفائف من البردى تدفن معه ، تنفعه أمام محكمة أوزيريس ، فتخفف من عذابه
وتدخله الجنة . وهذا هو الغرض من كتاب الموتى ، كما رأينا .

الفصل الخامس

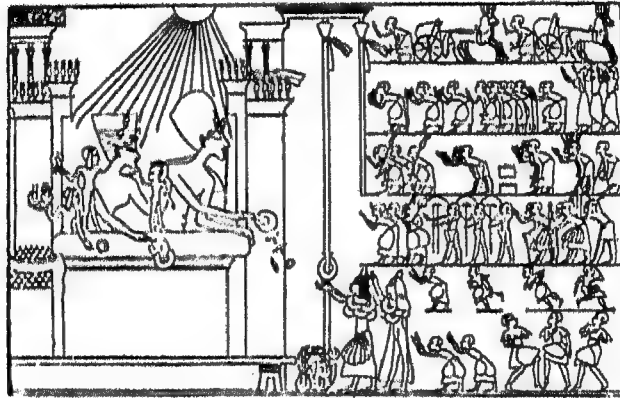
النظم الحكومية

الحكومة العليا

الملك "فرعون" :

لم يعرف المصريون القدماء نظام المجالس النيابية ، فلم يكن عندهم مجلس نواب أو مجلس شيوخ ، أو غير ذلك من النظم الديمقراطية ، وإنما كان فرعون هو صاحب السلطة المطلقة في البلاد ، يحترمه المصريون ويقدمونه ، ويعتبرونه من أبناء الآلهة ، فيطيعونه طاعة عمياء .

وكان الملك يستقبل رعيته أيام الأعياد ، أو يتقبل الجزية في فناء فسيح أو بهو متسع ، وهو جالس على العرش . ولكن أمنتحتب الثالث بدأ تقليداً جديداً ، فكان يظهر أحياناً في شرفة قصره ، كي يستعرض الهدايا التي يحملها إليه السفراء



إسختاتون وزوجه يطلان من شرفة قصرهما ، يوزعان الهدايا على السكاكين آى وزوجه
وهذا تقليد بدأه أمنتحتب الثالث

من مختلف الأصقاع ، أو ليتقبل ولاء الأمراء ، أو لينح ضباطه الأكفاء ما يُنعم به عليهم من أنواط وقلائد وقفازات من الذهب الخالص .

ثم أصبح هذا التقليد الحديد عادة ثابتة عند خلفائه فكان إخوانون مثلاً يظهر في شرفة قصره ، متكئاً على وسائد ، وحوله أفراد عائلته .

الوزير :

ولما كان فرعون لا يستطيع الإشراف على جميع شئون المملكة وحده ، فقد استعان بموظف كبير ، هو الوزير ، وقد ظهر هذا المنصب لأول مرة في عصر بناء الأهرام .

وزيران في عهد الدولة الحديثة :

وفي عهد الدولة الحديثة ، حين تكونت امبراطورية واسعة الأرجاء ، وزادت



أعمال الحكومة زيادة كبيرة ، اضطرت الفراعنة أن يعينوا وزيرين : أحدهما للوجه القبلي ، ومقره طيبة ، ويمتد نفوذه من الشلال الأول إلى أسيوط ؛ والثاني للوجه البحري ، ومقره هليو بوليس (عين شمس) ، ويبدأ إشرافه من أسيوط إلى البحر المتوسط .

موظفون آخرون :

ويعاون الوزير في عمله رؤساء الإدارات وعدد كبير من الوكلاء والكتبة ، وكان للكتاب حينئذ مركز سام ، بلغ من شأنه أن المدرسين حجبوا هذه الوظيفة إلى تلاميذهم ، وكان على من يريد أن يصبح كاتباً أن يتقن الكتابة والقراءة والحساب .

مجبرة كاتباً وأعلامه في عصر الإمبراطورية
و يلاحظ أن المصريين لم يشقوا أعلامهم
كما تفعل بأعلامنا البوص ، بل كانت تُبرى
أطرافها بر يا ما ثلاً ثم تُنسل الألياف
حتى تصير كالفرشة

الحكومة المحلية

في عهد الدولتين القديمة والوسطى :

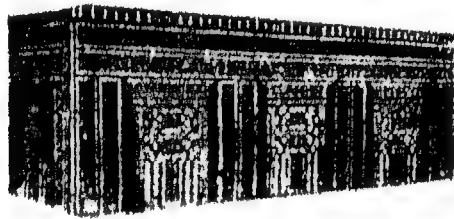
كانت حكومة البلاد في عهد الدولة القديمة في يد إدارات محلية ، تشرف عليها الحكومة العليا ، فكان يرأس كل ولاية حاكم يتمتع بحرية كبيرة داخل حدودها ، وكان حكام الولايات يتوارثون الحكم فيها ، بعد موافقة الملك ، لأن الأرض نظرياً كانت كلها ملكاً له .

ومتى كان فرعون قوياً أمكنه أن يضع حداً لمطامع حكام الأقاليم ، أما إذا كان ضعيفاً ، فإن تلك السلطة الكبيرة تصبح خطراً على الدولة يهدد كيانها ، ولهذا السبب يرجع سقوط الدولة القديمة في نهاية الأسرة السادسة ، وإغارة الآسيويين على الدلتا . ولقد ظهر خطر ذلك النظام جلياً في عهد الدولة الوسطى ، حين أخذ أمراء الأقطاع ينحتون مقابرهم في الصحور بولاياتهم النائية ويقطعون صلتهم بفرعون .

في عهد الدولة الحديثة :

فلما بدأ عصر الدولة الحديثة ، تنبه الفراعنة إلى خطر النظام القديم ، فقسّموا كل ولاية أقساماً يحكمها موظفون يعتمدون اعتماداً تاماً على الحكومة العليا .

وكان الوزير يبعث رسلاً يجوبون الولايات ، ويرفعون إليه تقارير مسببة عنها مرة كل ثلاثة شهور ، فكانوا بذلك حلقة اتصال بين الإدارات المحلية وبين الحكومة العليا ، وهكذا لم يعد لحكام الأقاليم أى نفوذ سياسى .

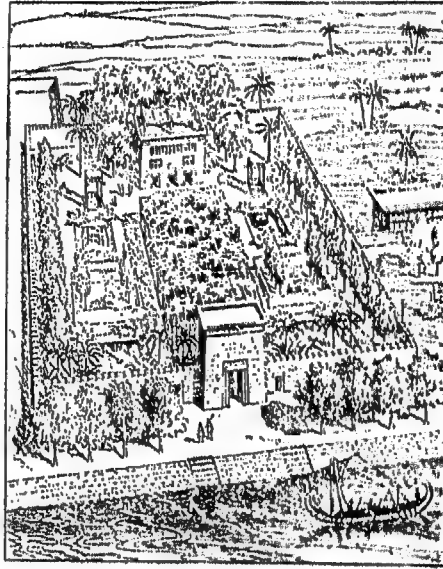


الفصل السادس

الحياة العامة

المسكن

بنى المصريون القدماء منازلهم من اللبن والخشب ، وكان بيت الفلاح بسيطاً لا يختلف عن كوخ زميله في الوقت الحالى ، أما منزل الغنى فكان كبيراً ، مفروشاً بأنفر الأثاث ، ومحاطاً بحديقة جميلة ، بها برك صناعية مملوءة بالأسماء .



بيت نبيل مصرى قديم

الملبس

ملابس الرجال :

كان المصرى يرتدى فى الأحوال العادية إزاراً قصيراً من نسيج الكتان الرقيق يصل إلى ما بعد ركبتيه بقليل ، ويلبس فى مناسبات أخرى فوق هذا الإزار قميصاً أطول يصل إلى عقبيه ، وقد يكون هذا فى بعض الأحوال لحمايته من البرد ، ولذا

كان يصنع من نسيج أكثر سمكاً ، ولكن لم يكن ذلك شرطاً أساسياً ، فـ
ما كان يصنع من كتان رقيق جداً ، يُظهر القميص الذي تحته ، كما يتضح
الرسوم الباهرة على جدران المقابر .

ومن الملابس التي كان يلبسها الغني في الحفلات قميص الصيد ، وهو قميص
الكتان ذو ثنيات ، يُربط جانباه إلى الأمام ، وبينهما ميدعة مثلثة الشكل مصنوعه
نسيج القميص نفسه ، ويلبس الرجل في قدميه نعالاً مصنوعة من البردى أو من الب
النساء :

أما المرأة فكانت ترتدى ملابس بسيطة من الكتان الأبيض ، هي مهلهل ،
غير مكتمل ، يكسو الجسم من الثديين إلى القدمين ، ويثبت فوق الكتفين بشر
من النسيج نفسه ، وكانت تلبس فوقه قميصاً آخر به خيوط من الحرير و
في الولاثم والحفلات . ولقد امتازت الملابس في الدولتين القديمة والوس
ببساطتها ، أما في الدولة الحديثة فقد تعددت الأزياء ، بسبب الثروة الع
التي درتها على مصر إمبراطوريتها العظيمة .



أزياء المصريين القدماء

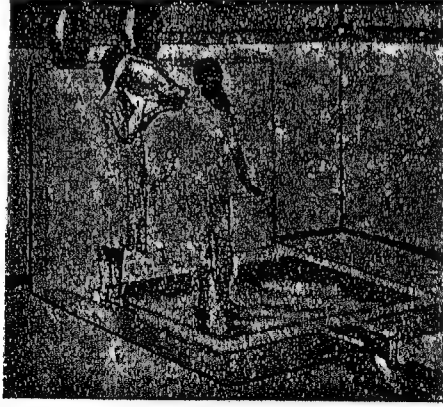
وأعتاد المصري القديم أن يقص شعره قصيراً أو يحلقه بالموسى ، وأن
على رأسه في الحفلات الرسمية شعراً مستعاراً . أما المرأة فكانت تترك ش
مُرسلًا إلى الأمام في ضفيرتين على كتفها .



شعر مستعار

ملابس الأطفال :

وكان الأطفال لا يشقون أنفسهم بالملابس : فالأولاد يلبسون قميصاً قصيراً ،
والبنات يلبسن قميصاً طويلاً ، ويضع الأولاد خصلة طويلة من الشعر ، ويكتفى
البنات بخصلة قصيرة ، وكثيراً ما كان يخرج الأولاد عراة الأجسام حفاة الأقدام ،



صورة تكوينية لحمام مصرى قديم والحمام ذاته قائم
بين بقايا بيوت تل العمارنة

أعمال القوم فى البيوت

النسيج :

لم تكن الحياة فى البيت المصرى القديم كسل ونحمول ، فكان النساء يغزلن
الكثبان وينسجنه على مغازل وأنوال أولية ، ولا تزال بعض هذه المنسوجات
موجودة ، وهى لا تقل جمالاً وجودةً عن المنسوجات الحالية .



الطهى والخبز :

وكان العمل يقوم على قدم وساق
لإعداد الطعام فى مطبخ البيت : فالنساء
يطحنن القمح بمجرى على لوح حجرى
كبير ، ويعجنن الأرغفة فى أشكال
مختلفة من الشعير والشوفان ، ويخبزنها
فى فرن من الفخار أو اللبن .

نساء يعجنن وخلفهن زميلاتهن يضعن الخبز فى الأفران

صُنْعُ الْجَعَةِ وَالنَّبِيذِ :

كذلك كان يأخذ صُنَّاعُ الجعة الكمك المصنوع من الشعير ، ويكسرونه في الماء ، ثم يصفونونه ، بعد أن يتخمّر ، في مناخل رفيعة ، ويعصرونه في أوان كبيرة ، ويعبئهم غيرهم العصير الناتج في قدور خاصة .



امراة تعجن

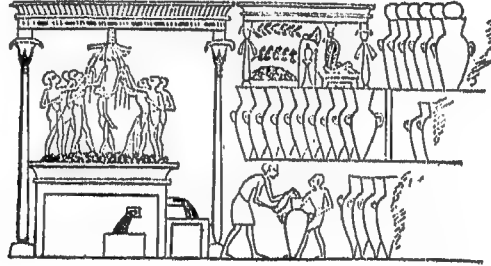
أما النبيذ فالراجح أنه لم يكن يصنع في المطابخ ، بل قرب الكروم نفسها ، فكان



صناعة الجعة

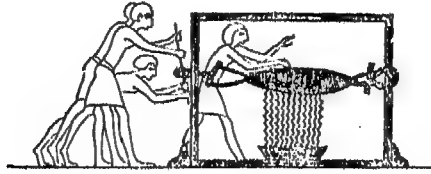
العنب يُحمل في سلال ، ويوضع في مكبس ، هو لوح كبير من الحجر له سطح مجوف ، ثم يدوسه رجال يمسكون حبالاً مربوطة إلى عمود أفقي مثبت فوق رؤوسهم ، وبعد أن يصب النبيذ في قدر ، توضع بقايا العنب في قطعة من القماش أو في زكية يلف طرفها لفاً عكسياً بقطعتين من الخشب يقبض على

كل واحدة منهما رجل ، وبهذه الطريقة يعصر العنب عصراً جيداً ، ثم يصب



مكبس لعصر العنب

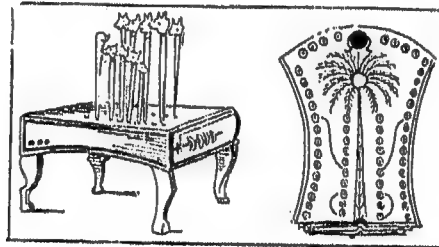
العصير في قِدر يُختم بالطين ، كما يفعل الفلاح اليوم بقدر غسله وجبته ، ويصم
الغطاء بخاتم عليه اسم صاحب الكرم أو الموظف المسئول عنه .



عصر العنب في الزكية

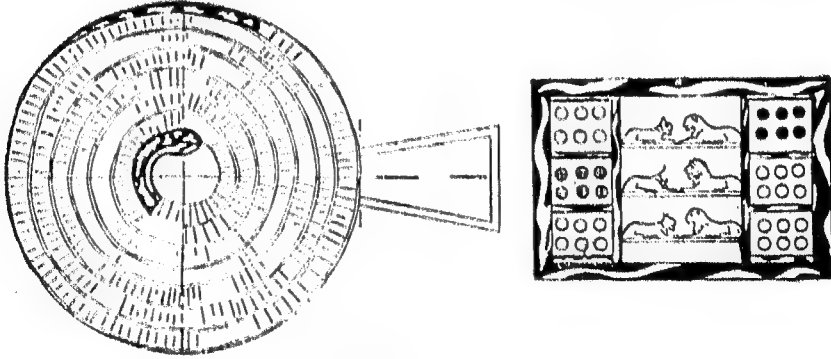
وسائل التسلية :

وكان المصريون إذ أرادوا تسلية هادئة ، يلجأون إلى ألعاب منزلية شتى
يلعبونها بقطع ولوح خشبي أشبه بالشطرنج ، ومن أبسط الألواح التي عثر عليها
وأقدمها لوح عليه رسم في شكل ثعبان مائتف حول نفسه ، وهناك ألواح أخرى

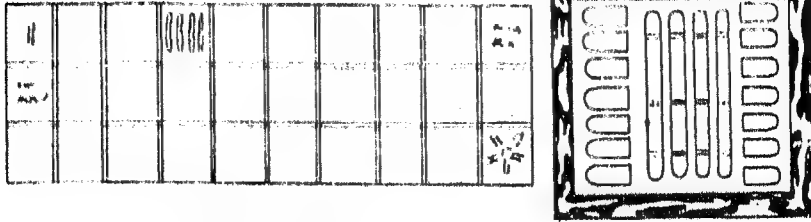


لعبة من ألعاب الدولة الوسطى أشبه الشطرنج

مقسمة إلى مربعات عددها أربعة وعشرون أو ثلاثون، تتحرك عليها القطع طبقاً لقواعد نجهلها ، وهي شبيهة باللعبة المعروفة اليوم باسم السيجة ، التي لا يزال يلعبها كثيرون من أبناء الصعيد .



أوح عليه ثعبان ملتف وإلى يمينه قطع اللعب الخاصة به



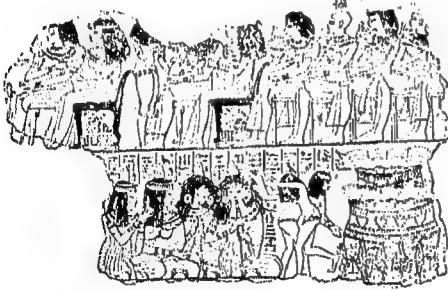
لعبة تشبه لعبة السيجة

كذلك ولع المصري بالطبيعة والمعيشة الخلوية ، فكان يخرج هو وزوجته وأطفاله ، أيام المواسم والأعياد ، للترهة في النيل ، ولصيد السمك والطيور بالشص والشباك والعصى ، ولتطف أزهار السوسن واللوتس .



غنى مصرى يصطاد الطيور مع زوجته وابنته

واعتاد المصري القديم إقامة الولائم ، فكان الجار يدعو جيرانه ليقضوا معاً يوماً سعيداً ، ونرى على جدران كثير من المقابر رسوماً تمثل الضيوف من رجال ونساء ، جالسين في هدوء ، يشاهدون ما أعد لهم من وسائل التسلية والسمر ، يشمون

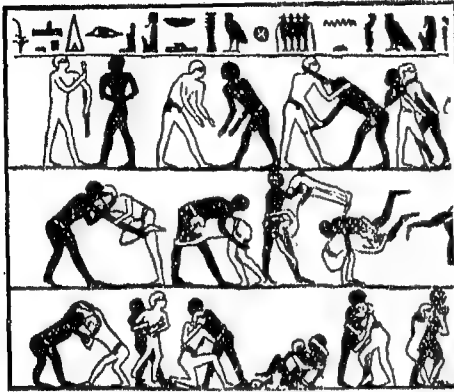


وليمة مصرية

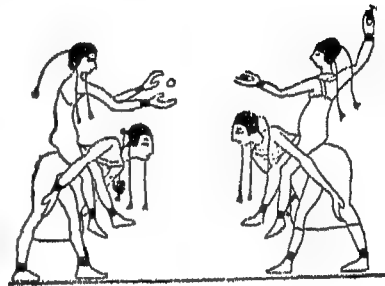
أزهار اللوتس ويحتسون النبيذ ، وفي أثناء ذلك تعزف فرقة موسيقية على العود والقيثارة أنغامها الشجية ، ويقوم المغنون بدورهم ويصفقون بأيديهم تصفيقاً منتظماً ، ويعرض الراقصون والراقصات حركات

بسيطة بالأذرع والأرجل والجسم ، ويلاحظ أن الموسيقى والرقص لم يكونا من وسائل التسلية فحسب ، بل استعملتا بكثرة : في الحفلات الدينية والجنائزية .

ويظهر من الرسوم التي كشفت الآن أن المصارعة كانت أكثر الألعاب الرياضية انتشاراً . ولم تقتصر الرياضة على الرجال ، بل أخذ النساء بقسطهن فيها .



المصارعة



سيدات يلعبن الكرة

الباب السابع

مصر والإسكندر

الفصل الأول

الحضارة اليونانية

تمهيد :

كانت لليونان حضارة عظيمة ، ازدهرت في القرون الأولى قبل الميلاد ، وأخرجت النابغين في الشعر والأدب ، والفلسفة والحكمة ، والفن والتاريخ ، والخطابة والتشريع ، أمثال : هوميروس ، وسقراط ، وأفلاطون ، وأرسططاليس ، وهيرودوت ، وبركليس ، وسولون ، وغيرهم .

مميزات الحضارة اليونانية

ارتباطها بالبحر المتوسط :

وتمتاز هذه الحضارة بأنها لم تكن محصورة في إقليم معين ، فلم تقتصر على بلاد اليونان وحدها ، بل شملت أحوال أولئك اليونان الذين انتشروا على سواحل البحر المتوسط ، ولهذا كانت متصلة اتصالاً وثيقاً بتاريخ ذلك البحر ، وقد اقتضت طبيعة شبه جزيرة اليونان هذا الارتباط ، إذ أنها أرض ضيقة الرقعة ، كثيرة الجبال ، والوديان الصغيرة ، والسهول الضيقة . تشتهر جبالها بأنها قاحلة جرداء شديدة الانحدار ، ولهذا كانت عائقاً كبيراً للواصلات بين السهول والوديان ، وكان لذلك أثران هامين : أولهما ، اتجاه اليونانيين نحو البحر المتوسط وانتشارهم على سواحله وفي جزائره ، وثانيهما ، انعدام الوحدة السياسية .

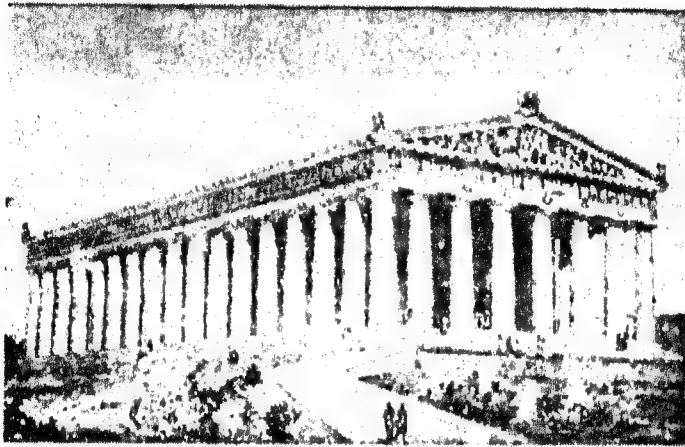
قيام المدن :

هذه الظروف الجغرافية التي اختصت الطبيعة بها بلاد اليونان ، جعلت من الصعب قيام دولة واحدة فيها ، وإنما أعدتها لتكون مقراً لجماعات مستقل بعضها عن بعض ، إذ ولدت تلك الظروف حب الحرية في اليونانيين ، ولعلهم رأوا أن قيام دولة واحدة لا يتفق مع الحرية ، وأيدهم في ظنهم هذا مارأوه من الاستبداد في الدول الشرقية .

هكذا نشأت ببلاد اليونان مدن مستقل بعضها عن بعض في إدارة شؤونها الداخلية والخارجية : كاثينا ، واسبرطة ، وطيبة ، وغيرها ، تتمتع كل واحدة منها بدستور خاص ، ومجالس خاصة ، وحكام من أبنائها ، وكانت روح المنافسة وأسباب التباعد بين هذه المدن أقوى من عوامل التقارب والاتحاد ، فالأثيني مثلاً يعمل دائماً من أجل مصلحة مدينته ، مضحياً في سبيل ذلك أحياناً بمصالح المدن الأخرى .

الوحدة اليونانية :

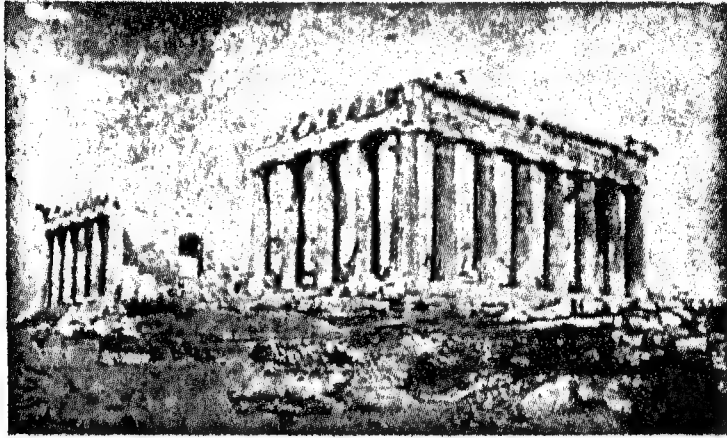
وعلى الرغم من معيشة اليونان في مدن مستقلة على هذا النحو ، فإنهم كانوا بشعرون أنهم ينتمون إلى أمة واحدة ، ويكُونون جسماً واحداً يشعر بشعور واحد ، وقد مرت بهم أزمات أدت إلى اشتراك مدنها المختلفة في جهود واحدة .



معبد البارثينون كما كان

ويدل على تلك الوحدة وجود لغة واحدة يتكلمها جميع اليونان ، وإن تعددت لهجاتها ، وديانة واحدة يدين بها الجميع ، فكانت لهم آلهة أطلقوا عليها أسماء واحدة فزوس إله الرعد ، وإفروديتي إلهة الجمال ، وأبولو إله الضوء والزراعة ، وهكذا ، واعتقدوا أن آلهتهم تسكن فوق جبل في شبه جزيرة اليونان ، اسمه جبل المَبُوس .

وكانت لهذه الآلهة معابد يحج إليها اليونان من جميع الجهات للتعبد فيها والاسترشاد بكهنتها فيما يُقَدِّمُون عليه من الأمور ، وكان سدَّتُها يدعون القدرة على علم الغيب . ومن أشهر تلك المعابد معبد دِلْفِي للآله أبولو ، ومعبد أَلِارْثِنُون القائم على تل الأَكْرُيُولِيس ، الذي يشرف على أثينا .



معبد البارثينون في حالته الراهنة

الألعاب الأولمبية والمباريات :

وكانت تقام في هذه المعابد مسابقات في الألعاب الرياضية، مثل : المصارعة ورمي القرص ، والجري ، والقفز ، وسباق العجلات ، واستعمال الرماح والسهام ، كما كانت تقام مباريات عامة في الموسيقى ، والشعر ، والرقص ، وغير ذلك ، ومنذ عام ٧٧٦ ق.م. أصبحت تلك الألعاب دورية ، تقام كل أربع سنوات ، في سهل

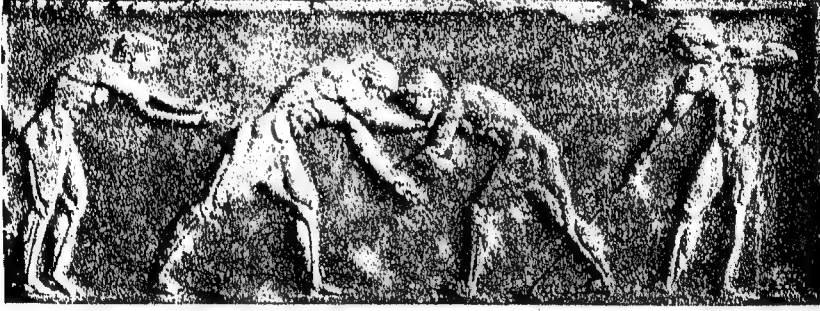
أولمبيا باليونان، ومن ثم سُمِّيت بالألعاب الأولمبية^(١)، وقد بلغ من عظم أمرها عند اليونان أنهم كانوا يؤرخون الحوادث بها .



قاذف القرص

وكان لكل يوناني الحق في الاشتراك في هذه الألعاب والمباريات ، وكانت كل مدينة ترسل أحسن لاعبيها الرياضيين وفنانها ، وتتقاتل على إحراز قصب السبق في المضمار المتنافس فيه ، وتقيم للفائزين من أبنائها التماثيل بجوار تماثيل الآلهة .

(١) هذا هو أصل الألعاب الأولمبية ، التي تقام الآن بين الدول لتوثيق روابط الصداقة والتضام وتقشيع الرياضة بينها .



من ألداب اليونان ، ترى إلى اليمين رجلا يلعب الجلبة ، وفي الوسط اثنين يتصارعان
وإلى اليسار آخر يحاول القفز

الأشعار الهوميرية : الألياذة والأوديسية :

ومما قوى روح الوحدة بين اليونان ، رغم الاختلافات المحلية ، الملمحمتان
المنسوبتان لهوميروس وهما : الإلياذة والأوديسية ، وتتناولان سرد حوادث
ووقائع حربية قام بها اليونان في القرون السحيقة ضد سكان ترواده ، في الجزء
الشمالي الغربي من آسيا الصغرى ، ووصف



هوميروس

طبيعة البلاد التي مروا بها ، بعد عودتهم من
حصار تلك المدينة . وفي هذه الأشعار الهوميرية
جاء الكثير من أخبار الأولين وأحوالهم ،
وأساليب حروبهم ، ووصف سفنهم ، وبلادهم ،
ونظم الحكومة عندهم ، وهي لذلك تراث
اليونان جميعاً يحفظها خاصتهم وعامتهم .

لذلك كله شعر اليونان أنهم شعب واحد ،
على الرغم من استقلال مدنهم بعضها عن
بعض ، واتخذوا لأنفسهم اسماً واحداً . وهو

”الهيلينيين“ ، وكانوا في نظر أنفسهم هم المتحضرون ، ومن عدّاهم من الخلق
هم البرابرة .

الفصل الثانى

الإسكندر الأكبر

(٣٣٦ — ٣٢٣ ق.م)

ظهور مقدونيا :

ظهرت ، فى خلال القرن الرابع قبل الميلاد ، على هامش العالم اليونانى قوة جديدة هى مملكة مقدونيا ، ولم يكن أحد يتوقع فى أول الأمر أن تلك المملكة ستتمكن ، فى مدة قصيرة ، من بسط سلطانها على المدن اليونانية وإقامة إمبراطورية من أعظم ما رأى التاريخ ، ونشر لواء الحضارة اليونانية فى أقطار الشرق .

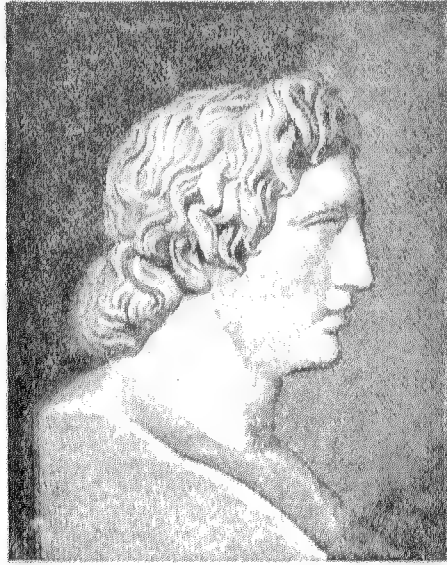
فيليب المقدونى :

تولى فيليب عرش مقدونيا ، وكان قد وقف فى أيام شبابه على أحوال المدن اليونانية ، ودرس فنون الحرب على أقدر قواد عصره ، ووجه عنايته ، بعد أن أصبح ملكا ، إلى تنظيم حكومة مملكته ، وإلى تدريب جيش قوى . ولما تم له ذلك أخذ فى التدخل فى المنافسات القائمة بين المدن اليونانية ، وكان غرضه من ذلك أن يوحد هذه المدن فى حلف تتولى مقدونيا زعامته ؛ وأن يوجه قوة اليونان متحدتين نحو الفتح الخارجى ، ولكن فيليب قُتل قبل أن يتم تحقيق هذا المشروع الخطير .

نشأة الإسكندر :

وخلفه على عرش مقدونيا ابنه الإسكندر ، وله من العمر عشرون سنة ، وكان فيليب قد عهد بتربية الإسكندر إلى الفيلسوف اليونانى المعروف ، أرسطاطاليس ،

وقد استطاع المربي أن ينفذ إلى قلب تلميذه ويُشربه حب الثقافة اليونانية ،
فشبَّ الإسكندر يونانيًا حقًا في أفكاره وآماله .



الإسكندر الأكبر



أرسطو طاليس معلم الإسكندر

الإسكندر يخضع المدن اليونانية :

واستصغرت المدن اليونانية شأن الملك الشاب ، وحاولت التملص من السيطرة المقدونية ، ولكن الإسكندر تغلب عليها بسرعة مدهشة ، وأنزل ببعضها أقسى ألوان العقاب ، جزاء استخفافها بأمره . أما الأثينيون فقد أخذهم بالذن ، تقديرًا منه لما كان لأسلافهم من يد على الحضارة اليونانية .

إمبراطورية الإسكندر

قهر الدولة الفارسية :

تأهب الإسكندر للفتح الخارجي ، بعد أن انتهى من أمر العالم اليوناني ، وكان لابد لمواصلة الفتح ، وإنشاء إمبراطورية يونانية التي يحلم بإقامتها ، من قهر الدولة الفارسية ، الباسطة سلطانها على أقطار الشرق القديم ، والتي حاولت وقتًا ما إخضاع المدن اليونانية ومحو استقلالها وحريتها .



الإسكندر منطبقًا بجواده

الإسكندر ودارا الثالث :

ولم تكن الدولة الفارسية عدوًا يستهان بأمره : فأرضها واسعة ، وجنودها عديدون بوسائل ، إلا أن الملك الجالس على عرشها إذ ذاك — وهو دارا الثالث — كان قليل الحيلة في الحرب ، يسرع إلى قلبه الجزع ، في الأوقات العصيبة .

تقدم الإسكندر، في سنة ٣٣٤ ق.م . وعبر مضيق الدردنيل إلى الأناضول ، وكانت أقاليمه إذ ذاك تحت السيادة الفارسية ، ولكن دارا ترك أمر الدفاع عن تلك الأقاليم لحكامها ، ولم يتحرك إلا بعد أن فرغ الإسكندر من إخضاع الأناضول .

موقعة إسُوس :

ولما تلاقى الفرس والمقدونيون عند إسوس ، في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى ، غادر دارا الميدان ، عندما اشتد القتال ، ووطن جنوده أنه قتل ، فدب اليأس إلى قلوبهم ، ووقعت بهم الهزيمة .



موقعة إسُوس — رسم على " المزايكو " وجد بالاسكندرية ثم نقل الى مدينة مهبيا بإيطاليا

خطط الإسكندر بعد إسُوس :

كان أمام الاسكندر ، بعد انتصاره في إسُوس ، إحدى خطتين : إما تعقب فلول الفرس إلى قلب دولتهم في العراق وفارس ، أو انتزاع سوريا ومصر من الحكم الفارسي ، قبل أن ينقضَّ على فارس نفسها . وقد اختار الخطوة الثانية

لمزاياها ، وذلك لأن فقدان الفرس سوريا ومصر يضعفهم إضعافاً بليّناً ، ويحرمهم قواعدهم البحرية والتجارية في البحر المتوسط ، كذلك يغنم هو ما يفقده أعداؤه فتزجج كفته ، عند ما يغزوهم في عقردارهم .

الإسكندر في مصر

دخوله البلاد :

مضى الإسكندر في تنفيذ هذه الخطة ، فاستولى على مدن الساحل السورى ودخل مصر ، عام ٣٣٢ ق . م .

ولم يكن هذا أول عهد مصر باليونان ، فقد عرفتهم — كما رأينا — جنوبيّاً وتجارّاً ، منذ زمن طويل ، ولم يكن دخول الإسكندر أرضها لرفع النير الفارسى عنها أول عمل من نوعه ، فقد تمكّن اليونان والمصريون ، قبل قدوم الإسكندر بثمانين سنة ، من إجلاء الفرس عن وادى النيل ، ولم يستردّ الفرس ذلك الوادى إلا قبيل ظهور الاسكندر .

تأسيس مدينة الإسكندرية :

رحّب المصريون بمقدم الإسكندر ، واستقبلوه استقبال المنقذ أينما سار ، فدخل منف ، ومنها ركب مركباً في النيل إلى مصبه الغربى ، حيث قيل إنه أُعجب بحسن موقع قرية صغيرة يسكنها بعض صيادى السمك ، تسمى راقوده "راكوتيس" تجاه جزيرة فاروس (شبه جزيرة رأس التين والأنفوشى) ، في بقعة بين البحر المتوسط ومريوط ، فأمر بأن تؤسس مدينة عظيمة سُميت الإسكندرية ، فاختطها المهندس دينوكراتيس Deinocrates على شكل مستطيل ، وجعل شوارعها مستقيمة متقاطعة ، وأكبرها الشارع الكانوبى (محله الآن شارع فؤاد الأول) الممتد من الشرق للغرب ، وعرضه مائة قدم ، ووصل المهندس المدينة بجزيرة

التغلب على فارس وغزو الهند :

سار الإسكندر بعد ذلك للنضال مع فارس ، وهزم دارا الهزيمة الحاسمة عند أربل (أربلاء) في العراق ، ودخل العواصم الفارسية واستولى على نفاسها ، ولم يكتف بذلك ، بل أمعن في الفتح إلى أن بلغ سهول الهند الشمالية ، ولم يحمله على العودة إلا ما نال جيشه من الإعياء .

أغراض الإسكندر :

اتخذ الإسكندر بابل عاصمة لإمبراطوريته ، وكان يرمى إلى تكوين إمبراطورية يونانية أسيوية ، وقد اتخذ لتحقيق المزج بين العناصر المختلفة ، تشجيع التزاوج بينها ، كما أنه رأى أن خير وسيلة لنشر الحضارة اليونانية في الأقطار الأسيوية ، هي إنشاء المدن على النمط اليوناني .

وفاته :

ولكن الزمن لم يمتد بالإسكندر لتحقيق خططه وأحلامه ، إذ وافته المنية في بابل سنة ٣٢٣ ق.م. وهو في الثالثة والثلاثين .

أثر الإسكندر الأكبر :

على الرغم من أن الإسكندر قضى أيام حكمه كلها في الحروب ، وأن حياته انتهت قبل أن يكشف عن جميع نواياه ، فقد أثر تأثيراً عميقاً في تاريخ العالم ، وأكسبت فتوحه اليونان سلطاناً لم يُتاح لهم قبل أيامه ، إذ دخلت تحت حكمهم أعم شرقية لم تعرفهم قبل ذلك إلا جنوداً تستخدمهم أو تجاراً تعاملهم . وصحب انتشار سلطان اليونان تأسيس مراكز للحضارة اليونانية في مواطن الشرقيين ، وفي هذه المراكز أثرت الحضارة اليونانية في الحضارات الشرقية ، كما أنها تأثرت بها .

الباب الثامن

مصر في عهد البطالمة

(٣٢٣-٣٠ ق.م)

الفصل الأول

أهم الملوك البطالمة

تقسيم دولة الإسكندر بعد موته :

خلف الإسكندر ولداً صغيراً وأخاً غير شقيق ، فاقسم قواده ملكه ، واستقر الرأي بعد الاضطراب على تقسيم هذا الملك بين أنتيجونوس ، وقداختص بمقدونيا ، وبطليموس ، وقد آثر مصر على غيرها ، وسلوقس ، وقد وضع يده على ما كان للفرس في الأناضول وسوريا والعراق وفارس الأصلية .

وقامت بذلك ثلاث دول يونانية عظيمة ، يبدأ تاريخها بموت الإسكندر ، وينتهي عند ما استولى الرومان عليها كلها .

تأسيس دولة البطالمة :

وقد تنافست الدول الثلاث فيما بينها منافسة عنيفة ، واشتبكت في حروب برية وبحرية عديدة ، كما أنها تباينت في خططها السياسية وطرق الحكم تبعاً لتباين ظروفها ، ولن نتولى الكلام عن ذلك ، بل نقتصر على الدولة التي استقلت بمصر ، وهي دولة البطالمة ، وقد أنشأها بطليموس بن لاغوس ، الذي حكم مصر ما يقرب من عشرين عاماً باسم وريث الإسكندر ، ثم رأى في سنة ٣٠٥ ق.م . أنه خالق بأن يلقب نفسه "ملك مصر" فكان له ما أراد .

وضوح تاريخ البطالمة :

ولم يكن البطالمة أول ملوك من أصل أجنبي جلسوا على عرش مصر ، فقد سبقهم إلى ذلك — كما رأينا — الهكسوس والليبيون وغيرهم ، ولكن كانت



قطعة من الفخار عليها كتابة يونانية

دولة البطالمة أول دولة أجنبية استطعت أن نعرف تفصيل تاريخها ، وأن نقف على خططها الداخلية والخارجية في شيء كثير من الوضوح ، إذ خلف عصرها وثائق عديدة ، نقشت على الجدران أو سُطرت على ألواح الخشب أو أوراق البردي أو قطع الفخار (الشقافة Ostraca) كما وصل إلينا الكثير من مؤلفات شعرائه ومؤرخيه وعلمائه .



خطاب من البردي مطوى ومعد للإرسال

قواعد حكم البطالمة :

وقد دلت هذه المادة التاريخية الوافرة على أن هذه الدولة وضعت قواعد للحكم الداخلي ، وخططاً للسياسة الخارجية ، سارت على منوالها الدول الأجنبية ، التي خلقت في مصر ، وهي دول القياصرة الرومان ، والسلاطين العرب ، والترك .

سياستهم الداخلية :

ففي السياسة الداخلية ، كان أساس الحكم تقسيم الرعية إلى وطنيين وأجانب : فعرفت مصر منذ أيامهم نوعاً من الأجانب يعيش فيها جيلاً بعد جيل ، كما أن البطالمة وجَّهوا جهودهم نحو تنظيم استغلال موارد مصر الزراعية والصناعية والتجارية تنظيمًا دقيقاً جرى مجرى الأمثال ، وكان القصد الأول والأخير من هذا الاستغلال ملء خزانة الملك ، ونحو هذا القصد اتجهت الدول اللاحقة .

سياستهم الخارجية :

وفي سياستهم الخارجية سعى البطالمة لتحقيق أغراض هي نفس ما وضعه حكام مصر اللاحقين نصب أعينهم ، فقد أدركوا أن دولتهم لن تكون غنية آمنة إلا بضم ما عدوه "الملحقات الطبيعية" لمصر ، وبخاصة طرابلس الغرب من جهة وفلسطين من الجهة الأخرى ، فعملوا على امتلاك تلك الأقاليم ليزيدوا في مناعة ملكهم وليستوردوا منها ما لا يجدونه في مصر من المعادن والأخشاب ، كما أنهم عملوا على نيل السيطرة على طرق التجارة البرية والبحرية المتقابلة في مصر ، وتأمين المواصلات التجارية في البحر المتوسط ، باتخاذ قواعد لنفوذهم في جزائر كريت وقبرص والأرخبيل ، وعلى سواحل الأناضول وسوريا .

بطليموس الأول "سوتر"

أعماله الداخلية :

شغل بطليموس الأول (سوتر) ^(١) طول حكمه بوضع هذه القواعد وتنفيذها وكان يسير في عمله بخطى مترنة ، فنظم الحكومة ، وأتم بناء الإسكندرية على مارسمة مؤسسها ، واتخذها مقراً للحكم ، وأسس بهادار الفنون والمكتبة العظيمة .



بطليموس الأول

دار الفنون :

وكانت "دار الفنون" بناءً نفياً يقوم في ساحة كبيرة تكتنفها الأشجار الباسقة ويحيط بها ردهات يتوسطها هو فسيح مقسم أجزاءً ، كان الأساتذة يحاضرون فيه طلابهم في الطب والفلك والرياضة وغير ذلك ، ويعيشون معهم في الدار على نفقة الملك .

(١) ومعناها المخلص ، وهو لقب كان أهل جزيرة رودس أول من أطلقه عليه اعترافاً بفضلهم .

مكتبة الإسكندرية :

وعلى مقربة من دار الفنون قامت "المكتبة" ، حيث كان النساخون يعكفون على نقل المخطوطات القديمة ، والطلاب ينتفعون بؤلفات الأجيال السالفة ، وهكذا كانت دار الفنون والمكتبة بمثابة "جامعة" يؤمها قادة الفكر وطلاب العلم من أنحاء العالم اليوناني .

حروب بطليموس الأول :

على أن هذه الإصلاحات الداخلية لم تمنع بطليموس من القيام بحروب شتى استرد بها جزيرة قبرص ، وبعض البلاد في فلسطين ، وأصبح لأسطوله السيادة في البحر المتوسط ، مما أدى إلى نمو التجارة المصرية فيه .

تنازله عن الملك وموته :

واستمر بطليموس يحكم مصر إلى أن بلغ من العمر اثنين وثمانين عاما ، فتنازل عن الحكم لابنه بطليموس الثاني ، ومات بعد ذلك بعامين ، تاركا له ملكا وطييد الأركان .

بطليموس الثاني "فيلادلفوس"

صفاته :

جنى بطليموس الثاني "فيلادلفوس" (١) ثمار غرس أبيه ، فكان أقوى ملوك عصره وأغناهم ، وكان رجل سياسة أكثر منه رجل حرب ولع بإقامة المهرجانات ، فكان يحب شوارع الإسكندرية على عرش من الذهب ، يتقدمه جمع من الكهنة اليونان والمصريين ، ويتبعه عدد من الحيوانات والطيور الغريبة ، وكان الأهالي يخرجون لمشاهدة موكبه الفخم كأنهم في يوم عيد .



بطليموس الثاني

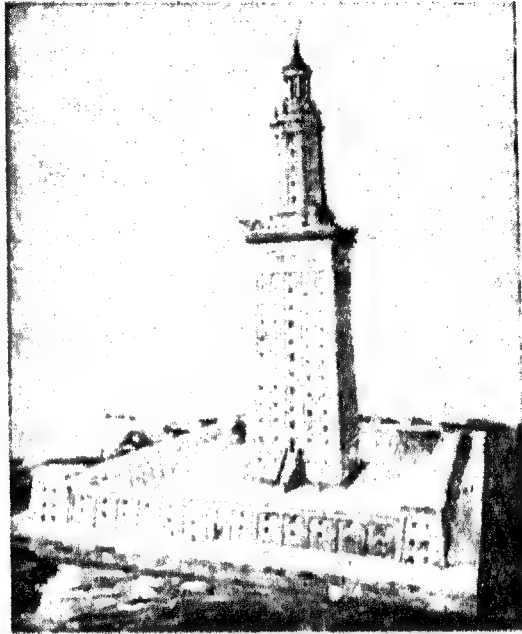
(١) هذا اللقب اتخذته في الأصل أخته وزوجته أرسينوي ، ومعناه المحبة لأختها ، ثم أطلق على الملك نفسه لشدة حبه لها .

أهم أعماله — تنشيط التجارة :

وجه بطليموس فيلادلفوس عنايته إلى ترقية التجارة ، فكان من أعماله تجديد القناة القديمة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر ، وإعادة طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل ، فنشطت تجارة مصر في البحار الشرقية ، مع بلاد الحبشة والعرب والهند ، كما نشطت في البحر المتوسط .

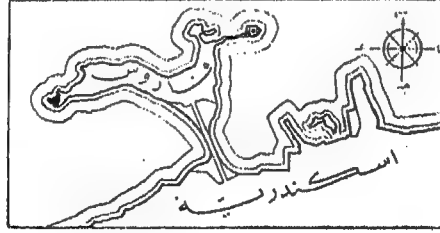
منارة الإسكندرية :

ولهداية السفن أقام بطليموس في الطرف الشمالى الشرقى من جزيرة فاروس منارة ارتفاعها مائة متر ، كانت عبارة عن برج مكون من ثلاثة أدوار : أولها مربع الشكل ارتفاعه ستون متراً وبه نوافذ كثيرة ، وثانيها مثلث الأضلاع ، ارتفاعه



منارة الاسكندرية

ثلاثون متراً ، أما ثالثها فمستدير ، توقد فيه نيران تنعكس على مزايا من المعدن ،
فتراه السفن ليلاً على مسافة بعيدة من الشاطئ . ولقد اشتهرت تلك المنارة
في الشرق ، ووصفها العرب ، واعتبرت إحدى عجائب الدنيا السبع ، وظلت
قائمة حتى القرن الرابع عشر الميلادي ، حين دمرها زلزال شديد ، ومكانها الآن
قلعة قايتباي .



جزيرة فاروس

عناية فيلادلفوس بالزراعة :

عنى بطليموس فيلادلفوس بالزراعة وما يتعلق بها : فمسح الأرض ، وأكثر
من غرس الكروم ، وشجر الزيتون ، والنباتات الزيتية ، وأشجار الفاكهة ،
كما أنه أولى مسائل الري والصرف أكبر عناية ، لا سيما في إقليم الفيوم ، بحفف
حزناً كبيراً من بحيرة موديس . ولما تطلب ذلك أموالاً كثيرة فرض على الفلاحين
ضرائب باهظة . كذلك اهتم بطليموس بتحسين أنواع الحيوان والطيور ، وفي أيامه
استُخدم الحصان كوسيلة للنقل ، وجاب الجمل إلى مصر .

مبانيه :

وعنى بطليموس الثاني بالعارة : فشيّد الهياكل للعبودات المصرية ، ومن أشهرها
جزء من معبد فيله (قصر أنس الوجود) بأسوان ، كما أنه وسع مكتبة الإسكندرية
ودار الفنون بها ، وشيّد في الحى الملكي من المدينة مقبرة عظيمة نقل إليها جثة
الإسكندر ، وكان بطليموس الأول قد نقلها من بابل إلى منف ^(١) .

وكان يرمى من وراء ذلك كله إلى استرضاء الشعب المصرى واكتساب حبه ،
وليس هناك ما يدل على أنه سخر أفراداً في إقامة تلك المباني .

(١) يرجّح البعض أن قبر الاسكندر قائم تحت جامع النى دانيال ، وقد أدام البطالة مقابرهم حوله

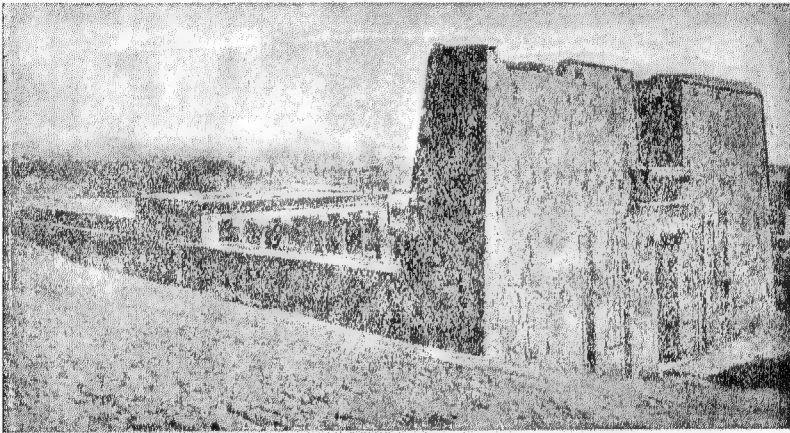


معبد فيلة

بطلميوس الثالث

توسيع أملاكه :

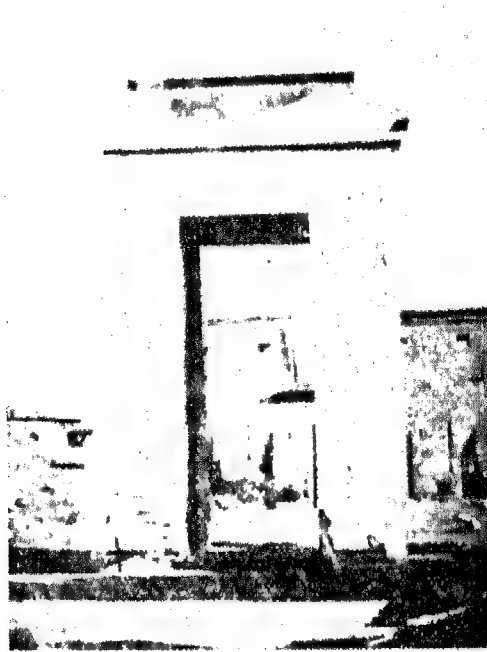
تولى بعد بطلميوس الثانى ابنه بطلميوس الثالث ، وكان ذا أطماع واسعة ،
فغارب الدولة السلوقية فى الشام ، وعبر الفرات ، ومد رقعة أملاك مصر حتى شملت ،
إلى جانب الشام ، طرابلس وبرقة وبلاد النوبة .



معبد ادفو

مبانيه :

ولم تشغله هذه الحروب عن إقامة المباني : فأقام معبداً عظيماً في أدفو، وشيّد
بوابة لا تزال قائمة إلى اليوم ، تجاه معبد الكرنك .



بوابة بطليموس الثالث بالكرنك

تدهور دولة البطالمة :

ولكن البطالمة الأتّحلم يكونوا على شاكّة الأوّل ، فأخذت دولتهم في التدهور
شيئاً فشيئاً ، إلى أن استولى الرومان على مصر ، في أيام الملكة كليوباترة المشهورة
آتحكام تلك الأسرة ، كما سنرى فيما بعد .

الفصل الثانى

حضارة مصر فى عهد البطالمة

الحكومة :

على الرغم من أن البطالمة كانوا يمثلون الحضارة اليونانية فى الشرق ، فقد كانت حكومتهم حكومة مطلقة ، متعددة الدواوين ، كثيرة العمال ، فاتخذوا لأنفسهم كل ما أدعاه الفراغة من السلطان المطلق ، وسيطروا على كل الموارد ، وكرهوا النظم السياسية اليونانية ، ولم ينشئوا فى مصر مدناً على النمط اليونانى ، يحكم أهلها أنفسهم بأنفسهم ، ولم يوجد فى عهدهم إلا الإسكندرية وثلاث مدن أخرى^(١) ، وحتى فى هذه المدن كان لموظفى الحكومة الإشراف التام على شؤونها . واعتمد البطالمة على جهود رعييتهم من وطنيين وأجانب لحفظ كيان دولتهم ، وخصّصوا العنصر الوطنى لإنتاج الثروة الزراعية والصناعية ، ولم يتركوا له من الرياسات إلا الرياسة الدينية ، ومن الآمال إلا الأمل فى الآخرة ، وخصّصوا العنصر اليونانى للحرب والحكم ، وكانت المناصب ، إلا أحقرها ، مقصورة عليه .

السياسة الاقتصادية :

اعتبر البطالمة أرض مصر كلها ملكهم وحدهم ، وقسموها ، ورتبوا استغلالها على الوجه الآتى :

(أ) احتفظ الملوك لأنفسهم بالأرض التى كان يملكها الفراغة والأشراف المصريون ، ووزعوها بين الفلاحين يزرعونها ويؤدون ما عليها من المال للخزانة ، وسخروا هؤلاء الفلاحين ، فوق ذلك ، فى تطهير الترع وإقامة الجسور .

(ب) وخصّص الملوك قسماً من الأرض للمعابد ، يزرعه الفلاحون ويؤدون ما عليه من المال للخزانة ، لا للمعابد مباشرة ، حتى لا تكون بين الكهنة والفلاحين علاقة ، وأخذت الحكومة على نفسها القيام بما يلزم المعابد والشعائر الدينية .

(١) هى مدينة بارانونيوم ، ومحلها اليوم مرسى مطروح ، وقرطاجس التى سبق الإشارة إليها ، وبطولييس هرميو ، وموقعها الآن قرية المشاة ، بمركز جرجا .

- (ج) ووزع الملوك قسما من الأرض على جنودهم من اليونان ، على شرط أن يقوموا بالخدمة الحربية ، وأن يؤدوا عن أرضهم مالا قليلا .
- (د) وكان الملوك يهبون كبار موظفيهم ضيعات كبيرة ، على سبيل المكافأة وإظهار الرضا ، أو لإصلاح الأراضي البائرة .

نظام الاحتكار :

لم يقف الأمر عند الاستيلاء على الأرض ، بل عمد الملوك إلى ما يُعرف باحتكار بعض الأشياء ، وكان الاحتكار يشمل أصنافاً مصنوعة في مصر نفسها ، وأخرى مستوردة من الخارج ، ومن النوع الأول : الورق المصنوع من البردى ، وكذلك المناجم ، والمحاجر ، والملاحات ، والزيت ، ومن النوع الثاني : العاج ، وريش النعام ، وغير ذلك من المحصولات الإفريقية .

وفيما يلي مثل يبين طريقة الاحتكار :

كانت الحكومة تقرر كل عام مقدار ما يجب زراعته من النباتات الزيتية وتستولى من الفلاحين على جميع المحصول ، وذلك بالثمن الذي تراه ، ثم تتولى عصر الزيت في مصانعها ، وتقوم ببيعها في أنحاء البلاد ، بالثمن الذي تريده ، ولا تسمح باستيراد زيت من الخارج ، أو ببيع زيت غير زيتها في الأسواق .

وهذا يدل على تفنن البطالة في ملء خزائنهم بالأموال ، فلا غرابة إذا تعددت الضرائب في عهدهم ، بحيث لم يترك مورد من الموارد ، مهما كان نافعاً ، إلا وفرضت عليه ضريبة .

تنشيط التجارة الخارجية :

نشطت التجارة الخارجية أكبر نشاط ، إذ استغل البطالة موقع مصر الجغرافي الفريد ، وجلبوا الحاصلات من أواسط إفريقية وبلاد الهند والعرب وممالك البحر المتوسط ، واهتموا بالطرق التجارية التي تصل النيل بالبحر الأحمر ، فحفروا فيها الآبار ، وعيّنوا الجند لحراسة سابلها ، كما أنهم أعادوا التركة القديمة التي تصل خليج السويس بالنيل ، عن طريق البحيرات المرة .

كثرة موظفي الحكومة :

وقد استلزمت هذه السياسة الاقتصادية الإحصاء الدقيق والسجلات الوافية حتى لا يضيع على الحكومة شيء ، فأدى ذلك إلى استخدام عدد كبير من الموظفين .

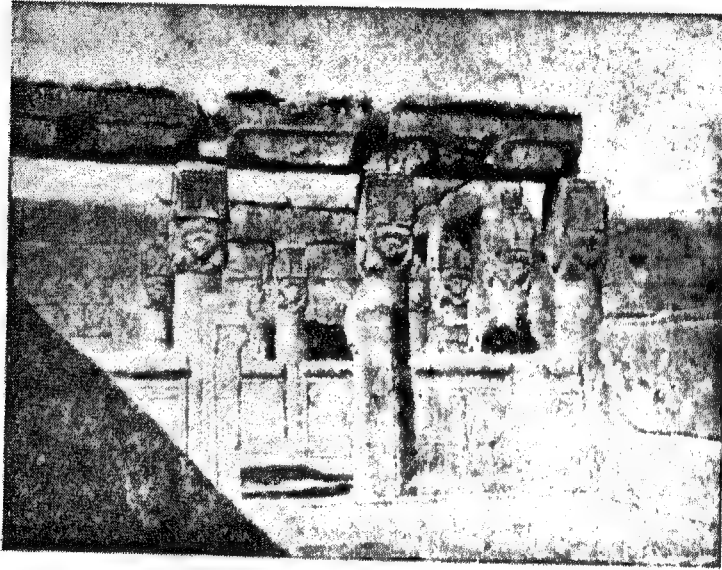
أثر سياسة البطالة الاقتصادية :

ومما لا ريب فيه أن سياسة البطالة الاقتصادية حققت غرضها القريب ، فلأت خزائن الملوك بالمال ، ولكنها كانت في النهاية نكبة على البلاد ، فالاستغلال المنظم لا بأس به ، على شرط أن يكون عمال الحكومة على جانب من الكفاية والنزاهة يضمن عدم إرهاب الناس بالباطل ، ووصول المال المجموع لخزانة الحكومة ، وعلى شرط ألا يشتط الحكام في قتل الصناعة والتجارة الحرة ، وقد ثبت من تاريخ مصر أن الشرطين لم يتحققا في أيام البطالة ، ولا في أيام غيرهم ، ممن جاراهم في هذه السياسة .

المصريون واليونان تحت حكم البطالة

ترك الرياسة الدينية للمصريين :

قدّمنا أن البطالة اعتمدوا على المهاجرين اليونان ، فكونوا منهم جيشهم واختاروا منهم كبار الموظفين ، وخصّصوا أبناء البلاد المصريين ، لإنتاج الثروة ،



معبد دندره

ولم يتركوا لهم من الرياسات إلا الرياسة الدينية ، فأصبح الكهنة المصريون ، في ذلك العهد ، الحفظة الوحيدين على تراث الحضارة الفرعونية ، وشيّدوا المعابد في دندرة ، وأدفو ، وكوم امبو ، وغيرها ، وشجّعوا على توحيد العبادات اليونانية والمصرية ، ولكن البطالمة احتاطوا بحرقوا الكهنة من النفوذ والتدخل فيما ليس من شأنهم .

مركز اليونان الممتاز :

أما اليونان فانهم كَوّنوا الطبقة الممتازة ، ولشعورهم بذلك استمروا مدة طويلة مبتعدين عن المصريين ، ولم تقم بينهم علاقة الحاكم بالمحكوم ، وحلّت اللغة اليونانية محل المصرية في دواوين الحكومة ، واشتغل اليونان بعلومهم وآدابهم على طريقتهم ، وعلموا أبناءهم في مصر تعليماً يونانياً صرفاً ، ولكن سرعان ما تغلب الكل على الجزء ، وفعلت البيئة المصرية فعلها ، فأخذ التقارب بين العنصرين يزداد ، وكثر التزاوج بينهما ، وخصوصاً بعد

أن قلّت الهجرة من بلاد اليونان ، وبعد أن أخذ البطالمة بسياسة التقرب من المصريين ، وهى سياسة اضطروا إليها ، لما وجدوا أن عدد اليونان لا يكفي لتغذية جيشهم ، فحنّدوا المصريين ، وكسب جيشهم المصرى واقعة رخ ، عام ٢١٧ ق. م. ، ضد السوريين ، وزادت قوة الجيوش المصرية شيئاً فشيئاً ، ولولا دخول الرومان مصر ، في سنة ٣٠ ق. م. لضاع ما كان لليونان من مركز ممتاز بهذه البلاد .



صدر من الخرز كان يلبسه الجنود في عصر البطالمة

الإسكندرية في عصر البطالمة

عاصمة الملك :

اتخذ الملوك البطالمة الإسكندرية عاصمة لهم ، وأقاموا في الحى المطل على المرسى الشرقى ، فبنوا فيه قصورهم وغرسوا حدائقهم ، واتخذ الفقراء مساكنهم في الأحياء الغربية من المدينة ، وعلى مقربة منها قام معبد السرايوم العظيم ، الذى سمي ببطليموس الأول للعبود سرايوس .

مقابر الإسكندرية — حرق الجثث :

وبنيت المقابر في جهتين من المدينة ، إحداهما في الشرق ، وكانت خاصة باليونان والأجانب ، والأخرى في الغرب ، وكانت خاصة بالمصريين وبعض اليونان . وعلى الرغم من أن تحنيط جثث الموتى كان لا يزال مستعملاً بمصر إلى ذلك الوقت ، فقد شاعت عادة إحراق الجثث ، ووضع الرفات في آنية جميلة من الفخار ، اشتهرت بصناعتها مدينة الإسكندرية حينئذ ، وفي متحفها اليوم عدد كبير منها ، عُثر عليه في جهات الحضرة والشاطبي والابراهيمية .



آنية لحفظ رفات الموتى

توزيع الماء في المدينة :

وكانت هناك ، في موضع ترعة المحمودية الحالية تقريباً ، ترعة تجلب للمدينة ماء النيل ، وتوزعه على الأحياء المختلفة في قنوات عديدة ، يتجمع ماؤها في صهاريج خاصة .

الإسكندرية والحضارة اليونانية :

صارت الإسكندرية مركزاً رئيسياً للحضارة اليونانية ، وتركزت الحركة الفكرية في دار الكتب ودار الفنون ، واشتغل العلماء بتصحيح المؤلفات اليونانية القديمة ، وبالتأليف في العلوم المختلفة ، فظهر منهم في الأدب : الشاعر ثيوكريتس . وفي الرياضيات : إقليدس ، الذي ألف كتاباً قيماً في الهندسة والجغرافيا ، وإراتوستينس ، الذي قاس طول محيط الكرة الأرضية .

البطالمة والحضارة المصرية القديمة :

بدأ انحلال الحضارة المصرية القديمة بالعهد الصاوي — أي بتغلغل النفوذ الأجنبي في البلاد — ثم جاء العهد البطلمي فآتم الإجهاز على مصر القديمة . وعلى الرغم من أن البطالمة اتبعوا خطة التسامح الديني ، وحافظوا على مظاهر الملكية الفرعونية ، إلا أنهم ، هم ويونانهم ، قوضوا دعائم القومية المصرية وتركوها ، كما قيل ، جسماً بلا روح ، ومعبدًا بلا إله .



الباب التاسع

مصر في العصر الروماني

الفصل الأول

نمو سلطان روما

تأسيس روما :

تأسست روما في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ، في الجهة الشمالية من إقليم لاتيوم Latium ، على المرتفعات الواقعة على ضفة نهر تير ، بالقرب من مصبه ؛ وبعد أن استقر المقام بالمستعمرين الأول ، أخذت تظهر مزايا موقع روما الطبيعي ، وما لبثت أن تدرجت من قرية صغيرة إلى عاصمة للأقليم كله ، ثم أخذت تبسط حكمها على أجزاء إيطاليا الأخرى ، وبعد أن تم لها هذا أخضعت ممالك العالم القديم حول البحر المتوسط .

حكومة روما :

كانت روما في أول أمرها ملكية ، وظلت كذلك ما يقرب من قرنين ونصف قرن ، ثم طرد الرومان الملوك وأقاموا حكومة جمهورية ، ابتداءً عهدها في سنة ٥٠٩ ق.م. ، وانتهى في سنة ٣١ ق.م. وكانت شئون الحكم في النظام الجمهوري في يد موظفين ينتخبهم أهل المدينة لسنة واحدة ، وأهم هؤلاء : القنصلان ويتوليان معاً السلطة التنفيذية والقيادة في الحرب ، وإلى جانبيهما موظفون للشؤون القضائية والمالية وغيرها .

مجلس الشيوخ "السناتو" :

وبمرور الزمن أخذ مجلس الشيوخ ، أو السناتو ، يهيمن على أصحاب المناصب واختص بمسائل السياسة الخارجية ، وأدار دفتها بحكمة وحكمة ، وعظم في عهده شأن روما إلى أن تم لها السيادة على كل إيطاليا ، وبدأت حروبها وفتوحها الخارجية ، ومن أهمها : الحروب الطويلة بين روما وقرطاجة ، وبينها وبين بلاد اليونان وآسيا وسوريا ، والحملة العديدة في أسبانيا وإفريقية الشمالية .

الحروب البونية :

وتعتبر الحروب بين روما وقرطاجة ، وهي المعروفة بالحروب البونية أو الفينيقية ^(١) ، من الأدوار الحاسمة في تاريخ نمو سلطان روما ، وقد تعرضت في خلالها لخطر شديد ، ولكنها ثبتت ونجحت ظافرة . وكان وقوع هذه الحروب

أمراً لا بد منه ، إذ أن قوة قرطاجة كانت عقبة تحول دون اتساع سلطان روما خارج إيطاليا .



هانيبال ، القائد القرطاجي

وقد قامت الحرب في دورها الأول بسبب تنافس الدولتين على الاستئثار بالنفوذ في جزيرة صقلية ، ثم اتسع نطاقها وأصبحت أمراً حياة أو موت وفي الدور الثاني من الحرب ظهر البطل هانيبال ، القائد القرطاجي .

(١) نسبة إلى فينيقية ، موطن مؤسسي قرطاجة (تونس الحالية) ، التي كانت مدينة تجارية امتد نفوذها على سواحل القمم الغربي من البحر المتوسط ، وبخاصة في صقلية وأسبانيا .

هانيبال وسيبيو .

استطاع هانيبال بمقدرته الحربية الفائقة ، أن يزحف من أسبانيا ، ويعبر جبال الألب ، ويُغَيِّر على إيطاليا من الشمال ، فعل كل هذا بسرعة كبيرة شَلَّت حركات الرومان ، فانتصر عليهم في مواقع حربية هامة ، ولكنه فشل في الاستيلاء على مدينة روما ، وتمكنت الحكومة الرومانية من إرسال القائد سيبيو إلى أسبانيا فاستولى على مستعمرات قرطاجة فيها ، وبعد أن تم له ذلك أغار على ساحل إفريقية الشمالى ، مما اضطر هانيبال إلى الجلاء عن إيطاليا والإسراع إلى إفريقية للدفاع عن وطنه .

موقعة زاما وهزيمة قرطاجة :

وفي موقعة زاما ، سنة ٢٠٢ ق.م . ، انتصر سيبيو على هانيبال انتصاراً حاسماً واضطرت قرطاجة إلى عقد معاهدة روما ، التى كان من شروطها : أن تسلم



جندي روماني

أسطولها وتحتل عن مستعمراتها ، وألاً تُقدم على حرب إلا بأذن من روما ، ومعنى هذه الشروط زوال قوة قرطاجة وضياح استقلالها ، وكان يصح أن يقف الأمر عند هذا الحد ، لولا تصميم فريق من زعماء الرومان على محو قرطاجة من الوجود ، وفعلوا ذلك في نهاية الحرب البونوية الثالثة ، عام ١٤٦ ق . م .

روما أقوى دولة في البحر المتوسط :

وكانت روما في تلك الأثناء تعمل على إخضاع جميع الممالك المطلة على البحر المتوسط ، وجعله بحراً رومانياً صرفاً ، فأخضعت مقدونيا ، والمدن اليونانية والأناضول ، ثم أخذت توجه مطامعها نحو مصر ، فاستولى عليها أكتافوس ، بعد انتصاره في موقعة اكتيوم البحرية ، سنة ٣١ ق . م . كما سنرى .

الفصل الثاني

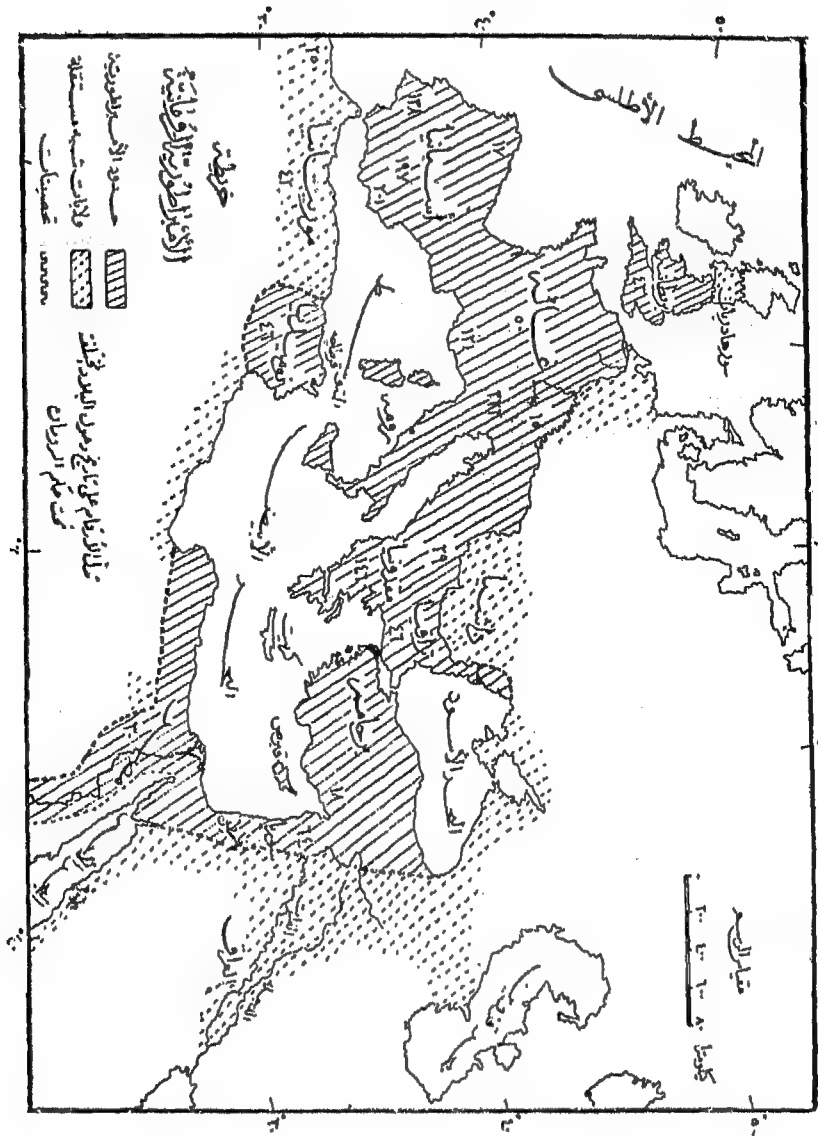
الإمبراطورية الرومانية

أكتافوس وإنشاء النظام الإمبراطوري :



عاش أكتافوس ، بعد انتصاره في موقعة اكتيوم ، أربعة وأربعين عاماً ، قضاه في وضع نظام سياسي للدولة الرومانية ، هو النظام الإمبراطوري ، وقد نجح نجاحاً باهراً ، حيث أخفق غيره من الزعماء السياسيين ، ويرجع السر في نجاحه إلى أنه عني بمظاهر النظام الجمهوري وتجنب الظهور بمظهر الحاكم المطلق والتلقب بألقاب الملكية ، واكتفى بتلقب نفسه "أجستوس" أو صاحب الفخامة ، وبأن تكون في يده حقيقة السلطان لا مظهره .

أجستوس ، أول أباطرة رومة



أجسطوس وسياسة الإصلاح :

استخدم أجسطوس سلطته في تنظيم شؤون الدولة الإدارية والمالية والحربية والاجتماعية ، ونال نظام الحكم في الولايات أكبر نصيب من عنايته ، فعني بضبط جبايتها وإصلاح مرافقها العامة ، كما أنه اهتم بتأمين حدود الدولة ، وكانت على عهده تشمل : نهر الرين في الغرب ، والطونة في الشمال ، والفرات في الشرق ، والصحراء الكبرى في الجنوب . وعمل على أن يصمد عنها غارات المغيرين من الأثم والقبائل المتبربرة ، التي كانت تقطن فيما يتاحمها .

وكان عهده في الجملة عهد طمانينة سادت العالم الروماني الواسع الأرجاء ، وفي هذا الهدوء التام كان مولد السيد المسيح عليه السلام .



الإمبراطور هادريان

بعض خلفاء أجسطوس :

واشتهر من خلفاء أجسطوس : الإمبراطور تراچان ، الذي أثر اتباع سياسة التوسع الحربي ، فأضاف إلى الدولة الأرض التي نعرفها الآن باسم رومانيا ، كما ضم إليها أرمينيا والجزيرة ولكن خليفته ، الإمبراطور هادريان ، فضل اتخاذ خطة التخلي عن بعض هذه الفتوح ، وجعل الفرات الحد الشرقي للدولة ، وكان هادريان مولعاً بالتجول في الولايات ، وترك أينما حل ما يدل على عظم همته .

الاضطراب بعد عهد هادريان

إغارات المتبربرين :

هاجمت القبائل المتبربرة الحدود ، بمحاولة الاستقرار في الأراضي الرومانية ، فشغل الأباطرة طول الوقت بمقاومة تلك القبائل ، تارة بالسياسة وطوراً بالحرب ، ولكنهم لم يقنوا في النهاية على صد غاراتهم ، فسقطت ولايات الدولة في الغرب تحت حكم المتبربرين .

الارتباك الداخلى :

وكذلك عم الارتباك داخلية البلاد، وذلك لأسباب أهمها : تدخل ألوية الجند الرومانى فى شئون الحكم عامة وفى عزل الأباطرة وتنصيبهم خاصة ؛ وانتشار المسيحية فى ولايات الدولة انتشاراً قوِض الأسس التى قام عليها العالم الرومانى : إذ أن النصرانية حاربت الوثنية ، وأبى الرومان المسيحيون أن يجاروا مواطنيهم الوثنيين فى تقديس الأباطرة وعبادة تماثيلهم فى المعابد ؛ كما أن المسيحية أنكرت الرق ، الذى كان عماد النظام الاقتصادى الرومانى ، ودعت إلى إنكار الذات وإلى المساواة فى مجتمع ساد فيه السعى إلى القوة والجاه ، فلا عجب أن كانت المسيحية عاملاً من عوامل انحلال العالم الرومانى .

الأباطرة والمشكلة الدينية :

واجه الأباطرة المشكلات الثلاث : إغارات المتبربرين ، والفتن العسكرية ، والمسيحية ، بمختلف الوسائل ، وظنوا أنهم يستطيعون حل مشكلة المسيحية باضطهاد معتنقيها ، ومحو المسيحية بمحو المسيحيين ، ولقد صدر هذا عن فكرة سياسية ، لا عن مجرد قسوة ، إذ أخذ بخطّة الاضطهاد أكرم الأباطرة خُلُقاً وأوسعهم فكراً .

وقد بلغ الاضطهاد أشده فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ ميلادية) ، ولكنه لم يأت بالغرض المقصود منه ، بل زاد المسيحيين تمسكاً بدينهم ، إلى أن أصبحوا فى أيام قسطنطين (٣٠٦ — ٣٣٨ م .) أكثر عدداً من الوثنيين ، فرأى هذا الإمبراطور أن يعتنق دين الكثرة ، وأن يعترف به ديناً من أديان الدولة .

ضعف شأن الوثنية على توالى الزمن ، وأصدر الإمبراطور ثيودوسيوس مرسوماً ، فى سنة ٣٨٠ م ، يحتم اعتناق المسيحية ويحرم عبادة الأوثان ، ويغلق معابدها . ولكن هذا لم يحل المشكلة الدينية ، إذ انقسم المسيحيون فرقاً ، واشتد الخلاف بين الفرق اشتداداً صحبه اضطراب فى الأمن ، مما اضطر الأباطرة إلى التدخل بين الفرق ومناصرة بعضها على البعض الآخر ، وانقسمت بذلك عروة الوحدة الدينية تماماً .

الاباطرة وتأمين الدولة :

أما مشكلة تدخل الجند في الحكم ، وما يتبع ذلك من ثقل الأعباء على الإمبراطور فقد عالجها "دقلديانوس" بإقامة ثلاثة أباطرة آخرين بجانبه ، وبإحاطة شخص الإمبراطور بمظاهر الملكية القديمة ، حتى تعظم هيئته ، فلا يجسر إنسان على مسه بسوء ، ولكن لم يؤد هذا إلى المقصود منه ، فتجدد النزاع على العرش ، ولم يستتب الأمر نوعاً ما إلا بانتصار قسطنطين .

انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى دولتين :

رأى قسطنطين أن يعتمد عن روما ، وجندھا المضطرب ، وموقعها الذي يهدده المتبررون في الغرب ، فاتخذ عاصمته في المدينة ، التي عرفت باسم القسطنطينية (استانبول الحاضرة) ، وبذلك انقسم العالم الروماني إلى غربي وشرقي ، وكان مركز الأول روما ، والآخر القسطنطينية ، ولكل منهما بيئته وتقاليده ، وما لبث أن انقسم سياسياً إلى دولة رومانية غربية ، ودولة رومانية شرقية ، وذلك منذ موت ثيودوسيوس ، في سنة ٣٩٥ م .

نهاية الدولتين :

لم تعمر الدولة الغربية طويلاً ، بل سقطت في أيدي المتبربرين ، ولم يحاس على عرش روما إمبراطور بعد سنة ٤٧٦ م .

ولكن الدولة الشرقية ، التي أصبحت مصر جزءاً منها منذ انقسام الدولة ، تُدر لها بقاء أطول ، فظلت قائمة إلى أن محأها السلطان محمد الثاني عند ما فتح القسطنطينية ، في سنة ١٤٥٣ م .

الفصل الثالث

مميزات الحضارة الرومانية

سيادة الطمأنينة :

ضمت الإمبراطورية الرومانية شعوباً مختلفة وحضارات متباينة ، ولكن على الرغم من ذلك تمتع أفرادها جميعاً بالطمأنينة طول عهد الأباطرة ، فكانوا يتنقلون بين أرجائها آمنين ، يخضعون لحكومة واحدة وقانون واحد ، ولهم بعض ما للرومان أنفسهم من الحقوق ، وذلك يدل على حكمة الساسة الرومان .

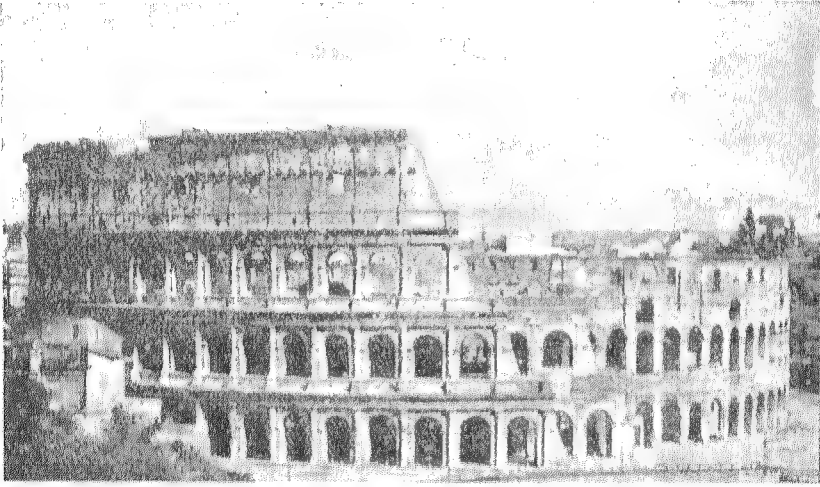
القانون الروماني :

وكما اشتهر الرومان بحكمتهم السياسية امتازوا كذلك بقدرتهم على سنّ القوانين ولا يزال قانونهم عنصراً هاماً من عناصر المدنية الحالية ، فقد اتخذته كثير من الدول أساساً لقوانينها .

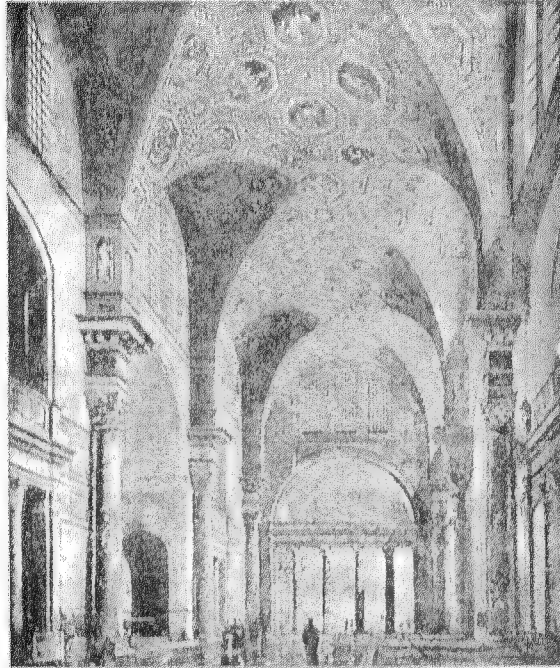
اتصال الحضارة الرومانية بحضارة اليونان :

ومما ميز الحضارة الرومانية اتصالها بالحضارة اليونانية ومحافظة عليها ، فشغف متعلمو الرومان بدراسة اللغة اليونانية والعناية بأدائها ، وفضل بعضهم التخاطب باليونانية على اللاتينية ، لغتهم الأصلية ، واتخذ أغنياءهم معلمين لأنسابهم من اليونان .

ولكن على الرغم من ذلك ، ظهر بين الرومان من أبناء الكتابة باللغة اللاتينية : فالف شيشرون كُتِباً في الخطابة والأدب لا تزال أنموذجاً يُحتذى ، كما وضع ليفي تاريخاً مسهباً لروما ، ونظم هوراس وفرجيل أشعاراً خالدة .



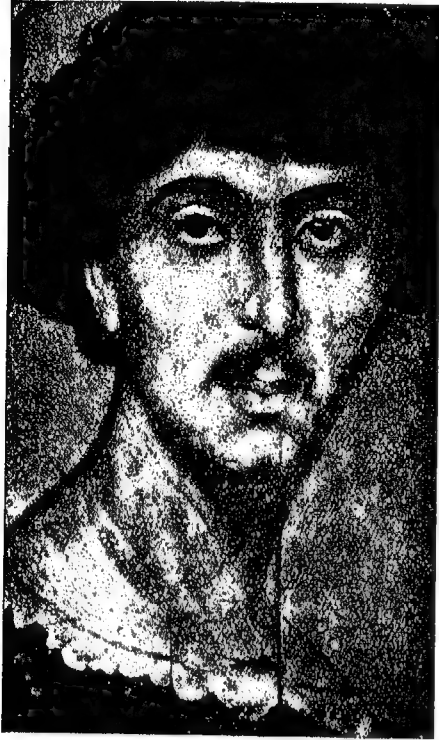
الكلوزيوم — ملهى رومه الكبير ، وكان يسع خمسين ألفا من المترين بمشاهدة حفلات المصارعة



روفي حمام روماني برومه (صورة تكوينية)

ظهور المسيحية :

اقتربت الحضارة الرومانية بظهور المسيحية ، وبعد أن قاوم الأباطرة هذا الدين ، تشيّعوا له ، فأدى ذلك إلى انتصار المسيحية على الوثنية نهائياً ، وأصبح الدين الجديد دعامة من دعائم الحضارة الأوروبية ، وبما لا شك فيه أن أثر المسيحية في التاريخ أعظم شأناً من القانون الروماني والآداب اليونانية واللاتينية .



صورة مصرية مرسومة على الخشب

الفنون :

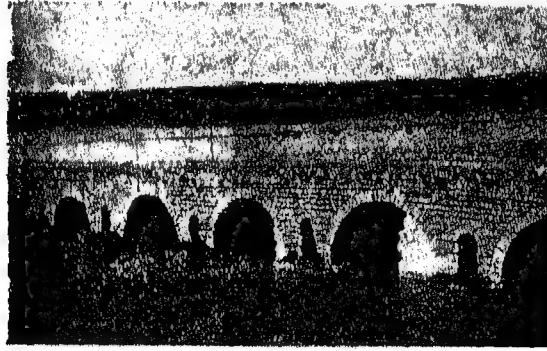
ولع الرومان بالبناء ، ولكنهم اتجهوا فيه وجهة تخالف وجهة المصريين القدماء واليونان ، فلم يعنوا ببناء المعابد والمقابر عنايتهم بتشيد القصور الفخمة ، والحمامات الجميلة ، والملاهي الفسيحة ، ودواوين الحكومة وما إلى ذلك من المباني الخاصة والعامة ، التي حلّوا جدرانها بالنقوش .

كذلك برع الرومان في رسم صور الأشخاص بالألوان على ألواح من الخشب ، فازدحت

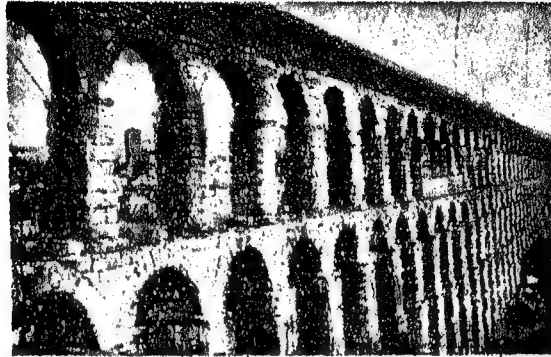
ألوارع المدن الرومانية الهامة بالمصورين ، الذين كانوا يقومون بعمل هذه الصور في وقت قصير ، وقد عثر على بعضها في مصر ، ولا يزال باقياً بمتاحفها إلى الآن في حالة تدعو إلى الإعجاب .

الطرق والقناطر :

ومن مظاهر الحضارة الرومانية كذلك ، العناية بإنشاء الطرق وتعبيدها ، ولقد دعا الرومان إلى هذا ، اتساع رقعة إمبراطوريتهم ورغبتهم في ربط أجزائها بعضها ببعض ، ولم تقمهم الأنهار عن الوصول إلى غايتهم ، فكانوا يقيمون فوقها القناطر ، التي لا يزال بعضها قائماً إلى اليوم .



قنطرة رومانية في أحد بلاد إيطاليا



قنطرة رومانية تجري فوقها قناة

كذلك مدّ الرومان مجارى لنقل الماء إلى المدن البعيدة عن الينابيع والأنهار ، وكانت هذه القنوات تسير تارة تحت الأرض ، وطوراً فوق قناطر يشيدونها لهذا الغرض . وصفوة القول أن الحضارة الرومانية اتجهت وجهة عمرانية عمليه ، في كل ناحية من نواحيها .

الفصل الرابع

علاقة الرومان بالبطالمة

تدخل رومه في شؤون مصر :

ارتبطت مصر وروما بعلاقات الصداقة في عهد بطليموس الثاني ، واتصلت روما بمصر ، في عهد بطليموس الرابع ، وجددت هذه العلاقات ، وكان ذلك في أثناء الحرب البونية الثانية ، ثم أخذت تلك العلاقات تتطور ، وبدأ الرومان يتدخلون في شئون مصر ، خصوصا وقد توالى على عرشها ، في العهد الأخير



بطليموس الحادى عشر

من حكم البطالمة ، ملوك ضعاف كانوا ينظرون إلى روما كحامية لهم ، وروما من جانبها تنظر إلى مصر كولاية لا بد من أن تسقط في يدها ، ولكنها اكتفت في هذا العهد بالمركز الممتاز الذى كسبته لنفسها في مصر ، إثر تدخلها المتوالى في أخص شؤونها ، وساعد على تحقيق مآربها النهائى وجود ملك من هؤلاء الملوك الضعاف ، يسمى بطليموس الحادى عشر ، وهو أبو كليوباترة

المشهوره ، لحأ إلى رشوة زعماء الرومان لتحمى جيوشهم عرشه . وبعد موته آل ملكه إلى ابنته الكبرى ، كليوباترة ، التى أشركت معها فى الحكم أخاها الصغير ، وتزوجته ، وكان يقع دائما بينهما خلاف من أجل الاستئثار بالحكم ، كثيرا ما احتدم إلى درجة أدت إلى نشوب الحرب بينهما .

النزاع بين يوليوس قيصر وپمى :

وصادف وقوع هذا الخلاف اشتداد النزاع فى الدولة الرومانية بين زعيمين عظيمين هما : يوليوس قيصر وپمى ، ولما تقابل الزعيان المتنافسان فى ساحة القتال ، ببلاد اليونان ، كُتِبَ النصر فى النهاية ليوليوس قيصر ، فى موقعة فرساليا ، سنة ٤٨ ق . م . ، وفتر منافسه پمى الى مصر ، فتبعه قيصر اليها ، ولكن پمى لقي حتفه فى مصر غيلة .



يوليوس قيصر

يوليوس قيصر وكليوبطرة :

لقيت كليوبطرة قيصر بالإسكندرية فاستعانت به لينصرها على أخيها ، وفعلا حقق رجاءها ، وبعد أن أقام قليلا بمصر عاد الى روما ، عام ٤٦ ق . م ، تاركا فى مصر حامية رومانية لتأييد كليوبطرة .

مقتل قيصر :

وقامت في روما حركة للتخلص من يوليوس قيصر وأطاعه السياسية ، دبرها جماعة من أنصار النظام الجمهوري ، واغتال المتآمرون قيصر ، في أوائل سنة ٤٤ ق.م .

أنطونيوس وكليو بطرة :

وظهر على أثر اغتيال قيصر ، زعيان جديدان هما : أنطونيوس وأكتافيوس ، وثنائهما ابن أخت قيصر وابنه بالتبني ، واختلف الرجلان على السلطة ، ثم اتفقا على أن تكون الأقطار الشرقية من نصيب أنطونيوس ، والغربية في يد أكتافيوس ولكن ما لبث أن تنكر كل منهما لصاحبه ، وطلق أنطونيوس زوجته ، وكانت أخت أكتافيوس ، خصمه ، ثم تزوج بكليو بطرة .



كليو بطرة آترة البطالمة

موقعة أكتيوم البحرية ، سنة ٣١ ق.م :

وكانت هذه الملكة الشهيرة ترجو أن يمكنها الشقاق القائم في الدولة الرومانية من الاحتفاظ باستقلال بلادها ، فأزرت أنطونيوس ، ووضعت تحت إمرته جيشها وأسطولها ، ولكن لم يتحقق رجاؤها ، إذ انتصر أكتايوس على أنطونيوس و كليوباترة ، في موقعة أكتيوم البحرية ، على الساحل الغربي لبلاد اليونان ، سنة ٣١ ق.م . ، كما انتصر على كليوباترة براً في مصر نفسها .

نهاية أنطونيوس و كليوباترة :

يئس أنطونيوس من أمره فانتحر ، وفشلت كليوباترة في مفاوضاتها مع أكتايوس وتأكدت أنه يريد أن يأخذها أسيرة إلى روما ، مُجَلَّةً في الأغلال ، ولهذا آثرت الموت على الحياة ، فانتحرت . وقد جاء في الأساطير القديمة أنها وضعت ثعباناً على صدرها لدغها فماتت ، ولكن هذا القول لا يزال في حاجة إلى إثبات .



أنطونيوس



كليوباترة وعلى صدرها ثعبان
(صورة خيالية)

وبموت أنطونيوس و كليوباترة خلا الجولاً أكتايوس وأصبح سيد العالم الروماني ومصر ، منذ سنة ٣٠ ق.م .

الفصل الخامس

مصر تحت حكم الرومان

٣٠ ق.م — ٦٤١ م.

استيلاء أكتافيوس على مصر :

بعد موت انطونيوس وكليوباترة دخل مصر أكتافيوس (اجسطوس) ، أول أباطرة روما ، بجيش جرار استولى على البلاد بأسرها ، عام ٣٠ ق.م. ، وحل محل ملوك مصر الأقدمين ، من فراعنة وبطالمة ، وتلقب بما كانوا يلقبون به من ألقاب التشریف .

مصر حقل روما :

وكان لمصر في نظره مقام خاص ، إذ اعتبرها حقلاً يُمَوِّنُ أهلَ روما بالغلل ، كما أدرك أن ثروتها وموقعها الجغرافي يُمَكِّنُ مَنْ تقع في يده من الزعماء أن يصبح قوة لا يستهان بها ، فوضعها تحت حكمه مباشرة ، وزاد في الحرص عليها ، فحرم على الأشراف والشيخ الرومان زيارتها إلا بإذنه ، كأنها جزء من أملاكه الخاصة .

تأمين حدود مصر :

واهتم أجسطوس بتأمين حدود مصر ، وتوطيد النظام فيها ، وأنزل بها ثلاثة ألوية من الجند الروماني ، زادوا على العشرين ألفاً ، واختار لهم ثلاثة مراكز رئيسية : بالقرب من الإسكندرية ، وفي الجهة التي نسميها الآن مصر القديمة ، وفي إقليم طيبة ، حيث الطرق بين وادي النيل والبحر الأحمر من جهة ، وبين وادي النيل والواحات من الجهة الأخرى ، وحيث نفوذ الكهنة المصريين قوى من قديم الزمان . هذا إلى مراكز ثانوية عديدة متفرقة .

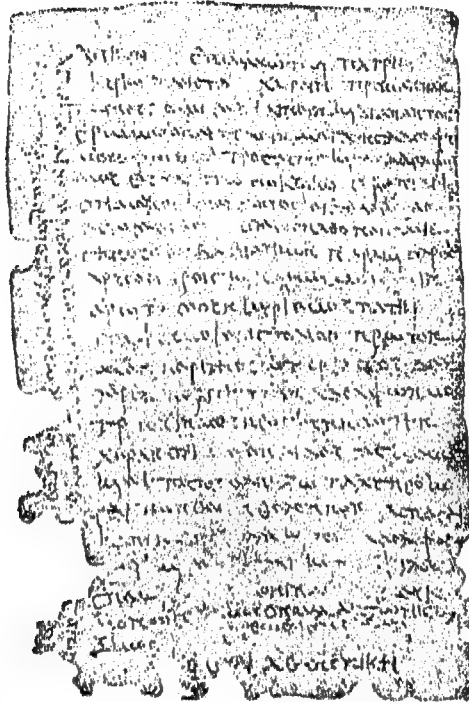
ولم تقتصر واجبات الجند على الأعمال الحربية وضبط الأمن ، بل استخدمتهم الحكومة في جمع الضرائب ، وتطهير الترع ، وصيانة الجسور ، وما إلى ذلك .

إصلاح الإدارة :

وقسم أجسطوس مصر ثلاثة أقسام رئيسية : الدلتا ، وطيبة ، وما بينهما ، وتشمل سبع مديريات ، جعل على رأس كل مديرية منها مديراً ، وعلى رأس كل قسم من الأقسام الثلاثة حاكماً ، ووضع على الكل والياً ينوب عنه ويمثله في كل الشئون . وكان بجانب الوالى عمال للآلية والقضاء وغيرهما من فروع الحكم .

سياسة أجسطوس نحو اليونان واليهود :

وأمر أجسطوس بأن تبقى للذن اليونانية في مصر بعض حقوقها ، ولكنه لم يشجع اليونان المتوطنين على الاعتقاد بأنهم سادة البلاد ، ولهذا ساعد اليهود القاطنين في الإسكندرية وغيرهم على رفع رؤوسهم والاعتداد بأنفسهم ، ولكنه لم يستطع ، إلا الاعتراف بما لليونان من مكانة ، يدل على ذلك أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية السائدة في العصر الروماني .



خطاب باللغة اليونانية ، أرسله جندي مصري الى أمرته في مصر ، بعد وصوله الى إيطاليا مع الجيش الروماني

سياسة أجسطوس نحو المصريين :

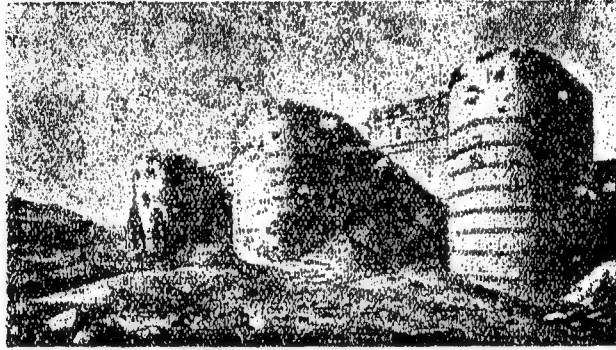
واتبع أجسطوس إزاء المصريين نفس السياسة التي اتبعها البطالمة ، فترك لهم الحرية الدينية ، واهتم بالمعابد ، وما إلى ذلك ، ولكنه عني ، كما عني البطالمة ، بمراقبة الكهنة مراقبة دقيقة ، وعمل على تجريدهم من ثروتهم ونفوذهم .

وفي أثناء حكم أجسطوس ، فر إلى مصر يوسف النجار والسيدة مريم ومعهما السيد المسيح طفلا ، فأوتهم مصر فترة من الزمن .

بمجل أحوال مصر في العصر الروماني

توالى على مصر الولاة من قبل الأباطرة ، ولكن حقيقة الحكم الروماني لم تتغير ، وكل ما هنالك أن من الولاة من كان أقدر من غيره أو أكثر استقامة أو نزاهة .

ومن الأباطرة من عني بتنمية موارد الثروة ، أو بتشيد المباني الحربية أو الدينية ، أو بدفع إغارات المتبربرين من سكان الصحاري عن وادي النيل ، فأعاد تراجان حفر الخليج بين النيل والبحر الأحمر ، كما شيد فيما يقال ، حصن بابليون ، ولا تزال بعض أبراجه قائمة بمصر القديمة .



حصن بابليون

كذلك أصلح دقلديانوس شئون الإدارة ، وآثر أهل الاسكندرية برضاه فأقاموا له نُصبًا تذكاريًا هو عمود السوارى المعروف .

الفتن :

ولكن الأمور كانت في أغلب الأحيان لا تسير على هذا المنوال ، فإن الفتن كانت مستمرة ، وبخاصة في الإسكندرية ، بين اليهود واليونان ، كما أن المصريين كانوا يحاولون من وقت لآخر رفع نير الحكم الأجنبي عن أعناقهم ، وكان ذلك ينتهى عادة باضطراب الأمن ، وسفك الدماء وازدياد البؤس والشقاء.



عمود السوارى

دخول المسيحية وظهور الرهبنة في مصر .

دخلت المسيحية مصر على يد القديس مرقس ، في عهد الإمبراطور نيرون ، وذلك في منتصف القرن الأول الميلادى ، وكان انتشارها أهم ما حدث في العهد الرومانى ، وقد بدأ ذلك خلال القرن الثالث الميلادى ، وكان المصريون على استعداد لقبولها ، وخاصة بعد أن قوض الحكم الأجنبي والاختلاط بالأجانب سلطان الديانة المصرية

القديمة، ووجد المصريون في الدين الجديد عقيدة البعث، وهي من أهم معتقداتهم القديمة.

وقد ظلت على المسيحية المصرية روح التأمل والزهد، فاعتصم الكثير من المصريين بكهوف الصحراء، فراراً من ظلم الإنسان ومساوئ الدنيا، وبدأت بذلك حياة الرهبانية المصرية وتشيد الأديرة.

الحكومة الرومانية والمسيحية :

وقد قاومت الحكومة الرومانية انتشار المسيحية، وخاصة في أيام دقلديانوس الذي قُتِلَ بأمره عدد كبير من المسيحيين المصريين، ولهذا سُمي الأقباط عصره "عصر الشهداء"، وجعلوا أول سنة من حكمه (٢٨٤ م.) مبدأ التقويم القبطي.

واستمر اضطهاد الأباطرة الرومانيين للمسيحيين إلى أن اتخذ الامبراطور قسطنطين المسيحية ديناً رسمياً، وبمرور الزمن ضعف شأن الوثنية، وخاصة حين حتم الامبراطور يثودوسيوس اعتناق المسيحية، وحرم عبادة الأوثان، كما أسلفنا.

ولكن المسيحيين انقسموا فرقاً اشتد الخلاف بين أفرادها اشتداداً أدى إلى قيام فتن دموية.

سوء حال مصر :

فلا عجب أن سارت أحوال مصر من سيء إلى أسوأ، فزاد الفقر، وتحايَل الحكم على ابتزاز الأموال، واختل الأمن، ونفّر الخلاف الديني المصريين من أباطرة الدولة الرومانية الشرقية في القسطنطينية، وكانت مصر تتبع تلك الدولة منذ انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين في نهاية القرن الرابع الميلادي.

إغارة الفرس، ٦١٧ م. :

كره المصريون حكم الرومان، واتفقوا الفرس ذلك فتوغلوا في أملاك الدولة الرومانية، وفتحوا الإسكندرية، سنة ٦١٧ م.

عودة الرومان :

ولكن لم يدم حكمهم طويلاً ، إذ قام الإمبراطور هرقل وأجلاهم عن ممتلكاته ، وغزوا بلادهم ، ودخل قاعدة ملكهم فاضطر الفرس إلى الانسحاب من مصر ، وعاد إليها الرومان ، في عام ٦٢٨ م .

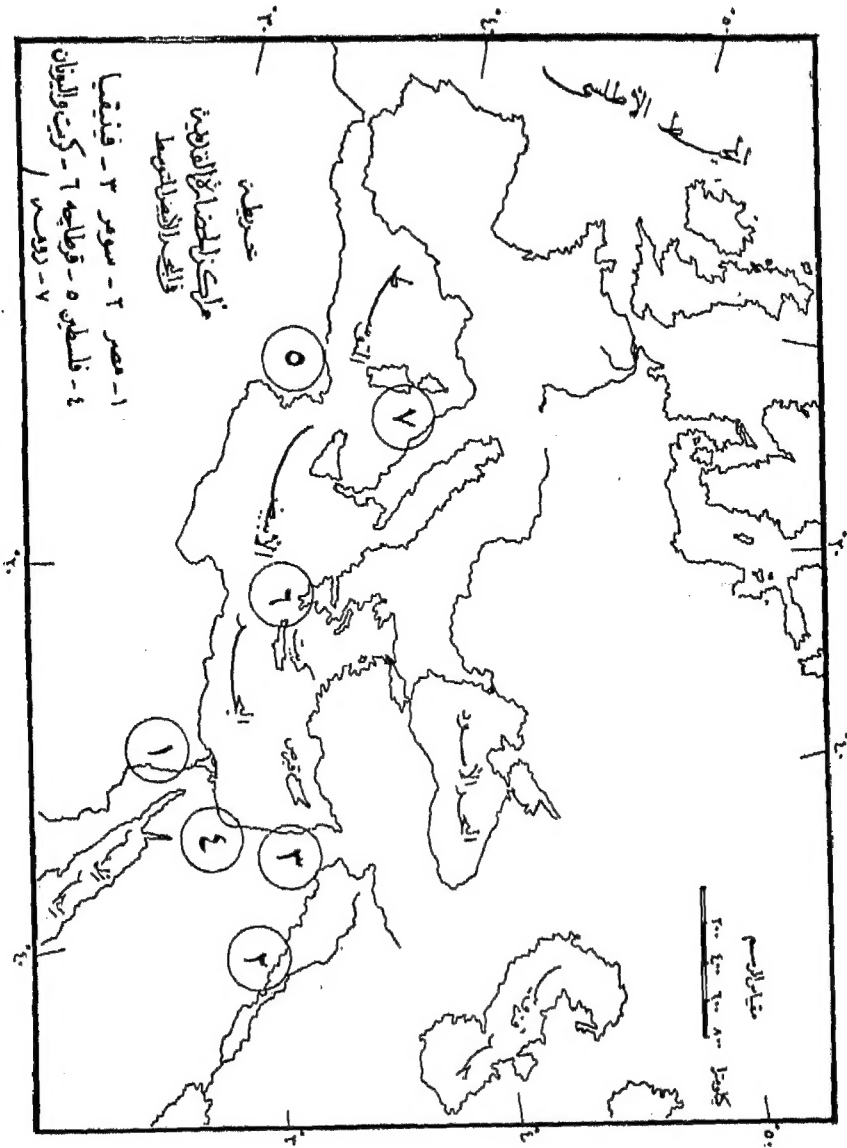
نهاية الحكم الروماني في مصر :

لم يتعظ الرومان بماضى سياستهم في مصر ، فظلّ المصريون ، على سابق عهدهم يكرهون حكمهم .

ولم يسؤ المصريون تَوَغُّلُ الجيوش العربية في ولايات الدولة الرومانية الشرقية ، عندما بدأت الفتوح الإسلامية ، وانتزع المسلمون من الرومان الشام وفلسطين ، وكذلك مصر ، التي فتحها عمرو بن العاص ، في سنة ٦٤١ م .

وبذلك دخل تاريخ مصر والمصريين في دور جديد .





ديانة مصر القديمة
النيل في عهد الفراعنة
وادي الملوك
الموتى الفرعوني
التداوي بالأعشاب في مصر
القديمة
آلهة المصريين
عندما حكمت مصر الشرق
نهاية مدينة فرعون

الطب المصري القديم
مصر في العصور القديمة
تاريخ الفن المصري القديم
تاريخ توت عنخ آمون
ويتبعه تاريخ عالم الفراعنة
الأثر الجليل لقدماء وادي النيل
الموارد والصناعات عند قدماء المصريين
الطب والتحنيط في عهد الفراعنة
الدليل المصري للمتحف المصري

Bibliotheca Alexandrina



0354298



MADBOULI BOOKSHOP

مكتبة مذبول

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٥٧٥٦٤٢١ 5756421 Tel. : 6 Talat Harb SQ.